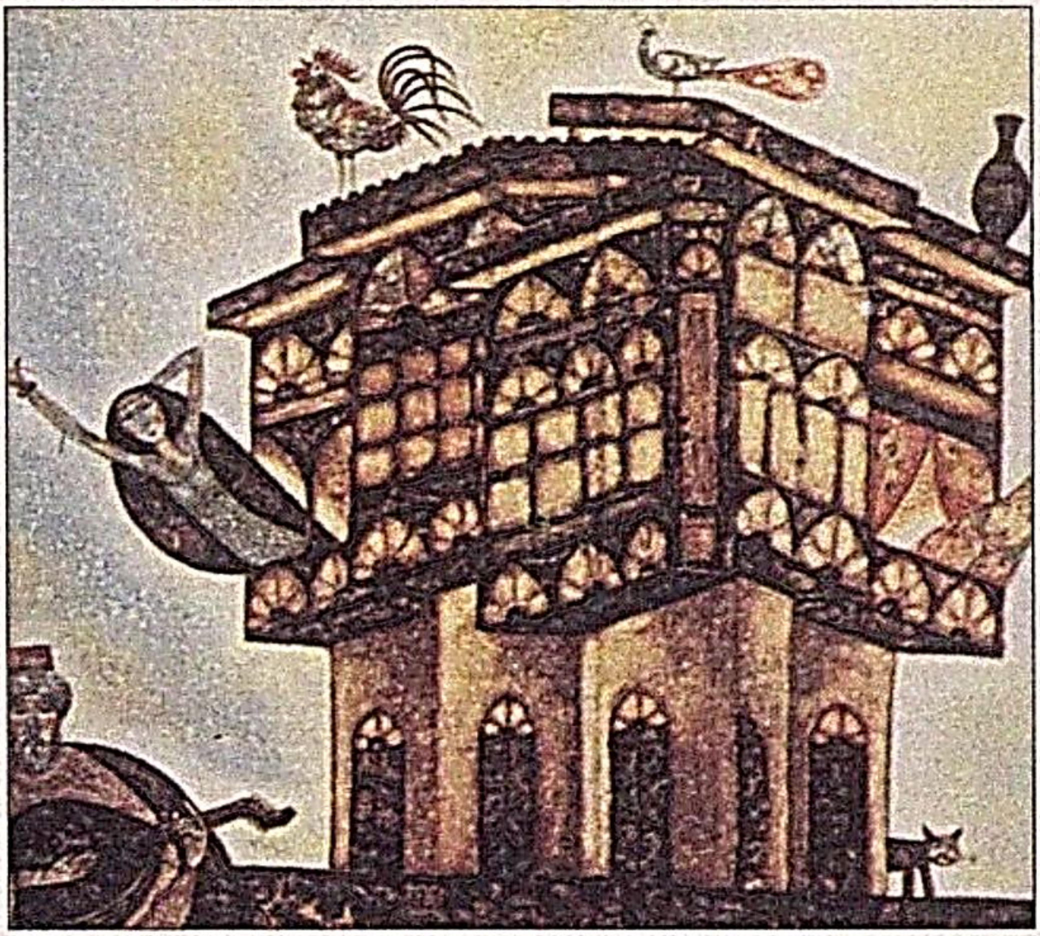
عبده خال

الأيام لا تخبئ أحداً



رواية

علي مولا

منشورات الجمل

عبده خال

الأيام لا تخبئ أحداً

روايـة

منشورات الجمل

عبده خال: **الأيام لا تخبىء أحداً**، رواية

ولد **عبده خال** عام ١٩٦٢ في منطقة جازان/ السعودية. درس العلوم السياسية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، يقيم اليوم ويعمل هناك كمشرف على الملحق الأسبوعي الثقافي بجريدة «عكاظ.» من مؤلفاته: **لا أحد**، قصص (القاهرة ١٩٩٢)؛ **ليس هناك ما يبهج**، قصص (القاهرة ١٩٩٣)؛ **الموت يمرّ من هنا**، رواية (بيروت ١٩٩٥)؛ **مدن تأكل العشب**، رواية (لندن ١٩٩٨)؛ **من يغنّي في هذا الليل**، قصص (الدمام ١٩٩٩).

عبده خال: **الأيام لا تخبىء أحداً**، رواية، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا - ألمانيا
رسمة الغلاف: حسين عبد علوان
الطبعة الأولى، كولونيا - المانيا ٢٠٠٢

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

إهـداء

إلى شلة تطلب الله:

صالح - حسن - جمال - عمر - عثمان - محمد - علي - باوزير- وعبده

حلم شاخ في الأوردة، وضحكة تسري بيننا كلما مضى بنا العمر

عبده

يا ريم وادي ثقيف لطيف جسمك لطيف

ما شفت أنا لك وصيف في الناس شكلك ظريف

غناء طارق عبد الحكيم

بعد أن خرجت من السجن كان لزاما عليّ أن استمع إلى هذه الأغنية، فحين كنا ندس أحزاننا بين ممرات الدهاليز الطويلة كان يصلنا صوته حارقا مترنما ملتاعا يردد مقاطعا منها.

قيل أنه ترنم بها في بداية غرامه

وفي عنبر آخر سمعتها عبر صوت أبي حية فحين تطفأ الأنوار ولا يعد في جواره سوى عشقه يصدح بتلك الأغنية بدندنة شجية يرف لها القلب، وتنبت في البال امرأة تحرق كل مراكب الصبر وتتركك تجدف باستغاثة متقطعة.

وبعد أن استمعت لها نبتت في داخلي رغبتان: رغبة أن أجمع سيرتهما، ورغبة أن أسرد لكم سبب سجني، فبأي الرغبتين أبدأ؟!

1

- يااااالله ألطف بها

خرجت دعوته مجلجلة ومفتتحة صمتا وخيما سرى في أذهان الكثيرين، كان كل شخص يخمن، ينازعه سؤال ملح، يردده بينه وبين نفسه:

- ماذا حدث لها؟

كنا ندور حول بيتها كنحل يطوف بزهرة اختبأت وغم علينا مكانها،

دوران محموم، لا أحد يحدث من يصادفه نلتقي كنمل ونتعرج بين تلك الأزقة من غير أن يلتفت أحدنا إلى الأخر، كلنا يعرف سبب هذا الدوران وإن كان كل منا يفتعل مبررا لدورانه.

- يااااالله ألطف بها

خرجت تلك الصرخة بعد يومين من غيابها وبعدها تشجرت الاحتمالات ووقف احتمال غامض مسرجا في البال يردده أهل الحي في السر والعلن:

- شيء ما حدث لها

وانفرط كثير من التوقعات:

- مريضة

- ضربت

- ستتزوج

- تابت

أسباب كثيرة مضغناها في خواطرنا، وارتفعت أكفنا داعية بأن ينجيها الله من كل مكروه.

ضاق المكردس لغيابها فانفجر داعيا وأقسم أن يذبح خروفا لو أطلت، ولم يدع قسمه يجف إذ ركض وعاد يجر كبشا سمينا بينما ظلت شفرته مشهرة على نحر الكبش الذي أخذ يثغي محاولا التخلص من رقدته ومن الشفرة المسلولة في الهواء على عنقه وظل يثغي حتى تيبس صوته واستسلم لرقدته بلا مقاومة.

في اليوم الثالث سال دمه ورفس بقوائمه في الهواء وانتفض جسده بارتعاشات متوالية سريعة وأخيرا خمد فالتف بعض عابري السبيل منتظرين نصيبهم إلا أن المكردس دفعهم عن نذره واعدا إياهم أن يذبح لهم كبشا أخرا، وبعد أن سلخه وقطعه قطعا صغيرة كرر قسمه ثلاثا أن لا يأكل أحد من لحم هذا الخروف مؤكدا أن نذره سيبيت في أمعاء القطط والكلاب كي تعرف أن هذه البقعة مباركة وأن بها رزقا إذا انقطعت سبل الرزق.

وسلك يوسف صاحب البقالة المواجهة لروشانها مسلكه إذ نحر كبشا

أطعم منه عابري السبيل والمساكين وحينما عاب عليه كبار السن مسلكه لاقتفائه أثر شاب أحمق. . صمت بعض الوقت وحين تمادوا في لومه رد عليهم منفعلا:

- والله لو أنكم تعلمون بركتها على الباعة وعليكم لأخرج كل منكم عجلا بدلا من كبش هزيل لا يطعم البطون الجائعة في حينا. . يكفيها هذه البركة التي أحدثتها

فصاح به المجلجل: استح على شيبتك، الرزق من عند الله

فرد مرتبكا يغالبه خجل على انفعاله ودلق كل تلك الكلمات فترجرجت على شفتيه جمل قصيرة:

- والأرزاق أسباب وهي سبب رزقي

فاهتزت بعض الرؤوس موافقة فوجدها فرصة للتخلص من خجله بقسم أخر:

- والله لو لم تطل لأذهبن إلى الحرم داعيا لها أن يكشف الله ضرها.

فاقتحمته بعض الأعين والألسن وعذره كثير ممن كانت عيونهم تتلصص في وجهها.

ظل شباب الحارة ثلاث ليال يحومون حول بيتها لعلهم يلمحون تلك العينين التي أحالت حياتهم إلى حلم لذيذ، وكلما مضى يوم زاد قلقهم، وبدأ كل واحد يفصح عن ضيقه، ولجأ بعضهم إلى السؤال عنها خفية بداخل البيوت، كانت الأمهات يلوين شفاههن أو يقطبن حواجبهن حين يتلقين السؤال عنها، وبعضهن نهرن أبناءهن حازمات:

- هذه البنت فاجرة لم تسأل عنها؟

الوحيد الذي استطاع أن يرد على أمه العمياء بندر العديني فعندما سألها ردت باقتضاب وبسخرية لاذعة:

- كلما أخرج للنزهة لا ألمحها في طريقي

- ها أنت تعرفين الغمز فلماذا تصرين على أنك عمياء

وافتعل ضحكة ليلطف بها مقولته المتوترة ولاطفها وبتودد ردد:

- لماذا لا تذهبين للسؤال عنها؟

نفرت غاضبة:

- أسأل عن مثل هذه يا قليل الأدب

ولكزته بيديه فابتعد صائحا:

- عمياء في كل شيء

فاندفعت صوبه حانقة، وسقطت على الأرض وصوتها يتبعه شاتما:

- أنت مثل قنو الموز تنحني لتقتل أمك

فخرج راكضا لعله يلمح شعاع عينيها من خلال ثقوب الروشان.

منذ أن دخلت الحارة لم يخسف ضوؤها يوما، فهي تطل بعينيها وتجعل الدنيا أكثر اتساعا في قلوب أولئك الشباب الذين تجري في أوردتهم الحياة بعمق وحبور حتى أولئك الذين مضى بهم العمر كانوا يشاركون الشباب اختلاس النظر وفي أحيان يتأوهون طالقين الحسرات بلا تحفظ.

حين يسيل ضوء عينيها الجميلتين بذلك الشارع تفيق القامات وتشرئب الأعناق ويتنبه كل شخص لقيافته، وتشرق عينيها كشمس مراهقة تدفىء صدورنا ويجزم كل منا أنها اصطفته من دون الآخرين، كان مضنيا متابعة عينيها من ثقوب الروشان الضيقة، وفطنت لهذا فقامت بنفسها بكسر جزء من ذلك الروشان، وساعدها فيما بعد بقية الشباب على كسر ما تبقى منه لتظل نافذتها الوحيدة في الحي التي لا تستتر بروشانها، كانت إذا أطلت وحد الكثيرون لطلعتها وظلت عيونهم معلقة هناك حيث تقف كشمس لا تغيب.

في أول يوم غابت فيه ظل الشباب وقوفا أمام منزلها إلى أن انتصف الليل، ولم يعودوا إلا حين خرج الأباء والأمهات لدفعهم إلى العودة.

كنا اثنين كما كنا من أكثر المتواجدين حرقة، وشوقا لرؤية عينيها.

في اليوم الثالث وقبل الغروب لمحوا شعرا منسكبا من تلك النافذة، وعينين تكحلتا بليل طويل دامس وانفلقت شفتاها عن ابتسامة جعلت الجميع

يصلحون هندامهم، ومن شدة الفرح انطلقت زغاريد بعض الشباب وفار دم الخرفان المنذورة.

بينما تقافزت النساء من رواشينهن يستعلمن عن سبب تلك الزغاريد الملتهبة وحين علمن بالسبب تراجعن إلى داخل بيوتهن وهن يلعنها وينعتنها بالفاجرة.

أنا الوحيد الذي كنت أعلم بما حدث لها، وكنت أبحث عن وسيلة للوصول إليها، ومع كل محاولة أعود خائبا، لم يكن أحد يعلم سر تغيبها إلا أنا وهي.

حين أطلت منحت نظراتها للجميع وظللت أبحث عن عينيها، افتعلت كثيرا من الأمور، نكت، خاصمت، تشاجرت، وعيناها مشرقة في وجوه الشباب ووجهي مظلم ينتظر قليلا من ضوء عينيها.

وحين رأيتها معلقة بيد بندر عرفت أنني أحبها حقا.

لقد سرقت عمري، وسرقت عمرها، مضى زمن طويل على هذا الجرح وهي تشعله بالغياب، ماذا فعل بها ذلك الغبي؟ إلى أي أرض حملها؟

لا أريد شيئا من هذه الدنيا أريد أن أراها مرة أخرى لا غير، أعتذر لها، أبكي أسفل قامتها كما كانت تفعل معي.

الآن عرفت أن الحب صدع يشقق حياتك ويحيلك إلى بيت خرب مهما حاولت ترميم تلك الشروخ، لا أريد شيئا حتى ابنتي لا أريدها.

في كل البقاع وقفت سائلا وباحثا، ومع كل سؤال تبتعد بعيدا، أي غباء نمارسه؟ في أحيان كثيرة ننفر من نعيمنا ظانين انه الجحيم وحين نخرج منه نصرف عمرنا بحثا عنه.

هل سأموت قبل أن أراها ثانية؟

هل أنا محتاج أن أردد في كل لحظة:

- لا أريد شيئا من هذه الدنيا أريد أن أراها مرة أخرى لا غير، أعتذر لها، أبكي أسفل قامتها كما كانت تفعل معي.

ربما أردد تلك الجملة في كل حين علها تسمعني، أو بعبارة أدق

يساورني ظن أن هناك من يسمعني وسيرفق بي حتما عندما يسمع ترديد هذه الأمنية التي تشبه الدعاء.

أوراق متتابعة من دفتر المامور أبو العمايم [1]

لم أتمن رؤية امراة قط سوى آمنة، كنت أتمنى أن ألحظ أهدابها لأركض كل العمر برغبة واحدة. .رغبة أن تهتف باسمي.

في تلك الزنزانة الضيقة كنت أسرقها من مخيلة أبي مريم، وأناجيها، فأجدها في مخيلة كل المساجين، لأحترق بغيرة بلهاء.

فيما بعد اكتشفت أن أبا العمائم كان صادقا حين وصفه بالثور الغافل الذي لا يعرف أنه يحمل قرن غزال، أقول هذا بعد أن اكتشفت المأساة التي تركها في داخلي حين عقر كل الأحلام التي كانت تراودني للالتقاء بآمنة تعذبت كثيرا، وهممت مرارا بجز رأسه، وفي أحيان كثيرة كنت أتمنى أن يعجلوا بنهايته، وعندما ابطؤا توسلت إلى إدارة السجن أن تنقلني لعنبر آخر[2].

وكما تنمو مشاعر مراهق، أحببت مها وسرقتها أيضا من مخيلة أبي حية، لكنه لم يستسلم كنت أراه يمسح صورتها من بال أي سجين يفكر في استعارتها ولو في الحلم، كان دائما يقف كنمر ضار في وجوهنا حتى غدونا عازفي هوى ذابل.

2

لم أكن أرى شيئا.

أظن أن عمدة الهندامية حضنني أثناء سيري، يوجد نساء يحدقن من خلال الشيش فتبدو عيونهن كنجوم صغيرة تبحر في ظلمة قلب ميت، الطرقات تأكل خطواتي وأنا كبهيمة تقاد بينما جزارها يحد شفرة دقيقة بلذة ونشاط.

---

(1) اشتريت هذه الأوراق بمبلغ مالي من خادم أبي العمائم الخاص.

(2) تزامنت هذه الرغبة مع استحالة بقائهما سويا فكانت فرصة لأن أجالس الأخر وأعرف ما كان يخفيه كل منهما عن صاحبه، فسعيت جاهدا لأن أكون البديل.

سنين طويلة قضيتها هنا، دخلت إلى الحي غريبا وعندما ارتوت جذوري بهوائه وناسه أزهرت الحياة في أوردتي وخلعت أوراق الخريف بدأت أنمو كنخلة اطمأنت لموقعها فأرسلت جذورها إلى البعيد واختالت بسعفاتها الرقيقة الخضراء وعندما نظرت إلى الأعلى لم تجد عصافير تشقشق فرحا باستطالتها فلم تيأس وانتظرت مجيء المواسم القادمة، وتمر الأيام وتعبرها المواسم، كانت المواسم تقبل وتدبر غير مكترثة بانتظاري فاكتشفت أن الربيع لا يتوقف من أجل نبتة لازالت تتعلم النمو والاخضرار.

في هذه الأزقة والمنحنيات تبولت، ونما شعري مرارا وقصصته، وقلمت أظافري سنينا، وسرت كحيوان ليلي، وخبأت حكايات، وهتكت أسرارا، وخفت، واشتقت، وضحكت، ونمت، وبكيت بحرقة حينما كانت أم كلثوم تنكأ جراحي القديمة فانتشي لصديد الذكريات وأذوي. .أذوي كطائر فقد سربه وأفيق من حمى حنيني متلهفا لأن أحيا من جديد وكلما أوغلت في الأيام أوغل نصل جرحي في شغاف القلب فيسد منافذ الفرح لأتذكر أنني لم أفرح يوما واحدا من بعد رحيلها.

كنت أخطو متثاقلا وزفة من صبيان ورجال الحي يتبعون ممشاي وأعينهم معلقة في هيأتي المنكسرة، والشوارع تضيق. . تضيق وتغدوا أكفانا نلبسها حين يداهمنا الحزن. . آه من الشوارع، هل قلت أكفانا؟ إنها تتحول إلى أشياء أخرى؛ تتحول في لحظة إلى لباس وفي أحيان تغدو جنة وفي أحيان أخرى دفتر ذكريات، إن الشوارع سجل لتاريخنا السري لا نقرؤه إلا حين نشعر أننا على وشك أن نغادرها.

هذه الجدران، والبيوت الحائلة، والرواشين ومرازيب المياه، والأسطح المنخفضة والعالية والناس، والقمائم المكدسة، والروائح الخمرية النتنة، والباعة المتجولون، وتجمعات رجال الحارة أمام دكان صغير، وأشجار النيم والسدر وأشجار اللوز الهندي والقطط والكلاب السائبة لم تكن تثير في داخلي كل هذا الشجن، وكل هذا الحب، ألمحها الآن تغوص في داخلي وتتحول إلى آهات وحرقة جديدة لم اكن أحس بها من قبل، ما بالنا نتحول إلى كومة حنين كلما جرفنا الزمن إلى ضفة جديدة من ضفافه؟

كنت أسمع كلمات تتطاير من أفواه الرجال والصبيان الذين يسيرون خلف ممشاي، كلمات حانية تلتصق بالقلب وتزيد لوعتي، كلمات تركض خلفي متوددة، ودعوات متضرعة، وأيدي تضغط على أكتافي، وابتسامات متسعة وفي أحيان مقتضبة يسارع أصحابها للاختفاء قبل أن تتحشرج عبراتهم، وأطفال - لطالما أخفتهم - يقفون يلوحون بأياديهم الصغيرة، ويتعجبون من تلك السلسلة التي التفت حول معصمي، في طريقي وقف فتى:

- لم أصدق أنك تهزم، هل انهزمت حقا؟

وافقته باهتزازة من رأسي، فجذبه الشرطي من أمامي وانطلق بي بين تلك المنحنيات، بينما ظلت كلمات حانية تتبع خطاي لم تعد هناك تلك الكلمات التي طالما أزعجتني من أهل الحي، كانت تقف على ألسنتهم كلمات وداع رقيقة، امرأة عجوز قابلتني في إحدى المنحنيات وارتمت على صدري فانغرست زوائد قيودي بلحمها فجذبها الشرطي بقوة وهي تئن وتلعن بصوت مرتفع.

- لماذا يظهر نقاء نفوسنا عند الوداع؟

تلك اللحظة التي تشبه الموت بل هي موت صغير، إذ الحياة سلسلة من الموات، وفي كل لحظة منها تنجلي أرواحنا وتعود بكرا فحين تشعر أنك لن تلتقي بالراحل تطفو نفوسنا الحقيقية ونذرف الدمع ونتسامح عن ذنوبنا الكبيرة والصغيرة، آآآآآه كم أنا خجل من تصرفات مارستها مع الكثيرين من هؤلاء الطيبين، في لحظات الموات نكتشف أننا حمقى نستجيب لفورة غضب طارئة ونقلب الدنيا، ونوسع صدورنا لحقد شرس يتمدد ويسترخي بأطرافه في شغاف القلب.

ابتعدنا عن حينا وأخذت تلتهمنا الأزقة وأنا أسير محفوفا بعسكريين وسلسلة تمسك معصمي، فكرت في الهرب كنت ألمح الأزقة تضيق وتضيق وتلتف حول جسدي ككفن ميت منذ مئات السنين، فكرت أن أجذب السلسة وأركض. . . أركض، كنت ألمح الأزقة تتخلى عن سكونها وتتحرك نابتة أذرعتها كاخطبوط ملتفة حولي تعصرني تخنقني وتسلمني إلى بعضها، تخليت عن فكرة الهرب وسرت موازيا العسكريين اللذين حرصا على التنبه لكل حركاتي وسكناتي، كنت ألمح عينيهما تشع خوفا كلما أبطأت أو نشطت حركاتي.

وقفت أمامه صامتا، فيما كانت ملامحه تفور بلذة النصر، نخسني بقضيب معدني كان يتلاعب به بين يديه:

- ألا ترى أن الدنيا صغيرة؟

وضرب جبهته مندهشا: كل هذا الوقت ولم أرك.

وضحك متوترا: تلك الليلة حين رأيتك أصبت بهلع، كنت أتسأل أيمكن أن يوجد شخص بهذه القامة

استطعت أن تبعدني عنك يا وغد

وكركر مرة أخرى:

- لم أظن انك حرباء تجيد التخفي

حك ذقنه وأطلق ضحكة متوترة:

- في شبابك لم تكن هكذا أخبرني كيف اكتسبت هذه الخصلة

كنت أقف صامتا ولذة التشفي تطفح من ملامحه، هل أخبره بكل شيء وأظفر بلحظة ندم تطفر من وجنتيه الحمراوتيين أم أتركه يجوس بظنونه في مخيلتي؟

أثناء هربي (تخفيت) وأسدلت على سيرتي حجبا كثيفة إلا أن القدر يربطنا بخيط سري ويتركنا نمعن في ابتكار وسائل التخفي وإذا أرادنا جذبنا بذلك الخيط فإذا بنا نقف أمامه كما يشاء أن يرانا، عراة مستضعفين، أقوياء، مجرمين، لصوص، طيبين، ملعونين يستجلبنا كبهيمة ربطت لترعى ماهو مقدر لها ويمكن في لحظة تجذب فتترك مرعاها بعين حسيرة، والخيط الذي تركته مدلى من حياتي كان (اسم مريم).

لم أفطن لهذا إلا بعد أن شاع، كنت لا أزال مرتبكا، قذفت جسدي على أخر كرسي تبقى في تلك الحافلة، وفي لحظات تعارف سريعة مقتضبة ومباغتة قال السائق:

- من الأخ؟

وبلا تركيز قلت: يمكنك أن تناديني بأبي مريم

وأمسك بهذا الاسم صاحب المقهى (أبو شنب) ووجدت نفسي معلقا بهذا الاسم.

وها هو يشدني كتلك البهيمة التي تركت مرعاها حسيفة

شرطي يقف خلف القضبان غير مبال بتلك الأجساد المقذوفة داخل الزنزانة الضيقة، جدران حائلة كتبت عليها كلمات عديدة تبدأ بالشكوى وتنتهي بكلمات هوى بائسة، كنت أقرؤها متمعنا في محاولة لهرب إضافي.

هتفت لداخلي:

- لم يعد مجديا هذا الهرب

نجلس متقاربين وشرخ باتساع الأرض يفصلنا، لم نعد جناحين نخفق بالشوق سويا، ونتأوه كلما أحرقنا العشق كنت متلهفا لمعرفة سبب مجيئه، لقد أدى مهمة كبيرة تبعده عن نتانة هذه الغرفة وتمكن رئتيه من استنشاق هواء نقي بدل المجاهدة في عب هذا الهواء الرث الرطب.

كانت عيناه مخضلة بالدموع كلما جففها بكمه ذرفت وسالت في انحدار متتال، جسده الفارع المقرفص يهتز في نشيج مكتوم أعرفه جيدا، لا يكره شيئا ككرهه البكاء، هاهو الآن ينسكب دموعا وكأنه مرزاب جمع ماء المواسم الماطرة وتفجر ليغرق الشوارع المجدبة، أعرف أن صدعا عظيما زلزل كيانه، أهذا هو الندم؟

يجلس بيننا رجل سبط الوجه أجعد الشعر مل الكلام منه فلسانه يحيك أحاديثا طويلة يشرعها على مسامعنا[3]، ونحن نتقرفص ونثرثر لدواخلنا، لم أكن غاضبا منه إنما شيء غريب ينخر أعماقي فأشعر أنني أتحلل، وأرى الدود ينهش جلدي باشتهاء، وبين الحين والأخر أتلمس رقبتي بحب، أحس بها تضمر بين راحتي وتصغر، تصغر، وتتلاشى، أحاول أن أحضنها وأقبلها فأعجز، اشتقت لمرآة، اشتقت أن أتطلع لعيني المخبئتين، ألم تعد تحمل بريقهما، اشتقت لرؤية فمي، أنفي الذي فاخرت به أمي كثيرا أمام جاراتها فحين ترضى عن أبي، تقربني جوارها وتظل تتلمس وجهي حتى تمسك به وتقول ظافرة:

---

(3) هذا الأجعد الشعر سبط الوجه أنا جامع هذه الحكاية والمعذب بها.

- هذا الذي أوقعني في أبيك

وعندما تخرج من نوبتها الطارئة تعود إلى طبيعتها صائحة:

- أنت مثله، وقد دعوت أن يكسر الله أنفه كما كسر حياتي ولا أظنك بعيدا عن نهاية أبيك

عروق صدغيه نافرة، وعيناه تتحاشيان الوقوع على وجهي مباشرة، أحس بهما تقفان على وجهي تماما وتهربان إذا أدرت لهما صفحة وجهي

منذ ثلاثين عاما أو تزيد أصبحت أرى الشوارع أكثر اتساعا مما هي عليه، فتكتشف خطواتي أماكن جديدة للاختباء وتدفعني للانزواء والتفنن في وسائل التخفي.

في ليلة سافرة اقترفت حماقة العمر وسفحت ما تبقى منه على قارعات الطرق البعيدة، ووجدت نفسي أتهدم كجدار عتيق وانهار فجأة وكلما مضى يوم غرقت في العتمه وتيبست أزاهير الحياة في هذا القلب الذي أحرق الدنيا غناء. .أكان لابد من كل هذا العنت. ؟!

كانت قدماها الصغيرتان تتراخيان ببطيء وأنا أضغط على وجهها بكل قوة، يااااالله كم نحن قساة! أيمكن المرء أن يتحول إلى حجر؟ . . .لو أبقيتها وعشت من خلالها، أظن أن حياتي كانت ستكون أقل ضراوة مما عشت عليه.

ظللت أسير في أطراف المدينة بلا هدى، كثير الالتفات، سريع الحركة، حذر، وخوف يقرع طبوله في صدري وذاكرة تمطرني بصور عديدة لتقف قدماها الصغيرتان في مخيلتي رافسة بهما الهواء قبل أن تسترخيا تماما، ساعتها لم أعد أحس شيئا سوى الرغبة في الهروب ألم يتنبه العمدة لحالي كان عذري واهيا وارتباكي واضحا، أذكر أنني أخبرته بقراري فلم يجادلني كثيرا فسلمته عدة العمل، صفارة العس والشومة وكشاف صغير، كان أقل فطنة وكنت أكثر مراوغة حين اعتذرت بأن آمنة رحلت مع ابنتي إلى وادي النمل وأنني وجدت عملا في إحدى الوزارات، كانت دموعه الشحيحة كفيلة بجعل انهاري المترسبة تتدفق من داخلي وأنا أحضنه، شيء فينا يتكسر حينما نقترف الكذب ونوهم الآخرين بالنقاء، شعرت بالانهيار وأوشكت أن ألقي نفسي بين يديه وأن أقول

له كل شيء، لو فعلت لتجنبت هذا العناء كله، ماذا يعني أن تركض وتركض وتتوقف فجأة، ألم يكن من الأجدى التوقف قبل كل هذا الركض.

وأمام إصراري وافق على رحيلي ونقدني بعض المال وخرجت أهيم في المدن والقرى.

كنت أركض بغير هدى ظللت الليل بطوله أركض من مكان إلى أخر، حتى استوطنت هذه المدينة ودفنت نفسي في الليل أنصت لعواء الكلاب ومطاردة الأشباح الليلية وفي أحيان قليلة أخرج من جحري فيظن الآخرون أن ماردا خرج ومن الخوف الساكن في القلوب كانت الاشاعات تمنحني ثيابا من نعوت وأوصاف فضفاضة لم تلمح اتساعها تلك العيون الخائفة.

عبدالله كان الشرك الذي نصبه الليل في طريقي فوقعت فيه وأسلمته توجعي وسر الشبح الذي تدثر بالليل والهرب.

عندما جلس بجواري - في غرفة التوقيف - كانت هنهنته خفيضة يتكسر من خلالها كعود يابس أكلته الشمس والريح وتقصف بين أصابع قاسية، أربكني حضوره، ظننته في البدء جاء زائرا وعندما عبرنا الزمن رغبت معرفة سر مقدمه وشاغلني هاجس حائر:

- لقد قدم لأبي العمائم خدمة تبعده عن هذه الزنزانة النتنة، فما الذي حدث حتى يقاد إلى هنا؟

لم أكن أعرف تحديدا نهاية الرحلة التي قطعتها غريبا ومنزويا كفأر ملته الجحور وقذفت به مرارا إلى خارجها فأخذ يبحث عن جحر جديد، منذ أن نلد ونحن مسكونون بالفجيعة، والصراخ والألم، مسكونون ببذرة الموت ومع ذلك نجزع حين يداهمنا غيث تلك البذرة.

هاهو - عبدالله - الآن يحاول مد جسور بيننا بكلمات واهية، أظنه قال شيئا ما.

من تلك الليلة التي ركضت فيها، لم أعد أنظر إلى الخلف إنما أركض إلى الإمام، الآن اكتشفت عمق حماقتي، لم أكن في حاجة إلى كل هذا الهرب والتخفي، لقد عشت ميتا وكان من الأفضل أن انهي كل عذاباتي منذ تلك الليلة.

صور كثيرة تتقافز من مخيلتي وتقف برهة ثم تتلاشى على تناشجه.

جلسنا صامتين لوقت طويل، كان يجهش بالبكاء وكنت أنظر إليه خلسة بعينين باردتين وعندما حاول الحديث تعثرت الكلمات أظن أنه تمتم بتلك الجمل التي علمته إياها:

- أنه الليل على غفلة مني هرب سرك أما هذا الكلب فسأنال منه ذات يوم

تنحنحت بصعوبة وانكسار:

- ألم أقل لك أن المرأة هي الجدار الوحيد الذي لا يمكن أن يسندنا.

أكان لابد أن أحكي له كل الحكاية؟!

ليل طويل بدأ من ثلاثين عاما وأظن أن نهايته قد اقتربت، أذكر أن شوارع الطائف ملت ركضي وأنا أتلفت من غير هدى، وجدت نفسي أقف في الموقفة، وثمة صبي يقف جوار سيارة الأنيسة يصيح منفعلا ومتوترا:

- جده راكب واحد

وقذفت بجسدي داخل تلك السيارة وغبت في دوار عنيف، كانت السيارة تلتف حول نفسها وداخلي يمور ويسفح الماضي كله.

كنت أظن أنني سفحت الماضي كله ساعتئذ كنت أظن ذلك، الآن اكتشفت أن الماضي هو السجن الوحيد الذي لا نستطيع الهرب منه.

ما أسره أبو مريم للراوي حين توطدت علاقتهما

في إحدى غرف التوقيف التقيت بهما -مجتمعين - وبعدها زاملت كل منهما فترة من الزمن ولم يكن يدر بخلدي للحظة أنهما سيصبحان شغلي الشاغل، كنت أسمع نتفا من أخبارهما من العنابر الأخرى، وكنت أتوق لأن يجلسا سويا ويجرح كل منهما الأخر وسعيت مرارا لتحقيق هذه الرغبة لكن كل محاولاتي ذهبت أدراج الرياح.

ذات يوم استيقظت على أصوات المساجين المرحبة، فرأيته يقف في وسط العنبر كنمر جريح يتلفت بحرقة، ويكز على أسنانه بغيظ وقد نفرت من ذرعه حية عظيمة تثنت واختفت تحت إبطه، راعني منظره

المتوحش، ونبرته الحادة، فاجتنبته ولم اقترب منه

وفي المساء سمعته يجهش باكيا حين كان أحد النزلاء يدندن بصوت محروق:

ليه يا سلمى والسحابة
تعدت من هنا
حاملة الما
واستحلت بماها عندنا

3

في موقف مكة توقفت سيارة الأنيسة متهالكة بينما كان محركها يئز برتابة وتلكؤ، تهللت وجوه المسافرين بشرا وتبادلوا تهاني الوصول فرحين رادمين بالبال مشقة السفر، والتفاف السيارة حول نفسها بين تلك المنحدرات الشاهقة اللولبية، وما أن جرت عجلاتها على الطريق السهلة حتى استنشق المسافرون الصعداء وأخذ أحدهم يتلفت للخلف متعجبا أنه كان على قمة تلك الجبال الشاهقة ورفع صوته متعمدا:

- كان من الممكن أن ندفن في ذلك الوادي السحيق

ضحك السائق ببرود، ومسح وجهه بمنشفة كانت تجاوره:

- كل يوم نتعرض لمثل هذا الخطر، لكن الله سلم

جاء صوت رجل مسن من آخر السيارة:

- عليك أن تحذر وتقلع عن إظهار فنياتك بذاك الخط الحلزوني، كدت تهلكنا

- يا عم خليها على الله

- كلنا على الله ولكن الحذر واجب

وتدخل أحد الركاب بصوت حانق: كدنا نموت هلعا

فانبرى أحد الركاب مقسما:

والله لقد مت، مت للحظات وأحسست بروحي تنزع من أوردتها حين رأيت السيارة لا يفصلها عن الهاوية أي شيء

ولم يتوقف عند هذا الحد بل كرر قسمه وتابع حديثه مثابرا:

- والله لقد رأيت ملك الموت في أحد المنحدرات فاردا جناحيه كمن يهم بخطف السيارة بأكملها والتحليق بها في السماء ولم يتراجع إلا عندما تذرعت رهبة لله وبيقين كامل صحت: أغثنا يا مغيث عندها لمحته يخفق بجناحيه مبتعدا كطائر ضخم.

كانت عيناه تحدقان بالمصغيين إليه، وكمن استشعر عدم التصديق أردف: ألم تسمعوا صيحتي تلك؟

هلل الركاب، حامدين الله على النجاة، وجامله بعض الركاب بجملة خرجت من أفواههم بآلية:

- جزاك الله خيرا

كان الكمساري ينظر إليه مستهزءا، ورغبة تنازعه للسخرية منه بتذكيره أنه كان يغط في النوم كلما دارت عجلات السيارة ونوى بتذكيره أنه لم يفتح عينيه إلا على مشارف جدة وكبح رغبته حين لمح أن الكثيرين استقبلوا كلامه ككرامة حظوا بها بسببه.

ولم يتوقف ذلك الرجل عن مواصلة حديثه بإعادة سرد تلك الواقعة بالتفصيل، إلا أن زوجته أشعرته بالضيق بلكزها الدائم وإلحاحها على النزول بسرعة:

- أريد أن تمس قدمي الأرض فقد تعلقت بين السماء والأرض، ونذرت إن نحن نجونا أن أنام على أول أرض نقف بها

فصاح بها مستنكرا:

- يا امرأة خافي الله هذه ليست أول أرض لقد وقفنا ببحرة وأم السلم

زجرته بحدة:

- كل تلك الوقفات كنت خلالها ميتة، ألم تلاحظ

وحين لمحته جامدا واصلت سكب تذمرها:

- . . . . .كيف تلاحظ وأنت دائم الانشغال بنفسك

ودفعته لأن ينهض مستعجلا، تأفف منها، وصبرها:

- دعي من هم قبلنا ينزلون أولا

صمتت على مضض، وظلت تحوك الكلمات بغضب في داخلها فتخرج حمحماتها على مسامع من يجاورها تنبئ عن زوج لا يسعدها أبدا، بينما حاول هو أن يعيد الانتباه إلى حكايته لكن معظم الركاب تحركوا نازلين.

كان ثمة طفل لا يزال مقذوفا بين المقاعد وأرجل المسافرين تنز منه (صننة) القيء حيث ظل يمور لساعات ويقذف ما في بطنه على المسافرين المتأففين والممسكين بأرواحهم إمساكا، انكفأ أبوه لحمله مخففا عليه:

- يا ولدي انهض لقد وصلنا

تحامل على نفسه، وأطل إلى الخارج خاملا، وامسك أباه غير مصدق، أسرع السائق بمد قربة ماء كان يحملها أسفل قدمه:

- اشرب الماء وتنفس بعمق. .

تقاعس الطفل فحفزه وهو يمسك برأسه:

- الحمد لله على السلامة وصلنا

عقب من كان قريبا منهما:

- الحمد لله

انشغل الركاب بحمل أغراضهم المقذوفة أسفل أرجلهم والمحشورة بين المقاعد من بسكويتات و(شريك) وجبن و(حلاوة) وشابورة و بعض الفواكه التي اشتروها من الهدا، كانت حركاتهم متسرعة، يتدافعون لشم الهواء الرطب الرابض بموقف مكة.

حمل السائق شماغه المقذوف على (الطبلون) وألقاه على كتفه، ممازحا أبو مريم الذي سفح أحشاءه أثناء الطريق:

- ألاتزال تود قطع الطريق سيرا؟

ضحك أبو مريم خجلا، ونزل مترنحا حاملا بقشته بين يديه، ومستنشقا الهواء بعمق وجلس بالقرب من السيارة يغسل وجهه ويزيل اللبد المتيبس على ثيابه من آثار القيء بينما تناسل الركاب من أمامه مطالبين بعفشهم.

استعد (الكمساري) لمساعدة الركاب في إنزال العفش القابع على سقف

السيارة، لكنه تراجع حين رأى تلك الحقائب الحديدية المتراكمة على بعضها، وطالب المسافرين بالصعود لمعاونته، أو منحه أربعة قروش مقابل كل حقيبة، فثار راكب على هذا السلوك فجذبه (الصنبة) من ياقته:

- إياك أن أرى لسانك

فأحس بالإهانة أمام أسرته التي وقفت بالقرب منه، فاشتط غضبا وأصر على تأديبه، وتوجه للسائق شاكيا معاونه ومدعيا أنه تسافه على الركاب، ولكي يستثيره ويكسب تعاطفه نقل إليه شتيمة بذيئة واسندها بقسم غليظ وتمادى في تحريضه بقسم أخر:

- والله لقد شتمك أنت أيضا وقال: أنك أنت الذي تحرضه على جمع النقود

انتفخ السائق غيظا وتحرك وهو يصب الشتائم صبا لمعاونه، وصفع (الصنبة) وتوعده بعقاب أخر وأبدى شهامة مفتعلة بصعوده لإنزال العفش بنفسه، فزحزح حقيبتين بجهد مضن فذوت شهامته ونما تذمره من تلك الحقائب الحديدية الثقيلة التي قصمت ظهره على حد تعبيره حين استعجله أحد المسافرين بصوت آمر:

- عندما صعدنا إلى حافلتك أظهرت نشاطا زائدا أثناء تحميل العفش، أما وقد استلمت نقودك فلم نجد إلا تقاعسك

أمن آخر:

- لو أننا ركبنا سيارة أخرى ما لقينا هذه المعاملة المتعجرفة منك ومن معاونك

فاشتط السائق غضبا، وقذف شتائمه في الهواء ونزل من سقف السيارة صائحا:

- انزلوا عفشكم أو اتركوه كما يحلو لكم فوالله لن تمسه يدي

فحاول راكب آخر إيقافه فصاح به:

- الاتفاق بيننا إيصالكم إلى جدة ولكنكم تريدون سائقا وحمالا

فتلقفته الألسن بالتحقير والاستياء، فصب عليهم شتائم عجز الكثيرون

عن مبادلته بمثلها، وأبدى كثير من الركاب عجبهم من هذه البذاءة المستحدثة، فتجمع أصحاب السيارات المنتظرة في الموقف واستغل أحد خصومه (من السائقين) الواقعة فأوغر صدور الركاب عليه:

- لن تجدوا منه حقا أو باطلا

ورفع شماغه بيده وقبل أن يغادر تجمعهم همس لأحد الركاب:

- إنه قادر على تحويل التحية إلي شتيمة، والرأي عندي أن تشكوه لشيخ السواقين

فانطلقت مجموعة شاكية، فلم يجدوا شيخ السواقين فعادوا، ليجدوا الصنبة متبجحا مادا يده:

- مردكم لي

وضحك ضحكة مبتسرة، قطعها فجأة:

- هات أربعة قروش مقابل كل شنطة تنزل

ثار أحد الركاب في وجه الصنبة فوجده صلبا سفيها فالتفت إلى زملائه:

- هذا القبيح مثل عمه

وحض زملاءه على إنزال عفشهم بأنفسهم بدل تبادل الألفاظ التي لا تليق بأناس بلغوا من السن ما يمنع ألسنتهم من الإنزلاق إلى رذائل السواقين والدشر، فشتمه الصنبة وحاول افتعال العراك معه لكنه أجهض افتعاله حين لمح الجميع على أهبة الاستعداد لتقطيع جسده الناحل، فتراجع وخفت حدته:

- من لا يريد الدفع يصعد بنفسه لإنزال عفشه

فتقافز الركاب لسطح السيارة غير آبهين بصراخه:

- على مهلكم ستخرقون سقف السيارة

أنزل العفش بمعاونة بعض المتبرعين من الحضور، وانثنى المسافرون حاملين حقائبهم ومغادرين الموقف إلى سيارات الأجرة لتقلهم إلى منازلهم، وبعضهم إلتهمته الأزقة الواقفة على جنبات الموقف، وقلة ممن بقوا هائمين بين المقاهي المتناثرة.

كانت صيحات الباعة و(الكمسارية) والقهوجية وأبواق السيارات تتداخل

مفرزة ضجيجا، وجلبة تعددت نغماتها لتستقر بالإذن نغمة واحدة.

في هذا الهرج كان رجل يحوم بالموقف بوجه جامد تعتليه آثار غربة ولا يتبين منه سوى شاربه الكث وعينيه المختبئتين خلف انطفائهما، كان يحمل بقشة على ظهره ويسير بطيئا متلكئا، دلف إلى المقهى وقذف (بقشته) إلى جواره وانتظر مجيء النادل، كانت عيناه الزائغتان تبحثان في المكان عن ألفة، لمحه السائق فصاح به:

- أبو مريم ألاتزال هنا، تعال وشاركني طاولتي

وجد نفسه منقادا، وجاوره ببرود، فناوله كأس الشاي

- أرأيت قلة أدب زملائك

- . . . .

- كنت أتمنى لو أنهم أظهروا هذه النقيصة على مرتفعات الهدا

- . . . .

- ساعتها كنت علمتهم الأدب

- . . . .

- والله لو فعلوها في الطريق لقذفت نصفهم في تلك الأودية السحيقة

ورشف كوب ماء وهو لا يزال يغلي:

- عكروا دمى الله يعكر دماءهم، لكن السبب من الصنبة قليل الحيا، لولاه ما احتجت لكل هذا السباب

- هون على نفسك انتهى الأمر ومضى المسافرون

- لي معه حساب آخر

- . . . .

أزاح شماغه من كتفه، ومسح وجهه المتقطر عرقا وزفر بحدة ثم اعتدل في جلسته وحاول الابتسام:

- لم أكن في يوم ما بهذه الطباع لكن الخط الملعون يبدل الحجارة القاسية

وتأوه مفتعلا:

- آآه ه عشر سنوات أمضيتها في هذا الخط، ليليا مسافرا وكأني الريح،

متى يتوب الله علينا من هذا الشقاء؟
صمت للحظات وابتسم مصمصا شفتيه ومبللا شاربه بلسانه:
- أتنتظر أحدا
هز أبو مريم رأسه نافيا
- أليس لك أحد هنا؟
هز أبو مريم رأسه موافقا
- ولماذا تركت الطائف. . . .جده لاتشبه الطائف في جوها
- كل الأمكنة متشابهة إذا أحسست بالغربة
- إذا ما الذي دفعك للسفر؟
- بحثا عن الرزق
- وهناك رزق
- . . . .
علا من خلفهما صوت ضاحك:
- يا(حلس)
فرد عليه السائق بضحكة متوترة:
- على ظهرك
- متى وصلت
- الآن
فسحب كرسيا وشاركهما شرب الشاي:
- أهذا مساعدك الجديد؟
هز رأسه نافيا وظل محافظا على (لي) الشيشة مغروسا في فمه، فتسأل الشنب:
- أين الصنبة إذا
أطلق السائق دخانا كثيفا وبصوت متشنج رد:
- الصنبة! !. . قبحه الله (تفرعن) هذه الأيام
- اش فيه؟

- تصور. . لا يريد إنزال العفش، وأدخلني في شجار مع مسافرين أغبياء

- قلت لك جوعه

- الخبيث أشبع مني، فهو يتقاضى مقابل إنزال العفش أو تطليعه

تطلع الرجل لأبي مريم:

- و من الأخ؟

- راكب نزل معي من الطائف

- وجده ناقصة (حلوس) كمان

أطلق ضحكة جافة بادلها أبو مريم بابتسامة مقتضبة، ونظر صوب الرجل محايدا، فربت على كتفه:

- لا تزعل، فأنا أمزح

- . . . .

قال السائق:

- هذا أبوشنب صاحب المقهى، يحب المزاح دائما فلا تغضب منه، وهو رجل شهم إذا احتجت لأي شيء اقصده

فضرب أبو شنب على صدره:

- أنا سداد، آمر

قاطعهم (الصنبة) ووقف على رؤوسهم متخاذلا وماسحا عرقه المتصبب:

- أريد أن أنام! !

فصاح به السائق:

- وهل نسيت إرضاعك، اذهب لأي كرسي وأرحني من رؤية وجهك، وفي الصباح سيكون لي معك شأن.

تحرك إلى داخل المقهى، وقذف جسده كيفما اتفق، وغرق السائق وصاحب المقهى في حديث طويل عن ليالي الطائف ومتنزهات نجمة، ولم يتنبهوا لارتجاج رأس أبي مريم وهو يغالب نعاسا ثقيلا إلا بعد أن مضى وقت طويل، ليهمس السائق لأبي شنب:

- انه غريب

- نحن أهله

وصاح بأحد صبيانه وأمره بتهيئة مكان للنوم، فنهض أبو مريم متلعثما بالشكر، وألقى جسده على أول كرسي صادفه.

ترميم لحكايات وردت على ألسنة أهل الحي عن مقدم أبي مريم

يزاملنا سجين له هيبة وجلال، لا يشبهنا في شيء، حتى تفكيرنا يرفضه أنه يفكر بطريقة تجعلنا نصاب بالدوار كلما اقتربنا منه.

أنه يفكر كالمجانين أو الفلاسفة ذات مرة قال:

- لو أننا بلا أسماء لأخطأت كثير من المصائب عناويننا، ولنعمنا بقليل من الراحة لإهمال القدر لنا! !

هكذا سمعت بعض المساجين يتهامسون حينما حل أبو حية ضيفا علينا.

فرد عليهم منفعلا:

- مثل هؤلاء يدنسون سمعة السجن، الم يكن من الأجدر بهم أن ينزلوه مستشفى المجانين بدل أن يكتسب صفة تصعد به إلى مرتبة الشرف.

والتفت يبحث عمن يتهامسون عليه.

بينما كنت أحاول التخفي. .إنهم يقصدونني بلا شك.! !

4

- الحقونا

صعد دخان أسود إلى عنان السماء، وفاحت رائحة خشب محترق فتصايح الرجال وهبوا لنجدة استغاثة محمومة تفجرت من حناجر النساء الملاصقات لبيت الفسيني.

كان الركض عشوائيا، فالأزقة تتوالد رجالا ونساء، والكل يتدافع صوب الحريق هلعا وقد تخلى النساء عن عبيهن، وهن يحثثن الرجال بالصوت والأيدي

لإيقاف ألسنة النار الزاحفة لابتلاع ما تصادفه، وبعضهن ساهمن في جلب الماء أو تجهيزه للرجال المتدافعين لإيقاف ذلك اللهب الممتد في اتجاهات مختلفة، كان الصبية معرقلين لذلك الاندفاع فتزاحموا في الطرقات على هيئة كتل متفرقة، وتجرأ بعضهم ووقفوا على مقربة من الحريق مادين أعناقهم الصغيرة ومبدين عدم الاكتراث بما يحدث.

مها المورقي الوحيدة التي كانت تصيح منفعلة ماسكة فمها بيديها الصغيرتين، انتفخ بطنها من البكاء فتدافعها الرجال من أمامهم بلا أدنى اكتراث بنحيبها.

ولأول مرة تقف الحارة عاجزة عن تقديم العون لأحد بيوتها، فلم يكن متوقعا ما حدث، فمع القيلولة حين كان الناس يستلقون في مراقدهم بعد يوم من العمل المضني، متخففين من معظم ملابسهم ومحاولين الهروب من رطوبة متلكئة جاست الأمكنة وبينما كانت الشمس في الخارج تلهو ناثرة حرارتها بين تلك المباني المستندة على بعضها استناد العاجز، تلك البيوت التي نهضت بعشوائية وتداخلت أزقتها وتفرعت مفضية لبرحات واسعة يقضي بها أهل الحي العصاري وليالي سمرهم، كانت معظم الجدران منخفضة ومسورة بشظايا زجاج مهشم رص بخطين متوازيين، ولم يكن هذا الزجاج موجودا فيما مضى لكن السرقات المتوالية دفعت الميسورين بالتبرع لتسوير الجدران بزجاج مهشم لمنع لصوص الليل من قفز الجدران المنخفضة وسرقة أصحابها.

بنيت البيوت الأساسية في هذه الناحية بناء جيدا بنيت بحجر المنقبي وسقفت بأخشاب الزان وغطيت بطبقة من الزفت تمنع تسرب الأمطار وان لاحت على هياكلها سمة البساطة إلا أن حرفية المعمار أكسبتها منظرا متفردا فتناثرت نمنمات جبسية على المداخل في أشكال جمالية وراعى صانعوها الدقة والاهتمام بالأبعاد بين تلك الأشكال وتفردها فأضفت الشرفات مسحات بديعة على بعض البيوت بانحنائها وبروزها، وأتقن النجارون تصميماتهم فأضفت رونقا أخاذا بتلك الزخارف الدقيقة المشغولة على الرواشين والأبواب ذات المزالج الفضية أو الحديدية.

ولم يكن هذا حال كل البيوت فقد نهضت بيوت مستحدثة بنيت بطريقة عشوائية في مناطق نالها العمران وكان غالبية قاطنيها من رقيقي الحال فابتنوا بيوتا خشبية سورت بالصفيح أو بألواح خشبية هشة، وغلبت على هذه البيوت العجلة في بنائها فكانت سيئة التهوية لتداخلها ونهوض كثير منها في مواجهة منافذ التهوية وبعضها اجتهد مالكوها في بنائها بناء محكما أتلفت أمام ما استحدث من هد وبناء وإضافة مرافق جديدة، هذه التشوهات تضامنت مع الجو الرطب وحولت البيوت إلى أفران لا تطاق فكانت الرطوبة تفور من داخلها فوران قدر وضع على نار حامية وانزل في ماء بارد فرشحت كل جوانبه بطل انساب كما يحلو له، ولم يكن بأيدي الأهالي لردع هذه الرطوبة سوى مراوح تئز ببطء ورتابة والبعض استعان بمراوح صنعت من سعف الدوم يحركونها باهتزازات منتظمة فتقلل من جريان ذلك العرق الغزير.

كانت تلك البيوت قادرة على الاحتفاظ برطوبتها إلى أقصى وقت ممكن فزادت من ضيق الأنفس مما جعل الرطوبة تتغلغل في ثنايا الجسد وتحيله إلى بحيرة دبقة بالعرق الممزوج بروائح العطور المحلية النفاذة، وبعض من لا يحبذون وضع تلك العطور على أجسادهم تغدو مجالستهم كرما يستوجب إغلاق منافذ أنفاسك حد الاختناق.

في تلك القيلولة، ركض النهار وحيدا محاولا التخلص من رطوبته اللزجة التي يغدو معها التنفس بطيئا مجهدا، فالهواء يسير متثاقلا وكأنه حجر حط على أرض رخوة فأحدث أثرا عميقا بها، ولم يكن هذا الهواء قادرا على إبعاد تلك الروائح التي ترامت في منحنيات الحارة بفعل القمائم المتناثرة التي لم تكنس وتحمل بعيدا عن تلك البيوت المتلاصقة، أو بفعل ما يقذفه الباعة في الطرقات من بضاعة كاسدة عفنة وربما بفعل فضلات البهائم السائبة، أو بفعل البيارات الطافحة بين مفترقات الأزقة، أو بفعل روائح بعض الجاليات التي اقتطعت أمكنة مخصصة لها وسميت بأسمائها ومن هناك تصرف روائحها لبقية الحي، من هذا كله نتجت رائحة عفنة خمرية فريدة سرت في الأزقة بهدوء وطمأنينة، هذه الرائحة تآلف معها الناس أصبحت شيئا من وجودهم، يشتاق إليها الغائب ويحن لها المسافر، هذا إذا كان هناك مسافر، فالسفر نادر الحدوث فكل مصالح

أهل الحي لا تتعدى برحة السكري وان تعدت فهي لا تتجاوز السكة السوداء بأي حال من الأحوال.

في هذا الجو الخانق والذي يذكرك بأنك في حاجة لأن تخلع نفسك من نفسك لترتاح قليلا من مجاهدتك استنشاق الهواء بيسر وسهولة أو بحثك الدائم للخلاص من هذا الدبق الذي ينضح به الجلد فيتغشى الملابس ويتقطر من الصدور والجباه وينساب إلى أخمص القدم ولم تكن هذه الميزة يتمتع بها أحد دون سواه حيث كانت أشح الجلود تنز بعرق يكفي لأن تحس معه بحالة من الضيق المنفر.

في مثل هذه الأوقات يخلد أهل الحي إلى منازلهم مبتكرين سبلا عدة تقلل من غزارة الرطوبة المنداحة والملتصقة بثيابهم وجدرانهم وأجسادهم وكثير من أبناء الحي ممن أجبرتهم أعمالهم للمكوث في الخارج يخلدون بإحدى الظلال لأخذ قسط من الراحة وتعددت الأمكنة التي يرتادونها للتخفيف من وطأة تلك الرطوبة وكان أفضل تلك الأمكنة الجلوس تحت عمارة أبي الجدايل ومن ابتعد عنها اقتطع قطعة كرتون ويحركها أمام وجهه بينما ظل عرقه يسيل بين مفاصل جسده بانسياب وغزارة.

هذا الجو المثقل الملبد بالرطوبة والعاجز عن حمل روائحه بعيدا كان منبع دهشة الكثيرين حيث نشط لإضرام ذلك الحريق الذي شب بمنزل الفسيني واتلف جزءا كبيرا منه من غير أن يتمكن أهل الحي من إخماده.

فما إن ارتفعت ألسنة اللهب حتى تقافز رجال الحي حاملين جرادل المياه وصبوها على تلك النار المتأججة، وواصلوا الركض لجلب مياه أخرى وحين يعودون تكون النار قد واصلت نموها في أطراف أخرى ووجدوا أن محاولتهم تلك لن تثمر لإخماد النيران المشتعلة فاقترح ياسين السمكري أن يقفوا صفا واحدا وتقوم مجموعة أخرى بتزويدهم بالمياه فاصطفوا مستعجلين في صف طويل بينما ظلت مجموعة أخرى تزودهم بالمياه من المنازل المجاورة.

كانوا يتناقلون الجردل في سرعة متناهية وفي أخر المجموعة شخص يقوم بدلق الماء على النار إلا أن هذه الطريقة أيضا لم تحقق غرضها فأبقوا الصف ثابتا

وقدموا خمسة رجال لدلق المياه، وحاول كثير من الشباب القفز على ألسنة النار لنجدة الفسيني وأهله فقد كانت تصلهم الاستغاثة من الداخل فيقتحمون ألسنة اللهب فتلتصق النار بثيابهم فيعودون ركضا طلبا للنجاة أو لمن يطفئ الحريق الذي شب في ملابسهم وأجسادهم.

في لحظات كان كل شيء قد انتهى وتحول البيت إلى مقبرة للحسيني وابنته وزوجته ولم يسلم من هذا إلا عبد الله الذي عاد من مدرسته ليجد ثلاث جثث في استقباله.

في ذلك اليوم تراكضت الحارة بأسرها في محاولة لإيقاف زحف النيران الملتهبة والتي امتدت ألسنتها لتلحق ببيت الطيرة الذي تمكن من إخراج أسرته قبل أن تنالهم النار.

وقفت الحارة دامعة وهي تقلب ثلاث جثث تحولت إلى هياكل متفحمة، كان أشوهها جثة الفسيني الذي يبدو أنه كان مجردا فقد أكلت النار كل شيء به ولم تبق إلا على سجدته التي لم تصلها النار، بينما كانت جثتا زوجته وابنته متلاصقتين لم يستطع أهل الحارة فصلهما فقرر أهل الحي أن تدفنا سويا لكن عبد الله اقسم أن تدفن الجثث الثلاث في قبر واحد.

ورفض حسن المؤذن أن يغسلهم خشية أن تذوب الجثث على يديه فلفت جميعها في كفن واحد، ودفنوا في مقبرة أمنا حواء.

في المغرب وقف عبد الله وحيدا لتلقي العزاء، وأكبر رجالات الحارة المأمور أبوشايب الذي تواضع ووقف مع عبد الله لتلقي العزاء مرددا:

- ما حدث لعبد الله يمسنا جميعا

متعهدا بإعادة بيت الفسيني إلى سابق عهده، وبعد العزاء أعطى عبد الله مالا لكنه رفضه مغمغما بكلمات الشكر ومحاولا إمساك دموعه كي لا تفر في غفلة منه.

أخبار جمعها الراوي عن أبي حية

توقفت عن القراءة منذ ست سنوات، ولم يعد في البال شيء يذكر، ولازلت صنما في عيون المساجين، إنهم يظنون أنني قادر على فهم كل

شيء وتحولت إلى مفتي وأستاذ وطبيب، الكل يسألني فانتشي وتأخذني العزة بالإثم، كنت أسير حياتهم، وأوصي من يخرج من هذه الزنازين الضيقة بالعودة سريعا مرددا:

– في الخارج حياة عفنة تفسخت منذ أمد ولم تعد جديرة بأن تعاش! !

كنت أقول لهم أقوالا كثيرة لا أومن بها في سريرتي، كانت بقايا لأقوال استعرتها من تلك الكتب التي كنت أقرأها فيما مضى. الشيء الوحيد الذي نسيته أن تلك الوصايا التي حفظتها لم تكن توجه للمجرمين، ياااااالله كم نشوه حياة الآخرين لمجرد الفهم الخاطئ لما نقرأ.

كانوا ينساقون لكل ما أتفوه به، ويسيرون حياتهم على قضبان تلك الكلمات الضامرة التي تغادر فمي كل صباح ومساء.

في أحيان كثيرة أغبط دعتهم وانقيادهم لما يقال لهم.إنهم يجدون من يفتح لهم طرقا حتى وإن كانت طرقا عمياء إلا أنهم يجدون مكانا تتلهى فيه خطواتهم أما أنا فتعتريني في كل حين رغبة ملحة للبحث عمن يسير حياتي! !

5

ليل خرب.

صوته الصارم يعذبني، في كل ليلة ينهض من رقدته ويقف على الجدار، ويضرب كفا بكف، ويستعيذ بالله مني، وأنا أترقرق ذليلا:

– أنا وحيد ولجأت لهذا لأنساكم

فتتمدد كلمة وحيد وتتحول إلى نغمة تتموج وتغرقني في داخلها. . . صداها يتردد في أعماقي (وحيييييييد) تتسع دوائرها فأتشبث بصور مفككة تعبر مخيلتي، وتعصف بي دوامة الوحدة وتجذبني للقاع فأتلاشى في داخلها بينما أظل أصيح بتوجع: وحييييييد

تتدلى صورة أمي بجواره وهي تضرب صدرها كمدا وتشعث شعرها، وتريق قارورتي مولولة بصوت مكتوم:

- فضحتنا الله يخزيك

تدوي كلمتها في قاع جوفي وتتمدد (فضحتنا الله يخزيك) تتردد كلمة (فضحتنا. . فضحتنا. . فضحتنا) تبزغ كل الوجوه مستنكرة، وأيدي وألسن ممدودة تردد (فضحتنا. . فضحتنا)، ألم عظامي وانكمش على نفسي هاربا من كل تلك الأصوات والوجوه البازغة المستنكرة، أحس ببصاق كل منهم على حدة، أوشك أن أغرق في بصاقهم، يغادرونني واحدا واحدا، أحس بلزوجة تعتري جسدي، أتمتم:

- اغيثوني

تمتد يدها صوبي فيجذبها أبي زاجرا:

- لم يعد لنا ابن

ويهربان في ظلمة المكان، أركز وأركز وانتشل نفسي من تلك الدوامة وأفيق بصعوبة أبحث عنهما في زوايا الغرفة المتبقية، أجدها كآخر عهدي بها تتطلع إليّ بعينيها السوداوتين اللتين طالما لسعتني نيران الغيرة حين تحدق بهما في وجه أحد الفتيان، فأضربها على وجهها فتدس جسدها البض خلف أمي وتمد لسانها باتجاهي، يعتريني الغضب فأطالها من خلف ظهر أمي وأجر شعرها الطويل، الطويييييييل، فتلحق بنا أمي تخبطني وتحضنها، هاهي تقف مبتسمة تمد يدها فأركع أسفل قدميها، فتسرح خصلات شعري أحس أن سبابتها مكسورة فأجهش بالبكاء، وانتفض، وأذوي كعصفور في ليلة باردة وجد ركنا فاستدفأ به، وسرعان ما تصفق الأبواب ويعبرني ريح ثقيل هامد يتشكل ويغدو غيلانا وجنيات وقهقهات مرة تنخر جمجمتي فأرتمي جوار قاورتي الفارغة وأمضي (هاربا في فزعي) وأفيق من سكرتي فلا أجد أحدا يجاورني سوى صداع ثقيل ومعدة خاوية تطحن لحمها.

كرهت هذا الإشفاق، الكل يسألني:

- كيف أمسيت

- وكيف تمسي البيوت المحروقة؟

تجاورني روائحهم وصورهم المخلوطة بشياط النار، في الليل يأتون

ساخرين ويدقون عظامي ويرحلون.

شجعني حسن المؤذن للنزول في القبر، أعاننا القبار لإدخالهم اللحد كنت أمسك بهياكلهم فاسمع تكسر عظامهم المحروقة ونحن نحشرهم في اللحد، أظن أنني كسرت إحدى أصابعها، تهيجت فجأة كنت أحشرهم بعنف وعظامهم تتقصف مع كل دفعة أبذلها، اعتراني دوار فهويت تلقفني حسن المؤذن والقبار وقذفا بي لخارج القبر، شعرت بالمهانة حين سمعت كلمات تطايرت ممن حضر الدفن:

- أخطأ من أنزله

- لا يزال صغيرا

تمنيت لو أقبر معهم ونتقاسم التراب سويا، فتدافعني المشيعون أمامهم، وهم يوصونني بالجلد.

في أول الأيام كان علي أن أثبت لأهل الحارة أنني رجل يمكن له أن يتلقى الصدمات وينهض، تحاملت ووقفت كما يليق برجل.

في سرداق العزاء، كان منظري مثيرا للشفقة، لا أحد يقف معي لتقبل العزاء، وحيدا أقف كفزاعة الحقول، وأفواه المعزين تنثر الكلمات والدعوات، أكبرت المأمور أبوشايب حين تقدم وجلس معي لتقبل العزاء.

الناس يقاسمونك الحزن للحظات ثم يشدون رحالهم إلى أحزانهم، فتجلس زمنا تناغي جروحك الطازجة تقلبها حتى تستوي، واستويت، واستوطنت جراحي ولم أفق أبحرت معها، استوحشت وغدوت فضا غليظا، حتى إذا عصفت بي لواعجي تحركت إلى تلك النافذة، كانت تهمس:

- أريدك أقوى مما أنت عليه

فاشتاق لإيذائها بالكلمات الحارقة، أمعن في مماحكتها ونعتها بالنعوت الجارحة، تهطل دموعها فأزداد شبقا للمزيد من الدموع، شيء ما يحولك إلى كائن يسعى لإدخال الآخرين دوامة من العذابات السمجة، أتركها وأعود وحشا كسيرا يقضم مخالبه، يبحث عن وفاق بين ضراوته وحنينه للدعة.

ليليا أركض إلى نافذتها وحين نلتقي أعاود طعن البارحة، أعمق نصلي

وأستلذ أستلذ بدموعها، بتهيجها، واسترحامها. في أعماقنا وحوش مختبئة وحين نسهو عنها تتسلل للخارج وترينا قبح بعضنا، نحن كائنات تتستر على مجرمين سفلة وقتلة مدمني الدم، إننا معلقين من ذلك الخيط الذي سال ذات يوم من جبهة هابيل، نتوارث سفك الدماء كان ذلك حين كان العالم لايؤمن إلا به، وحين ارتدى معاطف شتوية وصيفية خلال قافلة من السنين ظل يحن لسفك الدماء أو الدموع، نحن نسعى لهذا بغريزة مدفونة في دواخلنا. . داخل كل منا إنسان قذر.

كان يقول لي كلاما شبيها قبل أن يكشف لي سره، لو لم ألتق به لربما مضت تلك الليلة كليالي كثيرة عبرت هذه الأرض من غير أن تترك على كاهل أصحابها بؤس ما أنا فيه.

أظن أننا نتلاقى لكي نجهز جريمة ما، شيء غامض يغزل كوارث العالم بمجرد التقاء اثنين، إذ لم يكن كذلك فكيف يأتي الموت، كيف تأتي الحروب، وكيف نواصل تأريخنا البشري. ؟!!. . لقد تسربت الضغينة الأولى عبر دمائنا ولا مناص من مواصلة أداء أدوارنا الوحشية. !!

جاءني مخمورا يحمل قارورته ويتطوح، واساني بكلمات مفككة، لم أطق بقاءه قال:

- لو تعرف فائدة العرق

شعرت برغبة لأن أدفعه خارج البيت، كان الحريق قد أكل الأبواب، ولم تعد إلا غرفة واحدة تحجبني عن العيون المبحلقة، مكث طويلا، كنت أشعر به جاثما على صدري، تداعت كل الذكريات، أبي يقف على الباب:

- أحذرك من مجالسه السقط

ومن خلفه توارت أمي بعينيها السوداوتيين والتي كانت تقسم أنها تميل إلى اللون العسلي كلما وقفت على بابهما في الليل وهي تتزين لأبي، كانت تضع يدها على فمها مستنكرة:

- ألا تستحي . . . . تجالس هذا الضائع

وأتركها تهذي بكلمات كثيرة - في الذاكرة - تنتهي محشرجة:

- ألا تخاف أن تبور أختك بمجالستك هؤلاء السفلة

فتقف ليلى بعينيها السوداوتيين تخالس النظر إلى جليسي، تعتريني حالة هياج ورغبة لجرها من شعرها الطويل، وقبل أن أفعل تدس جسدها خلف أمي وتمد لسانها في اتجاهي، نهضت صائحا، فز جليسي من سكرته:

- ماذا حدث؟

كنت أنا وهو وأصوات تعصف بجمجمتي، جاهد على ضبط حركاته واقترب مني ملاطفا:

- تجرع وسوف تنسى

عبيت عبا، فامتد خيط نار إلى معدتي، وتصاعد الدخان عاليا وسمعت صياح أمي وأختي، واستغاثة أبي التي حدثوني عنها، تسلقت الجدران، كسرت أبوابا، واقتربت من غرفنا المحصنة، مددت لهم يدي، وسقطت على الأرض أطالبه أن يناولني قارورته.

فاحت رائحتي في الحي، عندما وقفت أمامها همست:

- هل حقا ما يقال؟

فاختلقت مشاجرة، وتركتها معلقة في نافذتها تكفكف دموعا ناضجة.

بقامته المديدة يتشكل ويستعير ملامح أبي، تخترقني عيناه فأذوي وأعود طفلا ينتظر التوجيه، كنت أخشاه كثيرا وغدا عذابا إضافيا علي الاحتراز من ملاقاته وأنا على هيأتي التي أصبحت أحبها، ويبدو أن هاجسي هذا تفلت في إحدى لحظات ضعفي فعرفه الآخرون وكلما خرجت أتطوح صاحوا بي:

- أبو شايب قادم

فأفيق وأرتمي أسفل أي جدار متصنعا التبول.

يجلس بجوار صندقة السميري بشاربه الكث وصوته الأجش يختبئ داخل كوت طويل داكن - يلبسه في الحر والبرد - ويمز دائما سيجارته المتخشبة، عندما رآني لأول مرة مخمورا جذبني من كتفي:

- ألم أحذرك من هذه النار التي تركتها في داخلك

أظن أنني شتمته وهم لساني بنبش سره الذي زرعه بصدري أذكر أنني قلت:

- لم يعد إلا أنت حتى تتصنع الفضيلة

لطمني على وجهي صائحا:

- أفق قبل أن تدهس روحك

أحسست بالمهانة، فلعنته ودلقت سره بكلمات مفككة، جذبني إليه وكمم فمي وربطني جوار الغنم.

وفي الصباح حل وثاقي معتذرا فاكتشفت مأساة أن تسلم سرك للآخرين.

أكان لابد أن أسير في هذا الطريق؟ نحن لا نقدر على التنبؤ لكن الخطوات المعوجة تخلق طريقا معوجا، والأعرج قادني في طريقه، ربما كان معذورا رغب في مد يد العون فمددت له رجلي للسير بخطى متعرجة، والناس لا ترحم سرعان ما نبذوني وأسلموني إلى خطواتي، شعرت بذلك حين انقطعت الأقدام عن زيارتي ثم غدوت جليس سوء لأولئك الذين يسيرون على الوصايا العشر، تناقلت النساء غوايتي فأبعدوا أولادهم ورجالهم عني ووجدت نفسي أجالس الليل وكائناته، وأولئك الذين قذفهم الحزن إلى الطرقات المعتمة ومصاحبة الضياع، كان بالإمكان أن أعود من هذه الرحلة قبل الإيغال في تعرجاتها لكن أبا العمايم جاء عاصفا وطوح بكل محاولات العودة وكلما هممت بالنكوص أدخلني زنزانة ضيقة وأذل رجولتي وعمق في داخلي رغبة متأججة عشت من أجل تنفيذها.

رأيته في منامي يخرج من جحر ضيق بجسده الأملس ويزحف ببطء ليلتف حول جسدي يعصرني ويفتح فما بأنياب لينة ويعتصرني، يهرسني، ويزدردني لأعيش بين لعابه وعضلات فكيه القويتين فتضيق الدنيا وتغدو لزجة عفنة وكلما حاولت الفكاك نغزني بنابيه اللينين ونفث لعابه ليلتصق بجلدي ويغوص بين لحمي وأظل انتش جسدي نتشا فيفور الدم من كل مساماتي، كان حية عظيمة كلما غفوت عنها ظهرت لتمتص دمائي.

في تلك الليلة كنت أترنح أمام نافذتها عندما فاجأني المورقي وأنا أنشد قصائد الهوى بصوت مسموع لمح شبح ابنته منزويا خلف النافذة فاقسم بأن لا

تفتح تلك النافذة أبدا ولم يكتف بذلك فقد قام من حينه بتلبيسها لتصبح جدارا وأثرا لنافذة كنت أطل منها على الحياة.

وتشارك المورقي وأبو العمايم في إغلاق طريق العودة فغبت في الزنازن أحمل حيتي ورغبتي المتأججة في أن أتخلص من هذه الحية التي تلازمني.

كنت متعبا وجائعا ومشتاقا للهرب من حنين قرظني فجلست أقلب حبات الذرة على موقد تشبعت جمراته وهي تقف في البال كنجمة تدنو وتنوء، ضحكاتها وحكاياتها وأمنياتها تنسق شجنا يتشجر ويغدو حدائق ومواويل، تناولت زجاجتي وأخذت أعب من شرابها المضروب، فسرى في حنجرتي حريقا وطعنني في معدتي وتغلغل بحرقة إلى أحشائي، وجرى في أطرافي وصعد الخدر إلى رأسي بطيئا، شممت رائحة شياط وحريق يجري في كل الأمكنة وصرخات استغاثة تنطلق من كل الأفواه وأبي يصيح بي:

- أنجو قبل أن تحرق مثلنا

كان الدخان كثيفا، ولهب النار يسري كالماء، ومها تقف داخل النيران ضاحكة تمد يدها وتدعوني، رجوتها أن تغادر، كانت تضحك وتسخر من هلعي، فجذبتها بقوة وقبل أن نغادر كان خالد أبو العمايم يقف بيننا وبيده زجاجة كورسين صبها فيما بيننا فالتهب المكان وتصاعدت ألسنة النار، كنت أسمع النساء يستغثن متلهفات والرجال يتراكضون بجرادل الماء ويطفئون مفاتيح الأنوار، ويغيبون خلف الدخان، وكلما خرج أحدهم كان يحمل جثة متفحمة، تتلاشى بين يديه إلى كومة رماد ينثرها في الفضاء فتقابلها مها بزغاريد ملتهبة.

ما قاله أبو حية للراوي في جلسة صفاء

من منا يستطيع أن ينجو من عذاب حب تغلغل في شغاف القلب،

- من يستطيع؟

ومن رأى أبا مريم يتذكر أنه سجين امرأة ما، يتذكر أنه هدي قادته لتوفي بنذر ولم تحسن ذبحه وتركته معفرا بالتراب والدم ومضت في زمنها تبحث عن هدي أخر غير أوابة من تلك الآثام.

يا لطيف ها هي تسكن أعماقي عنوة، فهل تصدق مقولة بشار بن برد:

يا ناس أذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا. ؟

6

في زوايا متعددة من الحارة أقيمت سرادق العزاء، ولم يكن من السهولة أن تنهض كل هذه السرادق في نصف نهار، فبعد سماع خبر الوفاة وقف العمدة مشاورا بعض أعيان الحي فأشاروا عليه بانتظار أي شخص تربطه علاقة بالمتوفى ليصبح هناك معنى للعزاء لكن العمدة - كعادته - سفه تلك الآراء وأصر على تقبل العزاء حتى وان كان للمتوفى قبيلة كاملة وضرب صدره معتدا:

- أنا رأس الحي وأقدم العمد والأحق بأخذ العزاء في رجالات البلد كان زبده يتطاير أثناء حديثه ويعيب على المتواجدين إبخاسه حقه في نيل هذا الشرف:

- أنتم تحاولون (توطية) رأسي بين عمد الأحياء المجاورة، ماذا يقولون عني: أنني لا أقدر أهل الشرف والمروءة، والله ثم والله لأقيمن له عزاء يذهب مضربا للأمثال

هذا الاعتداد قابلة اعتداد مماثل عند مجموعة كبيرة من أعيان الحي وبقية عمد الأحياء الأخرى فأصر كل منهم على إقامة عزاء مستقل يتقبل فيه العزاء في الفقيد.

ومضى كل واحد منهم يسابق الآخر في إقامة السرداق الخاص به، وأثاروا حمية الشباب لينهضوا بالمهمة مستعينين بمجموعة أخرى من العمال تم استئجارهم على نفقة المتكفلين بإقامة السرادق ووقفوا أمام معضلة توفير (تيازير) وأعمدة لتفي بإقامة خمسين سرداقا ولاستحالة قيام مثل هذه السرادق في وقت واحد وفى أمكنة متفرقة لقلة التيازير والأعمدة والتكاليف الباهظة ونتيجة لتقاعس البعض عن الدفع توقف العمل ساعتين لتبادل المشورة.

كان بعض العمد والأعيان مدفوعين لإقامة السرادق من باب العند والمكابرة واتضح لهم أن هاتين الخصلتين لو أوغلوا فيهما فستكلف أغناهم ما لا يطيق مما حمل الشيخ أباعيشة على تسفيه هذا التصرف ونصح المجتمعين الاكتفاء بإقامة عزاء واحد يجتمع فيه الجميع حتى ولو اكتفوا بسرداق عمدة الهندامية لكن رأيه لم يجد أذنا صاغية واتهموه بالتخاذل ومناصرة خصمهم وتمكينه من السخرية بآرائهم مجتمعة، فلعن عمدة الهندامية على ما أحدثه من بلبلة بين العمد والأعيان بشهامته المبالغ بها التي أرجعها البعض إلى طبعه المتزلف الوصولي حيث وصفه أبو وحيد شيخ النجارين بتهكم ومواربة:

- عمدتنا مثل الإسفنج يمتص المياه ولا يبين عليه

وقطم كلمته حين عقب الميني:

- . . . . .وعمله هذا ليس لوجه الله ولكن ليكسب رضى رؤسائه

وفار غضب محسن الدافوري فنثر كلماته محتقنا:

- لعنة الله على هذا الجنس من الرجال فهم مثل الطبل مع كل ضربه لهم نغمة

وقال إبراهيم أبو عينين:

- هذا العمدة لا يضع قدمه إلا في أرض مسها الذهب

وحاول علي البريكي الوقوف في صف العمدة حين صاح بهم ووصفهم بالمتحاملين:

- إن الرجل يسعى إلى الخير يا جماعة فلا تمنعوه

فوجد كثيرا من الأفواه مفتوحة، غطت على صوته، واحتد أبو الخيرات موجها حديثه إليه:

- أنت طيب، الله يعطيك على قدر نيتك، لم يقم العمدة بهذا التصرف إلا ليكسب حظوة عند المأمور الجديد، اسألني عن خباياه

فقاطعهم عبد الله الموسيل:

- يجب أن نفوت عليه نواياه

وبعد مجادلة انتهت المسألة بأن تشترك كل المجموعة في إقامة سرداق

واحد يمثلهم جميعا ويبيض وجوههم فوافق الحضور على هذا الاقتراح الذي يرفع عن كاهلهم عبء مصاريف لا طائل من ورائها وفرح عبد الله الموسيل بالاقتراح وأستعاد نقوده التي شارك بها مدعيا حاجته الماسة إليها، فغمزه شيخ النجارين بخبث:

- لاشك أن نفسك كانت تئن لفراق ريالاتك

فضحك حتى غابت عيناه خلف وجنتيه المرتفعتين.

وعندما تناهى الخبر إلى عمدة الهندامية رفض مقترحهم وصاح منفعلا:

- سأبيع كل ما أملك لإقامة هذا السرداق ولا أريد أحدا أن يشاركني

وأصر على إقامة سرداق خاص به لا يشاركه في نصبه أحد، فزاد سخطهم عليه ونعتوه بالخسيس المستغل،

وتسابق الجميع على الحط من قدره.

كان مقررا أن ينهض سرداق واحد يمثلهم جميعا إلا أن الأمر تطور ليصل إلى إقامة خمسة عشر سرداقا بعد جملة من الاتفاقات أبرموها فيما بينهم خاصة وأن بعض الأعيان استشعروا أهمية إظهار الولاء للمأمور الجديد وحسرتهم على سلفه وتفويت ظهور عمدة الهندامية بما ليس فيه، فبعد أن رفض مقترحهم ذهب بهم العناد لإقامة سرادق تفوق سرداقه أبهة وفخامة، فطفقوا - من جديد - يجمعون التبرعات والمعدات غالية الثمن وكل حي يتوعد بأن يكون سرداقه الأبهى.

كانت معضلة توفير التيازير عقبة أخرى تواجههم بعد أن وجدوا انه بالإمكان استخدام الخشب الملقى في الأحواش والبرحات أعمدة، وسنادات خلفية، وبعد تفكير وبحث عثروا على ضالتهم عند السلموني الذي وجدها فرصة لابتزاز أعيان الحي فرفض تأجير أدواته بالمبلغ المعتاد حيث غالى كثيرا في ثمن إيجارها حتى أن شيخ السقائين عبده زفة لم يجد بدا من لعنه أمام الجميع وعاب عليه جشعه:

- لم أعرف أن بخلك يجعلك تستغل المواقف التي تستوجب الشهامة

فرد متبجحا:

- لقد تركت الشهامة منذ أن توليت أمر (البيزان [4])

وكأنه أحس أن جملته لم تشف غليله فأردف:

- ومن أين لنا بميت كهذا، وأنتم لا تموتون

فوصلته اللعنات ممن حضر لكنه واصل عناده وأقسم أن يرفع السعر مقابل كل لعنة وصلته، ولضيق الوقت استعد الكثيرون لدفع المبلغ الذي يريده وكان همهم أن تفي معداته القليلة بالغرض وعندما طال حديثهم أمام دكانه صاح بهم:

- هنا محل رزق ادفعوا أو غادروا باب الدكان

وعلى مضض، أخذوا يحسبون المبلغ الواجب دفعه بينما كان السلموني ينظر إليهم شزرا وبنفس عائفة، وقبل أن يعطوه المال جاء إسماعيل البنا حاملا خيمته وصاح بهم:

- خيام الحج يمكن أن تؤدي الغرض

فتصايح المجتمعون:

- نعم خيم الحج، فليحضر كل منكم (تيازير) خيم الحج

فانفض الحضور من أمام دكان السلموني وهم يتوعدونه برد هذه الإهانة في القريب العاجل، عندها شعر بخيبة أمل وأغلق دكانه وهو يلعن إسماعيل البنا في كل كتاب، ووجد نفسه في حاجة لأن يمد يده في وجه أي كائن فأطلقها على هامات صبيانه الصغار الذين تقافزوا في اتجاهات مختلفة يغالبهم ضحك حبسوه منذ فترة طويلة.

---

(4) بجدة كانت المياه شحيحة للغاية وكانت توضع سهاريج تبنى بناء خاصا ويجمع بها مياه الأمطار وتظل هذه الأماكن مصدرا لجلب الماء لأهل جدة ويقال أن رجلا فارسيا يدعى بيزان حضر إلى جدة وجاء معه بفكرة وضع مكان مخصص يتم ضخ المياه من السهاريج إلى هذا المكان وهو مجهز بأنابيب أو مواصير تضخ الماء للسقائين الذين يملئون براميلهم ويحملونها للبيوت من خلال صفائح (الزفة) أو براميل كبيرة تحمل على عربة ويجرها حمار.

روى هذه المعلومة عبده زفة شيخ السقائين

تنافر الشباب بين بيوت الأحياء طالبين (تيازير) خيم الحج المكدسة في المخازن، ولم يحن دخول الظهر إلا وسرادق العزاء منصوبة في كثير من البرحات المتناثرة، وكان كبار رجالات الحارة قد انشغلوا بتجهيز المتوفى للدفن.

قام حسن المؤذن بغسل الجنازة ودموعه تفيض فانشغل لحظات بإزاحتها والتمخط بصوت مرتفع ومعاودة الغسل ببطء، وهو يتناشج وكأنه لأول مرة يقوم بهذه المهمة مما هيج الكثيرون فتحول مكان الغسل إلى مناحة غير آبهين بتلك الكلمات التي كان يطلقها البعض:

- (أفا على الرجاجيل) وماذا أبقيتم للنساء؟

فقال حسن المؤذن بحزن مبالغ فيه:

- ليس له نساء يودعنه بالدموع

فتناشج من حضر، بينما ظل ياسين السمكري يغالب ضحكة مباغته سرت في بدنه حين سمع همس أبي طيرة متهكما:

- خل زوجتك وأمك يبكينه ب(الاوندي[5])

لم يسمع هذا التهكم سوى ياسين السمكري وخشية من أن تهرب ضحكته المجلجلة فقد نهض متواريا عن عيون الحاضرين ووقف خارج غرفة الغسل، وعندما نظر لأبي طيرة الذي تصنع الحزن كاد ينفجر ضاحكا، وخوفا من أن تحدث هذه الكارثة فقد أسرع مغادرا المكان بينما واصل حسن المؤذن غسل المتوفى بكثير من التأثر، مقبلا جبين الميت ومغاليا في سكب المياه عليه حتى أن بعض الحضور أبدوا تضجرا من فعلته فصاح أبوطيرة:

---

(5) الأوندي اصطلاح على كل كلام غير عربي، ويقال أن اول من استخدم هذا المصطلح بالحارة هو أبو شنب حينما كان يأتيه بعض نزلاء المقهى بلغات غير عربية وكلما سأله صبيانه عن هذه اللغات قال: هذا هرج لوندي

وبعده أستخدم هذا المصطلح بقية شباب الحارة فحين يتحدث أقرانهم من الهنود والتشاديين والنيجرين بكلام غير عربي ولا يفهم يقولون هذا كلام لاوندي.

روى هذه المعلومة أبو طيرة

وإن كانت روايته غير موثوق بها لأنه يخلط الجد بالهزل

- ليس بالصهريج نقطة ماء ولن نجد ماء نشربه إذا واصلت غسله بهذه الطريقة.

لكن العمدة زجره مذكرا إياه بمكانة المتوفى، فقال أبو طيرة:

- مكانه محفوظ يا عمدة، لكن مياه الصهريج لن تبلغنا موسم المطر

فرد عليه العمدة مقتضبا:

- ليس وقتك الآن يا أبا طيرة

ولم يكن حسن المؤذن في حاجة لموقف العمدة فمغالاته في إسراف المياه على الميت يراها واجبا طفيفا لا يثمن إزاء فضل المتوفي عليه ولا يمكن أن تمكنه من إكرام المتوفى جزاء لمعروف أسداه إليه حين زكاه ووقف معه ليكون مؤذنا لمسجد الحي بالرغم من سنواته القليلة التي أمضاها في الحي، متذكرا موقفه الحازم في تعيينه مؤذنا بالرغم من اعتراض الكثيرين على عجمته التي تحرف بعض الحروف مما يثير ضحك المستمعين، لكن المأمور أبا شايب أصر على أن يؤدي الأذان حسن الهندي بدلا من الكثيري ذي الصوت الحاد، ضاربا مثلا بسيدنا بلال الحبشي الذي ارتفع صوته بالآذان في وسط أكابر الصحابة، وعندما قالوا له:

- إن بلالا له لسان عربي وليست به عجمة

رد عليهم بثبات:

- وما يدريكم

فصمتوا، وارتضوا به مؤذنا للمسجد الكبير من يومها وهو يؤدي دوره ويغالب عجمته متعسرا لكنه لم ينس جميل المأمور الذي يتدلى على عنقه.

كان يغسله ويبلل الماء في كل عضو من أعضائه حد الإشباع وصورته تقف في مخيلته بوداعتها وصرامتها.

هاتان الصفتان اللتان سار بهما أبو شايب جعلت حياته مثار دهشة ممن عرفه ولم يتمكن أحد من استغلال وداعته بما لا يرضي، ولم يكن ليترك صرامته تطغى على حلمه، كان ميزانا قضى حياته متنبها كي لا تخسر كفة مقابل أختها.

أعاد حسن المؤذن غسله مرارا ومرر السدر في أماكنة متعددة وسكب عليه العود الذي أحضره العمدة، وزاد عليه ب(تولة [6]) كان يخبئها لجنازته وصرح بذلك بعجمة فصيحة بعض الشيء: - كنت أخبئها لموتي لكن الميت أغلى من روحي

وسكبها على نحر الميت دالكا بها صدره ووجه وأعضاءه السفلى، ورفض سد منافذ جسده بقطن مصفر، مما دفع خالد السوري للركض إلى مستشفى باب شريف فجلب قطنا ناصع البياض، وكاد يمضي وقت صلاة الظهر وهو لا يزال منهمكا في تجهيز الجنازة وبعد جهد استجاب لاستعجال العمدة في إنهاء الغسل والتكفين، وسبق الجميع إلى المسجد لرفع الآذان، بعد أن أوصى زوجته بتحضير الرياحين من أماكنة متفرقة في الحي.

عج المسجد بالمصلين وتوافد للصلاة أهل الحي جميعهم حتى أولئك الذين لا يصلون إلا في رمضان جاءوا خاشعين غير آبهين بنظرات الاستغراب التي كانوا يواجهونها من المصلين مما جعل أباطيرة يقول فيما بعد:

- إن أجمل ما في موت المأمور أبي شايب أنه جعل الأبالسة تدخل المسجد

غص المسجد بتلك الأعداد المتزايدة فلم يعد به مكان لأحد فلفظتهم أروقة المسجد إلى الشارع لتؤدي الصلاة مجموعة كبيرة من خارج أسوار المسجد ولرخامة صوت الأمام محمد اليوسفي لم يصلهم التكبير فاختلت صفوفهم بين راكع وساجد وقائم فتصايح من فاتته الركعتان الأوليتان:

- الصوت لا يصل إلى المصلين

---

(6) التولة مقياس يقاس به عطر العود، والتولة قارورة صغيرة وهي وحدة القياس الكبرى وأجزاءها ربع ونصف تولة
وهذه المعلومة قالها شيخ العطارين
وقد غمزه السلموني حينما سمعه قائلا:
شيخ العطارين يعرف مقايس عديدة فسأله: هذه هي القياسات التي يبيع بها أم التي يشترى بها
وقد غضب منه وتشاجرا بسباب أمتد حتى بلغ أطراف الحارة وقد تركتهما من غير أن أحاول تهدئة الوضع.

وعندما حانت صلاة الميت تصايح المصلون:

- نريد أن نسمع التكبير فلا تضيعوا علينا البركة

وتدافع بعضهم إلى الداخل، فأحدثوا ازدحاما ضاق به الكثيرون وانبرى حسن المؤذن يردد التكبيرات بصوت جهوري لا يخلو من عجمة، وبعد التسليم مباشرة دوت جنبات المسجد بالبكاء مما أخر ظهور الجنازة، كان خلالها صوت اليوسفي يرجو الجميع الإفساح لخروج الجثمان:

- إذا كنتم تحبونه فسارعوا بدفنه فإكرام الميت دفنه

وفي لحظات تخاطف المصلون النعش، وانطلقوا بين الأزقة مهرولين مهللين، وتحركت الحارة بأجمعها لتوديع الجثمان لمثواه الأخير.

في الطريق تضاعف عدد المشيعين إذ تجمع المارة وانضموا لموكب الجنازة، فعجت الطرق بآثارهم، وارتفعت أصواتهم موحدة حتى أن البيوت المتناثرة حول المقبرة خرجت لرؤية صاحب هذه الجنازة المهيبة، وتسابق الناس أيهم يسبق لدخول المقبرة فمن كان يسير في الخلف لم يجد له موطئ قدم حين انزلوا الجنازة في القبر، واختصموا حول من يدخل معه القبر مما جعل القبار يحرن في وجوههم ويقرر أن يدخل بمفرده لتلحيد الميت، وخشية من أن يتناقل الناس ما حدث، فقد تنازل العمد للشيخ يوسف النوري والشيخ محمد أبي ركبة بمرافقة القبار وتوديع المتوفى وحل الكفن، وقد أسر عمدة الهندامية الضغينة لأولئك الأعيان الذين نافسوه في هذا الفضل، وبعد أن دفن بقيت مجموعة من شيوخ المهن لتقبل العزاء بينما عاد معظم المشيعين لتفقد سرادقهم والاطمئنان على تكاملها، وبعد صلاة المغرب كان الكل يتقبل العزاء ولكي لا تضيع هيبة المتوفى فقد تقرر أن يجلس في مكان المعزين أعيان الحارة فجلس العمدة وحاشيته في السرداق الكبير وتوزع شيوخ التجار والصاغة والنجارون والفرانون والصيادون والعطارون كل في سرداقه الذي أقامه، وبعد صلاة المغرب تنقل أهل الحارة من سرداق إلى آخر لأداء الواجب في فقد المأمور أبي شايب وإن كان جلهم ينتقل خلف المقرىء محمد ركبان ذي الصوت الرخيم المتهدج فحين يقرأ لا تملك إلا الإنصات والخشوع لقراءته لقد كان يعرف سحر

صوته على مستمعيه لذلك كان أثناء القراءة يتثنى بجسده برتابة بينما ينساب ترتيله بتنغيم أخاذ ويتمايل بنشوة وهو يضع يده على فمه منوعا طبقات صوته فإذا ارتفع أخذ بمجامع نفسه بلا تقطع وإذا نزل تهادى برفق وعذوبة فيلتصق صوته بأرواحهم المنصتة محركا في دواخلهم لواعج دفينة يخرجونها عبر هنهنة وأدعية متلاحقة.

بعد انقضاء اليوم الأول من العزاء جلس الشيخ محمد ركبان إلى العمدة وأبدى رغبته في البقاء في السرداق الكبير بدل التنقل من مكان لآخر واقترح أن يقوم بالقراءة في السرادق المتناثرة بالأحياء عدد ممن أثنى عليهم واتفقوا على ذلك فكان المعزون في اليومين التاليين يؤدون واجب العزاء بسرعة متناهية - في السرادق المتناثرة في الأحياء - ويعودون مستعجلين إلى السرداق الكبير للاستمتاع بصوت الشيخ الركبان فأقفرت السرادق الأخرى من المعزين مما جعل أصحابها يتركونها ويلتحقون بالسرداق الكبير ساترين غيظا حارقا اندلق من عيونهم وقد أبدى شيخ الصيادين تذمره:

- لو أن الشيخ الركبان واصل جميله لعمتنا البركة جميعا

فاعتذر عمدة الهندامية واظهر لينا مفتعلا:

- لم أستأثر بهذه البركة لكن هذه هي رغبة الشيخ

وأكد بأيمان غليظة أنه لم يستأثر بهذه البركة لكنه نفذ رغبة الشيخ وقال بشيء من الانتصار لرغبته الأولى:

- الميت فقيد الجميع وكان من الواجب إقامة سرداق واحد يجتمع فيه الجميع لكنكم لم تسمعوا قولي.

ولم تجد هذه الجملة موقعا طيبا في نفوس من أقام سرداق عزاء واتهموه بالأنانية في مثل هذه المواقف.

في اليوم الثاني من العزاء تنبه الناس أن رجالات المركز لم يتقبلوا العزاء في الميت، ولم يحضروا دفنه، ولم يكترثوا بالسير في جنازته، فتساءل البعض مستغربا مقاطعة المركز للعزاء مؤكدين أن الواجب يحتم على نائب المأمور محمد الشرقي إقامة سرداق خاص بالعساكر لتلقي واجبات العزاء في مأمورهم، هذا

الاستغراب تعاظم حين سرت إشاعة تناقلها الكثيرون من أن المأمور الجديد أرسل برقية تمنع المركز من إقامة سرداق عزاء وتناقل الناس خبر البرقية مندهشين، وتقول الكثيرون من أن المأمور الجديد يكره أبا شايب.

** **

. . . .وأبو شايب رجل مقطوع ليس له من عرق ينبض في هذه الحياة ولسيرته الحسنة في الحارة فقد بكاه الصغير والكبير ففي مدة مأموريته عمل على جذب الجميع ومصادقتهم. . كان لينا حتى تظن أنك قادر على غلبته لكن شيئا ما غامضا في شخصيته يحول دون ذلك ولم يكن يحب أن يمارس سلطته فكل العراقيل التي تعترضه يجد لها حلا وديا دون اللجوء إلى الأساليب الرسمية وكان غالبا ما ينتقل بنفسه إلى مواقع المنازعات فتجده في البيوت وفي الأزقة وفي السوق، وكل المنازعات كان يجد لها حلا يرضي الأطراف المتنازعة فحضوره كفيل بحل الخلافات المستعصية قبل أن تمد رأسها إلى الأعلى، إذ كان لمجيئه الحظوة والتقدير وفي أحيان كثيرة كان المتخاصمان يتنازلان عن حقوقهما تكريما لمقدمه وكلمته تسمع وتطاع من غير حاجة إلى رفع صوته.

جاء إلى الحارة وحيدا فتربص به أهل الحي وأشيع أن أسرته ستأتي لاحقا لكن الأيام لم تكن تخبئ أحدا خلفها، وقد حاول الكثيرون معرفة أصله ونسبه لكنه كان في جميع الحالات يتملص من ذكر تفاصيل حياته، ولم يكن يقحم نفسه في تفاصيل حياة الآخرين وقد فكر بعض الوجهاء أن يتقربوا منه بتزوجيه إحدى بناتهم لكنه كان يردهم ردا جميلا وحين عجزوا عن إقناعه نسوا عزوبيته والتفوا حوله معتبرينه واحدا منهم حتى إذا مات احتار أعيان المدينة في من يعزون وقطع هذه الحيرة عمدة حارة الهندامية التي كان يقطن بها فوقف بعد صلاة الفجر وذكر اسم الله وأثنى على رسوله وقال:

- المأمور كان أخا للجميع ولأننا لا نعرف له أحدا فأنا سأتقبل العزاء فيه

ولكي لا ينفرد بهذا الشرف فقد حذا حذوه بقية الأعيان والعمد في الأحياء الأخرى.

كان موت المأمور مباغتا فلم يلحظوا عليه علة ولم يشتك من شيء فبرغم

أنفاسه الستينية كان يبدو أشب ممن في سنه حتى أن شيخ التجار مازحه ذات ليلة:

– عيني عليك باردة لا تزال شابا إلى الآن

فغمزه أبوالحمايل:

– لم لا ومخ ساقيه لا يسكبه في تلك الفجوات التي تأكلنا

وأطلق ضحكة جافة سرعان ما وأدها حين لمح تعكر وجه المأمور.

في صبيحة الاثنين كان الجو محملا بالرطوبة، والعرق يتصبب من جميع مفاصل الجسد وقد قضى أهل الحارة ليلتهم فوق أسطح المنازل يذودون حرا ضاريا متحللين من بعض ملابسهم وملقين بأغطيتهم جانبا وان لم يتخلوا عن ناموسياتهم واستلقوا تحتها منتظرين أي نسمة هواء تعبر لتحمل هذه الرطوبة وتلبد اللبد الذي توغل في ثنايا أجسادهم، ومع آذان الفجر خرج الناس يبحثون عن هذه النسمة تحت العماير المرتفعة التي كانت متنفسا لكثيرين حين يمضغهم الحر الشديد.

في ذلك الصباح ظل العسكر ينتظرون مقدم المأمور بشيء من الدهشة فلم تكن من عادته الوصول متأخرا بل كان يؤدي صلاة الفجر ويقبع في مكتبه قبل شروق الشمس تلك الدهشة التي تحولت إلى قلق حين جاء أبو النون إلى المركز لموعد بينه وبين المأمور مبديا استغرابه لتغيبه عن صلاة الفجر وعن تأخره لمثل هذه الساعة وحرض أحد الضباط للاستفسار عنه، فأرسل على الفور عسكريا، وظل العسكري يطرق الباب لوقت طويل فعاد إلى المركز واخبر الضابط بما حدث فسرت في مخيلتهم جملة من الاحتمالات وبعد تريث ومشاورة قرروا كسر باب بيته وبحثوا عنه في كل الغرف والأسياب ووجدوه تحت ناموسيته ميتا فوق السطح.

** **

في اليوم الثالث من العزاء انشغل المعزون عن قراءة المقرىء الركبان وأخذوا يتهامسون أن مأمورا جديدا تسلم المركز ووصفه أحد الحضور بالرجل الغليظ مبدين نوعا من التذمر المبطن لغياب العمدة وكثير من الأعيان والعمد

الذين ارتضوا المجيء إلى السرداق الكبير تغيبوا جميعهم عن قطع العزاء مما حمل ياسين السمكري على القول متهكما:

- أبهذه السرعة يغير العمدة جلده. .ألم يكن هو صاحب فكرة إقامة العزاء فكيف يغيب عن الثالث.

فعلق إبراهيم الأعمش:

- الدنيا لا تمنح الموتى صدرها

وانتهى العزاء بطريقة مضحكة حيث فترت رغبة المقرىء الركبان فكان يقرأ كمن يؤدي دورا قسريا عليه تشعر أنه راغب في إنهاء قراءته بأي صورة كانت، فكثرت نحنحته والتفاتاته وهمّ مرارا بإغلاق مصحفه ومغادرة المكان لولا نظرات التوسل التي كان يطلقها العريفة، وفى أحيان كثيرة الإمساك بلحيته وهز رأسه بالامتنان للشيخ الركبان لإتمامه القراءة فكانت قراءته باردة وصوته يخرج غليظا متحشرجا تفوح منه علامات التضجر وكلما وقف لإعطاء فرصة لمن يرغب في تقديم واجب العزاء لا يرى أحدا ينهض للسلام على رجال العمدة المرتصين لتقبل العزاء فازداد صوته برودا وتقاعسا وأنهى قراءته دون أن يسرد أدعيته المأثورة التي ألف الناس سماعها منه في مثل هذه المناسبات، ولم تعد نظرات العريفة المتوسلة قادرة على إقناعه بمواصلة القراءة، فنهض حاملا مصحفه ووجهه يفور بالامتعاض.

ومضى معظم الوقت والحضور يتلفتون ويمضغون الكلمات بهمس منخفض ولم تفتهم السخرية من رجال العمدة الذين أبدوا عنجهية في غياب سيدهم وكانوا يختصمون على مواقعهم أيهم يكون أقرب إلى العريفة، وتخلى بعضهم عن وقفته التي كان يقفها في حضور العمدة وتقاذفوا بأجسادهم على كراسي المعزين ومن كانت في نفسه رغبة لرفع شأنه سحب كرسيا واصطف جوار متقبلي العزاء، وتخاذل المكلفون بتقديم القهوة عن أداء دورهم فلم يكونوا يأبهون بالقادم ولا بتقديم فنجان القهوة له ولا يكترثون به لو انصرف.

وانفض المعزون دون أن يسلموا على العريفة الذي إقتعد مكان العمدة ومعه جلست ثلة من العسس لتقبل العزاء، مما حمل العريفة لأن يصيح بالمعزين متوسلا وراجيا بحرارة:

- انتظروا العشاء

فصاح به أبو طيرة:

- أتريدنا أن نتعشى وعمدتكم يبني عزه عند المأمور الجديد.

** **

كان مقدم المأمور الجديد صدمة قوية لأهل الحارة ففي أول يوم سفه مظاهر الحزن التي أقامها أهل الحي على موت رجل لا يعرفون عنه شيئا سوى أنه كان مأمورا وتناقل الناس قوله:

- إن هذا النفاق لن يمنعني من تنفيذ ماعزمت عليه، فأبوشايب كان رجلا سهلا استغله القاصي والداني في العبث والاستهتار

وتناقلوا رفضه استقبال أعيان الحارة حين جاءوا مباركين ومرحبين به، وزادوا أنه أغلق مكتبه عليه، وأمر جنديا بطردهم من غير أن يكلف خاطره برؤية من جاء.

كذب العمدة فيما بعد هذه الأقاويل وادعى أن المأمور كان متعبا من السفر فشكرهم ووعدهم أن يستقبلهم في داره، لكن هذا التكذيب عمق صحة الرواية التي تناقلها الناس وزادوا فيها ما شاءوا الزيادة.

كل الأقاويل التي صاحبت مجيئه كانت أهون كثيرا مما أحدثه خلال تواجده في المركز، فقد قام بسجن خمسة عشر رجلا من أبناء الحارة لمشادات متفرقة حدثت بينهم لم تكن في السابق تستوجب السجن وغالى في صرامته حين أودع بكري بن إسماعيل البنا السجن العام، فبكري هذا لم يتجاوز عمره عشر سنوات وفى شجار شج هامة زميل له ومع رؤيته الدم المنسكب على جبين يوسف دحدوح لم يتحقق أو يسمع مقولة بكري فيما أحدثه حيث سارع بإحضاره وجلده بنفسه وأودعه السجن، وكانت مثل هذه الفعلة في السابق تستوجب جلدتين أو ثلاثا من عصا العمدة وعندما أراد العمدة أن ينهي هذه المشكلة كما اعتاد زجره المأمور بغلظة:

- هذا ما كنت تفعله في السابق وعليك من الآن أن لا تسبقنى برأي.

خشي أهل الحارة على أبنائهم من أن تؤدي بهم شقاوتهم إلى داخل

السجن وهم لا يزالون صغارا على تلك الأجواء التي يمكن لها أن تفرخ مجرمين في سن مبكرة ضاربين مثلا ببكري وعبدالله الفسيني اللذين تحولا إلى مجرمين رغما عنهما، ولهذا كان الكثيرون يتسامحون فيما بينهم دون أن يوصلوا مشاكلهم إلى باب المأمور، وهذا ما حدث لشاكر المناديلي حين تنازل عن كسر قدم ابنه أنور من قبل حسين أبي موسى فقد خشي على ابنه من أن يقذف بالسجن.

ولم تكن صرامة المأمور إلا بداية العصيان حيث تفلت أشقياء الأحياء من أسر الجميل الذي كان يطوقهم به محمد أبو شايب فقد استصلحهم وعفى عنهم مرارا فكفوا عن جرائمهم مختارين بعد مواقف عديدة أخجلتهم من عفوه وكرمه معهم، وكانت بداية الشرارة لهذا العصيان حين حبس الثعلب لسباب تبادله مع خميس حين كانا يقفان في البيزان أيهما يسقي الأول ولمكانة خميس فقد قدمه شيخ السقائين على الثعلب فلم يكن منه إلا أن شتم الشيخ وخميس معا فأشهدا عليه الحضور واقتيد إلى السجن وهناك أقسم على أن يحيل حياة المأمور الجديد إلى لحظات ندم لتعيينه في هذا المركز.

وازداد سخط أهل الحي على المأمور لأسباب عديدة منها:

* تفلت اللصوص وانتشار السرقات في كل مكان
* غطرسته وإهانته لأعيان الحارة
* تربصه بالنساء ومحاولة معرفة أسمائهن
* تعديه على أملاك الآخرين
* سجن الكثيرين وتحويلهم إلى مجرمين
* إيغار صدور رجالات الحارة واشعال فتيل الخصام فيما بينهم
* غيابه المستمر وعدم اهتمامه بما يحدث
* إطلاق يد عمد الأحياء وحثهم على استخدام العنف

كان مقدم المأمور خالد أبي العمايم صدمة للجميع لكنه كان بالنسبة لأبي مريم كارثة جعلته يرتعد ويفكر كثيرا في العودة للترحال.

ترميم لحكايات مقدم خالد أبو العمايم

ذهبت إلى حي الهندامية، كان حيا بائسا، وفي شوارعه الضيقة تتأكد أن الموت يقف قريبا من الهامات،

إن الناس أقرب للشر حين يجدون الأيادي تتدافعهم للأزقة المعتمة، كان منظري مدعاة للريبة، ولم أكن أملك شيئا يطمئن من أستدرجه للحديث، جميعهم ظنوا بي الظنون ولم أصل لحكاية أبي حية إلا بشق الأنفس، وحين وقفت لرؤية مها كادت رقبتي تطير.

إنني مصاب بداء الخسة، فمها صورة أخرى لآمنة،

إن مصيبتنا ظننا أن المرأة تقع فريسة هوانا بمجرد

أن ننظر إليها. .لقد أفسد الاثنان – علي – حياتي.! !

7

أحس المخمورون أن ليلهم لن ينتهي.

كانوا يتحرجون من تلك الأقدام العابرة إلى مجلسهم، فكلما أمعنوا في الشراب أمعنت تلك الأقدام في جس الطرقات النائمة، والسعي إلى إيقاظ ظلمتها بالأتاريك أو الفوانيس، فتتحول الأزقة إلى ظلال كبيرة لأشخاص قذفوا أبصارهم خلف ذلك الضوء المتكسر على جنبات الجدران المائلة.

لأول مرة تتخلى الحارة عن اعتصامها بالبيوت ويخرج شبابها يجوبون الطرقات حاملين صفائح السمن الفارغة وبيد كل منهم قضيب حديدي أو عصا قصيرة غليظة لقرع تلك الصفائح المثبتة على الخواصر.

هذا التجوال أحال ليل المخمورين إلى يقظة دائمة، وعكر أمزجتهم مما حمل البعض منهم على القفز إلى داخل الأحواش الفارغة وقضاء الليل في منأى عن تلك الأقدام المتقاطرة.

وظلت مجموعة عبد الله الفسيني في برحة استقرت خلف مرمى الحي ترشف قواريرها بضيق وقرف فالخمر لم يجر في الأوردة إذ الحواس مستفزة من قرع وأصوات تلك الأقدام المبثوثة في كل جنبات الحارة.

كان أبو مريم كعادته يجر قدميه بين تلك الأزقة الملتوية، متأففا ومتضايقا من هذه الأقدام التي تعكر سيرته، حينها تأكد أنه قد شاخ ولم يعد يكترث أحد

به، فقد وصفه أحد الشباب الجائلين بأنه حصان سئم الركض وحن إلى عيشة البغال تلك العيشة الهادئة التي تبدأ بالمنافحة وتنتهى بالتبول في الطرقات النائية.

أحس أنه لم يعد مهابا كما مضى، فكان يذرع الشوارع وقد تدلت على صدره صفارته النحاسية التي جلبها له خوليو اليوناني - الذي ارتبط معه بصداقة هامشية حين كان يتردد على سوق الخاسكية - في حفل الشرطة الذي أقيم قبل سنوات خلت، اعتراه شعور بالمهانة حين كان يتحدث مع العمدة:

- لن يجرؤ أي لص على دخول الحارة بوجود كل هؤلاء الشباب، ومن الأفضل أن نصنع كمينا للصوص الليل

- كمينا؟. . وأين الرجال الذين يمكن أن أعتمد عليهم؟

فضرب أبو مريم صدره بيده:

- اعتمد علي

رمقه العمدة محتقرا ورفع يده في اتجاهه:

- أنت! . .أنت تذكرني بالكلب إن رموك نبحت وان كفوا عنك نبحت. . .

فتح أبو مريم فمه على اتساعه وقبل أن يتحدث كان العمدة قد واصل حديثه: . . . .لا أعرف كيف طاوعت تلك العقول الحمقاء واعدتك للخدمة معي. .هيا اذهب والحق بالشباب وساعدهم بأي شيء يطلبونه منك وان أردت أن تنام فلا بأس فبسبب نومك نزل علينا لصوص الليل، هيا اذهب

ترك (المركاز[7]) وهو لا يكاد يصدق ما يسمع، وتشاجرت الوساوس

---

(7) المركاز: مكان يقع خارج البيوت توضع به كراسي خشبية توضن بالحبال مستطيلة الشكل يقتعده الرجال، يتبادلون فيه الأحاديث وأخبار الحي، وفي كل حي عدة مراكيز أشهرها يكون مركاز العمدة. تقال فيه كل الأخبار الشاردة والواردة وهو متنفس رجال الحي.

وظهرت المراكيز بعد ان استترت البيوت بجدرانها ولم تعد الحياة تليق بشيء سوى أخبار يرددها الرجال كما كانت تفعل النساء حينما لا يجدن من ينوش ظهورهن اللينة. =

داخله وإن بقي هاجس كبير يلوكه بصوت مسموع:

- أحقا لم أعد أصلح لشيء؟

هتف لنفسه بهذا الهاجس مرارا، وأخذ يلوكه في الأزقة التي عبرها.. فيما كان الظلام قد استشرى وامتد ليطال تلك البرحات الواسعة التي لم تعد مصابيح البلدية المعلقة في الزوايا قادرة على إفصاح عجمته.

فكر بإطلاق صفارته لكنه تراجع وتصور أن مثل هذا الفعل قد يقود الشباب الجائلين إلى الضحك والاستهزاء وإشباعه بما لا يطيق من نعوت، فتراجع وسار بخطوات متثاقلة بين الشوارع الملتوية.

مضت الليلة الثالثة وهو يسير في الأزقة وفي كل منحنى يجد شابا يحمل صفيحة بيده وباليد الأخرى قضيبا، غالبا ما يجدهم منكمشين في الزوايا أو يسيرون في محاذاة الجدران مختفين خلف فحم صبغوا به وجوههم.. سخر من هذه الفكرة:

- ما الذي يمنع اللصوص من القيام بالدور نفسه، عندها ستكون مهمتهم ميسرة ولن يشك أحد بهم

أضحكه أحد الشباب العسس حينما وجده في مكان موحش اصطلح على تسميته ببرحة الجن حيث كان الشاب يرتعد خوفا وحين لمحه صاح به:

- أرجوك أريد أن أعود فآنسني حتى أبلغ بيتنا

- ألم تخرج للعس؟

- بلى ولكن هنا توجد حركة غير عادية

فقال أبو مريم:

- ألا تعرف أن هذه برحة الجن

جفل الشاب واقترب اكثر من أبي مريم:

= معلومة ذكرها العريفة وأضاف كلاما كثيرا لم أحبذ تسجيله وقد روى هذه المعلومة حينما داهمه الحزن وتركه غصنا يابسا يغرى كل الأيدي بكسره، حدث هذا بعد أن تم عزله من منصبه ولم يعد لديه ما يذكره بماضيه سوى شومه كان يدور بها الحواري للقبض على أبي حية احتفظ بها ليتذكر انه كان قاب قوسين أو أدنى من العمودية.

- أعرف ولكني كنت في تحد مع مجموعتي على أن أعس في هذه الناحية
- وماذا وجدت؟
- لم أستطع أن أغادر مكاني فكلما أنصت سمعت عواء وضوضاء وحبالا تمسك رجلي
- ربما يكون لصوص الليل من الجن فلماذا لم تقرع صفيحتك؟
- خشيت إن أنا قرعتها أن يخسفوا الأرض بي.
فرد أبو مريم عليه مضخما الأمور:
- أن الجن لاترحم من يؤذيها
- أنا خائف
فزجره أبو مريم:
- أفا على الرجال ماذا سيقول عنك أصحابك، اكمل عستك
وتحرك من أمامه، فصاح الشاب:
- أرجوك لا تتركني
فغالب أبو مريم ضحكته، وأصدر صوتا آمرا:
- إياك أن تترك مكانك. . أفهمت؟
- والله لو تركتني فسأضرب صفيحتي وليكن ما يكون
فاستملح أبو مريم الفكرة وجذب الشاب وسار به إلى بيته حتى أوصله موصيا إياه:
- إذا كنت خائفا فإياك أن تعس بعد هذه الليلة
- لن أخرج بعدها أبدا
فودعه مبتسما وفكرة قرع الصفيحة لا تزال تلوح في مخيلته بإصرار فشعر حيالها بشيء من الهدوء، واستنشق الهواء القادم من البحر مرتاحا وتحرك إلى صندقته، وافرغ صفيحة كان يحتفظ فيها بالماء وحمل قضيبا معدنيا ومسح يده بقعر القدر الخارجي الذي لم يغسله منذ أن استخدمه ولطخ وجهه وركض إلى أن بلغ مرمى الحارة وقرع صفيحته بكل قوة، فجاوبته طرقعات من أمكنة

مختلفة وتراكضت الأقدام وأخذ ضجيج طرق الصفيح يتعالى ويصم الآذان، وتقافزت النساء صوب المناور وأيقظن الليل بزغاريد ملتهبة.

ما رواه أبو مريم للراوي عن قصة الصفائح

من أسرة رقيقة الحال نموت، كنت زهرتهم التي زرعوها على سياج جدارهم المهدمة، وقبل أن يستعدوا لوضعها على عروات قمصانهم الحائلة كنت ذابلا داخل زنزانة ضيقة.

فهل نحتاج إلى زهور بعد الآن؟

بدأت معاناتي بكلمة وتشابكت حتى لم أعد قادرا على فصل الكلمات التي تفوهت بها، وفي الحالات كلها كنت أجد السجن أرحب وأحنى على التائهين في هذه الدنيا.

آه من يعيدني إلى السجن؟

8

لم تؤدى صلاة الفجر هذا الصباح.

في زوايا الحارة كانت مصابيح البلدية ذاوية، وضوؤها الشاحب ينزو بالنزر اليسير مكسبا بقعة صغيرة توهجا خابيا لا يقوى على هش ما تبقى من ليل معتم.

النساء كن ينصتن إلى أي صوت يمكن أن يوصل صوت حسن المؤذن إلى مسامعهن لكن الطرقات كانت مقفرة إلا من بعض الكلاب اللاهثة التي سرعان ما تتوراى بين تلك المنحنيات الضيقة.

مع حلول وقت أذان الفجر الأول أصغى أهل الحي إلى صوت حسن الهندي فلم يسمعوه، وظن الكثيرون أن النوم سرق أسماعهم، ومن كان يحمل ساعته (الصليب) كان يتطلع إليها بين الحين والآخر فيلمح عقاربها تركض بهمة ومثابرة فيعدل عنها وينصت لعله يسمع المؤذن لكن الوقت مضى من غير أن يرتفع صوت الآذان، فتقافز الرجال من مخادعهم واتجهوا إلى المسجد وكل منهم يلوم حسن المؤذن الذي لم يؤذن الأذان الأول واتهمه البعض

بالتخاذل، ومضوا صوب المسجد ولم يعودوا.

قالت إحدى المسنات المعلقات على الشيش وهى ترمق الطرقات الخالية من المارة:

- يقولون إن صباح يوم القيامة لا تقام فيه صلاة

واستعاذت بالله ثلاثا، ولم تستجب للكزات ابنتها التي تجاورها صامتة بل أردفت مصرة:

- نعم نحن في آخر الزمان

وصاحت في ابنتها الصغرى:

- احضري لي السجادة ليكون آخر عهدي بهذه الدنيا الفانية ركعتين

ونزلت من الشيش حاضة بناتها على الوضوء والصلاة..

وقد ظن من لم يذهب إلى المسجد أن حسن المؤذن نفذ تهديده بترك مئذنة المسجد خاوية إن أمعن أهل الحارة في السخرية من آذانه.. فقد كان يمتلك صوتا عذبا إلا أن عجمته تجعل نطقه لبعض الحروف مضحكا.. لكن هذا الظن تلاشى حين صاحت زوجة حسين نجار:

- لو ترك المئذنة لنادى للصلاة شخص سواه

وقد تمنت إحدى العانسات لو أن موتا جماعيا حل بذكور الحي ليرحمها من وسواسها الدائم بوجود فحل سوف يرتقي أنوثتها ويفجر سدودها الصلدة.

وكلما تنفس الصباح ازداد قلق النساء ودفعن بآخر الرجال للوقوف على خبر من ذهب، فيهبون راكضين ولا يعودون.

كانت عيون النساء تنسكب من الرواشين هلعة وكلما مضى الوقت اتسعت بحيرات الخوف في قلوبهن فيسدلن عليها الاحتمالات لكن صوتا واحدا جعل تلك العيون المحدقة في الشوارع الضيقة تستعيض بأصواتها المولولة حين صاحت ليلى بنت اليوسفي:

- ربما قتلهم لصوص الليل

وحينما على نحيبهن وجدن أبا مريم يجري في تلك الطرقات صائحا:

- أين هم؟

فتصايحن:

- قتلهم لصوص الليل

ارتبك أبو مريم ورد منفعلا:

- قتلوا من؟

- رجالنا الذاهبين إلى المسجد

شعر بالغيظ وانحنى على الأرض وسفاهن بالتراب:

- قبحكن الله من نسوة.. عدن إلى مراقدكن

انبرت له زوجة حسين نجار:

- قبحك الله من عسة تأمرنا بالعودة إلى مخادعنا وأزواجنا لا نعرف ما حل بهم

- يا امرأة زوجك شبر ولو أمسك به أحد لسقط من جيبه

شعرت بالإهانة فرمته بحذائها لتتوالى عليه الأحذية والصحون فيما كان يحاول الاحتماء بصندقة غنم الجابري وهو يلعن النساء في كل كتاب بينما صراخهن يزداد لتتحول الحارة إلى أصوات مآتم مؤجلة.

ما رواه حسين نجار نقلا عن زوجته في ليلة تغيبه

كنت أرغب في سرد حكايتي لكم، وعندما التقيت بهذين البائسين، وجدت أن حكايتهما أحرق وأكثر لوعة مما أنا فيه، فخرجت أبحث في ماضيهما لعلني أقدم تفسيرا منطقيا لما حدث، وان كنت أشك في ذلك فالماضي غرف مغلقة على حرائق بالية..

- هل حقا كنت راغبا في سرد حكايتهما أم أنني أصبحت أسير هوى لامرأة خرافية، وماهذا البحث إلا سببا لرؤية عينيها. ؟!

**** ****

أومن أننا في أحيان كثيرة نكون أسرى لعواطف مبتذلة تحي في داخلنا ونظن أنها هي الحقيقة الوحيدة الموجودة بينما هي كتلك الحقائق النتنة التي تمضغنا لتقربنا من الموت بعجلة. .نعم هناك حقائق نتنة، لكن من يجرؤ على قولها؟

9

تصايحت الديكه من أمكنة متفرقة، فدبت الحياة في أوصال بعض الأزقة التي تنبهت إلى وقع أقدام المصلين المتجهين إلى المسجد، وارتفع الأذان شجيا هادئا خارجا من حنجرة حسن الهندي الذي كان يتمايل فوق مئذنة مسجد (أبو عرب) محاولا إيصال صوته الرخيم إلى أبعد مدى، وقد تنافر حمام المسجد وحط على شجرة النبق المجاورة للمئذنة، وتقافزت القطط راكضة في الأزقة المنزوية والبعيدة عن طرق المصلين، فيما تقاطعت جموع الذاهبين لصلاة الفجر، مستفتحين يومهم بأدعية مأثورة:

- أصبحنا وأصبح الملك لله. . .

- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم. . .

- يا مالك الملك أفتح لنا أبواب فضلك ويسرنا لما تحب وترضى يا الله

لا يزال الغبش متخدرا في جنبات الطرقات، بينما كان إبراهيم الأعمش يحاول أن يتغلب على عمشه بالسير في محاذاة الجدران لامسا إياها حتى لا يتعثر بحجر أو بأحد المساطيل المقذوفين في تلك الأزقة، وحينما أحس يدا تلامس كتفه من الخلف صاح:

- لعنة الله عليك يا أبا مريم. . ماذا تريد؟. . ألم يكفك ما فعلته البارحة

ليسمع ضحكة ندية ترتفع من خلفه:

- أنا حسين نجار يا عم علي

فاعتذر منه بلطف ومد له يده، مردفا:

- حسبتك حمار العمدة. . أرأيت ماذا فعل بنا ليلة البارحة

- يقولون إن العمدة أمره بذلك

- العمدة. . لم يعد كسابق عهده

- الكبر يا عم إبراهيم

- ومن أجبره على تحمل هذه الأعباء كلها فليتركها لشخص آخر

- من يترك السلطة؟. .إنها ابتلاء
- والله لقد نويت أن أصلّي في البيت ولو لم أسمع صوت حسن المؤذن ما خرجت. . كنت أخشى أن يعيد ذلك الغبي فعلته
- يقولون أن المأمور غاضب
- وما فائدة الغضب
- نعم ما فائدة الغضب، ثم أين هو هذا المأمور أيامه كلها خارج المدينة؟ وإذا عاد زدنا بلاء.
- يقولون أمه مريضه أجارك الله وهو لا يقدر على فراقها
ضغط ابراهيم الأعمش على يد حسين نجار وضحك ضحكة قصيرة:
- وهل تصدق أن لهذا الرجل قلب حنون
وزيادة في التهكم أردف:
- وهل يستطيع بطن حمل هذه الصخرة تسعة أشهر.
- هذا ما سمعناه
- دعك مما تسمع، فالعين أخبر من الأذن
وتحسر بآهة طويلة:
- الله يرحم أبا شايب
فأمن حسين نجار، متسائلا:
- ألم يمسك العمدة باللصوص؟
- من يمسك من؟
وفي إحدى المنعطفات التقيا بياسين السمكري وسلما عليه وواصلوا السير في اتجاه المسجد فيما كانت بعض الأجساد تترنح في الطرقات، تغالب سكرتها الأخيرة، فغمغم ياسين السمكري:
- الله يرحمنا ويهديهم.
فعقب النجار غاضبا:
- هؤلاء أظل من أن يهتدوا
فاستغفر الأعمش بصوت مرتفع وردد:

- الله أرحم وأكبر، ما يدريك أن خطواتهم المتعثرة تستقيم في اتجاه الجنة. . .

رواية الأعمش عن أيام السرقة

من هناك نأتي ونضيع زمنا في دهاليز الحياة لكننا بالضرورة نلتقي
عند مصبها النهائي، أوه ما أجرؤنا على اقتراف الآثام! !
- كيف سنقف أمام بعضنا عندما ينكشف الستار؟!
وماذا سأقول لهما حين يعلمان أنني كنت أتوق إلى حبيبتيهما؟!

10

ما أن يهطل الليل حتى يخرج أهل الحي لجمع أغنامهم المبعثرة في الأزقة ويعودون بها إلى منازلهم، وقد يخلون إحدى الغرف لكي تنزل بها تلك الأغنام بعد أن يوصدوا كل الأبواب، وبالغ بعضهم في الحرص فربط أغنامه بأحد أطرافه، إلا أن كل هذا الاحتراس لم يمنع لصوص الليل من إعادة الكرة وسلب ما تصل إليه أيديهم من غير أن يتمكن رجال العسة من القبض عليهم.

جن جنون العمدة من هذه السرقات المتوالية والمنقطعة الأثر، وصاح في رجاله:

- كل ما أخشاه أن يسرق اللصوص حريمنا وأنتم نائمون

ولم تفلح أيمانهم المشددة في تهدئة غضبه فكلما أقسموا أنهم لم يلمحوا أحدا يقود غنمة أو يحمل دجاجة أثناء دورياتهم، يزداد إحمراره وبصاقه ولا يتورع عن لعنهم وإخراجهم من (مركازه) متوعدا إياهم بأشد العقوبات إن لم يعودوا بخبر أولئك اللصوص الذين أحالوا الحي إلى مال سائب.

كان أول المسروقين حسين أبو موسى الذي اكتشف السرقة في وقت مبكر، فبعد صلاة الفجر توجه إلى صندقة الغنم متفقدا ومقدما له خبزا يابسا جمعه من المخبز المجاور فوجد أن أغنامه ليست في أمكنتها، بداية لم يكترث للأمر فقد ألف هذا الوضع حيث تقوم أغنامه بدفع الباب والخروج إلى مرمى الحارة لتقتات ما تجده في طريقها، ولم يكن ليحدث هذا في الأيام الماضيات

عندما كان يغلق عليها باب الصندقة ويحتفظ بالمفتاح في مكان لا يعرفه سواه، وفى إحدى المرات انتدب مع إحدى الفرق الطبية للتطعيم في القرى المجاورة فتغيب عن البيت ستة أيام ولم يتمكن أهله من إطعام الأغنام فماتت في أمكنتها ومع موت الأغنام طلق زوجته ووصفها بالغباء، وأكد لو أنها امرأة حاذقة وخائفة على ماله لكسرت باب الصندقة وأطعمت أغنامه، وبعد هذه الحادثة لم يعد يغلق باب الصندقة مهما كان السبب، مرة اكتشف أن الصبية يأتون في الصباح الباكر ويحلبون ضروع الأغنام ويمضون ففكر في إغلاق الصندقة لكنه تذكر خسارته الأولى وطلاق زوجته وخشي أن تتكرر الحادثة بحذافيرها لو أنه أعاد الكرة، فقرع أبواب جيرانه وتوعد وأقسم على كسر رجل من يراه يقترب من ضروع أغنامه وأكد قسمه بأن الكسر سيكون من مفصل القدم حتى لا يقوم صلب الجاني، ونفذ هذا التهديد صبيحة اليوم التالي فبعد أن أدى صلاة الفجر أسرع وربض داخل الصندقة في انتظار أولئك الصبية الذين حرموه حلب ضروع أغنامه وعندما سمع صرير مزلاج الباب فز من مكمنه فتنبه له الصبية وتفرقوا راكضين في منحنيات الحارة وكان أبو موسى يركض خلفهم شاتما ولاعنا آباءهم ويده تلقف الحجارة من الأرض وتقذفهم بها كيفما اتفق، وفي ركضه المتباطىء لم يتمكن من اللحاق بهم مما زاد من تهيجه فأخذ يصرخ:

- الكلاب سرقوا أغنامي

ويزداد صرير صوته وحدته كلما تذكر قسمه الذي دلقه على مسامع أهل الصبية فنشط في مطاردتهم وقذف الحجارة بقوة وعشوائية، وفي إحدى رمياته شج هامة أنور المناديلي فتوقف الطفل مرعوبا من الدم الذي أخذ يسيل من رأسه غزيرا فلحق به وأمسكه من فنلته الحائلة فتمزقت بين يديه ليشده ويحكم الإمساك به.

كان غضبه فائرا فانهال على الصبي يضربه على ساقه بأي حجر تصادفه يده وعلى صياح أنور تجمهر الناس وحالوا بين الطفل وغضب أبي موسى وانتشلوا الصبي بقوة من أسفل قامته بعد أن برك عليه وهشم ساقه. كان هائجا فتدافعوه مرارا فنهض عن جثة الصبي بصعوبة وزبد شدقيه يتطاير وقد تهيأ للمشاجرة مع كل من نهره، فجذبه عزيز قدور من كتفه وهزه بعنف:

- ألاتخاف الله في الصبي. .انظر إلى دمائه
- والله لابد من كسر قدمه من المفصل
- انظر إلى قدمه فهو لا يستطيع الوقوف عليها
- سيحرم بعدها من مد يده إلى مال غيره
صاح أنور من بين نشيجه:
- سأجعل أبي يبث كرشك
- أبوك يا ابن الحرام
فرد أنور الشتيمة:
- لا يوجد بالبلد ابن حرام إلا أنت
فازداد سعاره لسماع رد الصبي وتفلت من يدي إسماعيل البنا وعزيز قدور وانكفأ على قدم الصبي يزيدها إيلاما وصائحا:
- أنا ابن حرام يا ابن الحرام
ولم تفلح معه التوسلات في ترك الطفل فجذبه عزيز قدور صائحا:
- لو أنت رجل من ظهر رجل اقترب منه الآن وسأجعل عجزك تحملك ما تبقى لك من عمر.

وعندما نظر إلى ضخامة عزيز اكتفى بالصياح وسب الحارة بمن فيها واتهمهم بتفريخ لصوص الغد. .كان أنور قد أصيب بأضرار فادحة فبالإضافة إلى شجه الغائر الذي استقر أسفل جمجمته أصيبت قدمه اليسرى برضوض متعددة والتواء في الكاحل، لم يشف منه فاصبح يجر قدمه جرا لتصبح نبزته أشهر من اسمه فقد أطلقوا عليه الصبية لقب الأعرج لكنهم سرعان ما استبدلوه بأبي سحبة كي لا يتداخل مع لقب محمد ناصر الأعرج الأشهر منه.

ولم يجرؤ ذووه على الشكوى بعد ادعاء حسين أبي موسى أن غنماته سرقت، فبعد أن عرف الضرر الذي ألحقه بالصبي، أقسم أن غنماته نقصت شاتين وأنه لمح أنور وهو يجرهما وعندما صاح به ناولهما زميله الذي واصل الهرب بهما، وأخذ يتوعد بالذهاب إلى المركز لحبس الصبي أو جلب شاتيه الناقصتين فتوسط أهل الخير في فض هذه المشكلة، فطلبوا منه أن يستعيض الله فيما ذهب من أغنامه مقابل أن يتنازل شاكر المناديلي عن الضرر الذي لحق ابنه

وهكذا خلص نفسه من مشكلة كان من الممكن أن يسجن بسببها أو أن يدفع (رضوة) لأهل الصبي، وبهذه الحادثة أصبحت صندقة أبي موسى مأمونة من تطفلات الصبية الصغار.

بعد هذه الحادثة بأسبوعين سرقت جميع أغنامه قبل دخول المساء وظن أن المناديلي من قام بهذه الفعلة انتقاما لابنه لكن مجموعة نفت التهمة عن المناديلي مدعين مجالسته إياهم في لعبة الضومنة طوال العصرية، لكنه لم يقتنع بما قالوه، فنهض المناديلي ودعاه لتفتيش بيته، وتحفز أبو موسى لهذه المهمة كان أثناءها يدور كالملدوغ صاعدا السطح ومتفقدا بيت الدرج والدهاليز، وعندما لم يعثر لها على أثر صاح مهتاجا:

- لابد أن تخرجوا أغنامي من تحت الأرض

فانبرى له مبروك العجلاتي محقرا:

- هلكتنا بأغنامك اذهب وابحث عنها بدل أن تتبلى على الناس

فتسابا لبضع الوقت، وتركه أبو موسى متوعدا:

- سأملأ الشارع كله مسامير حتى لا تسير لك دراجة

فبلل مبروك إصبعه الوسطى وأطلقها في الهواء، فأقسم أبو موسى أنه سينتقم منه عما قريب، وانطلق باحثا عن أغنامه بين الأزقة وعند مرمى الحارة، وقضى تلك الليلة يدور الأزقة وامتدت قدماه باحثا في الأحياء المجاورة دون أن يهتدي إلى ضالته، وعندما يئس طرق باب العمدة مع أذان الفجر وتصايحا لوقت غير قصير اتهم أبو موسى العمدة بعدم الاكتراث بمصالح أهل الحي فما كان من العمدة إلا أن دفعه من أمام بابه صائحا به:

- اذهب واشكني لمن تريد؟

ولأول مرة يشعر أبو موسى أنه أهين، فوقف بعد صلاة الفجر خطيبا يستحث الناس للبحث عن أغنامه، ويحرضهم على العمدة، فنهض أحد أعوان العمدة وأغلظ له القول واختتم حديثه بتذكيره أن المساجد وضعت للعبادة لا للبحث عن الغنم السائب مما جعل المصلين يتبادلون الابتسام على أبي موسى الذي احتار وترك المنبر وهو يضرب كفا بكف، مما جعل شاكر المناديلي يتشمت به ساخرا:

- لو كسرت رجل العمدة ربما أحضر لك أغنامك

ولم تمض ليلة واحدة على سرقة أغنام حسين أبي موسى حتى سرقت أغنام محمد الشرقي، وتوالت السرقات من غير أن يتمكن أحد من الاستدلال على من يقوم بتلك السرقات وتطورت إلى سرقة البيوت فقد استيقظت زوجة عيسى غريب على شبح يعبث بسحارتها ولم تتمكن من الاستغاثة بزوجها الراقد في غرفة مجاورة خشية أن يصيبها مكروه من السارق الذي يحمل مدية دقيقة، فغطت وجهها حتى اعتلى اللص الجدار فأطلقت صرختها التي لم تكن كفيلة باللحاق باللص، وتبين أنه سرق ذهبها المكون من اسوارة وحلق وعندما أدلت بأوصافه لزوجها الذي كلفه العمدة بذلك. .كانت الأوصاف تنطبق على الكثيرين من أهل الحي مما حمل العمدة على شتمها في سره من غير أن يجرؤ على الإفصاح عن هذه الشتائم التي سالت في مخيلته متدفقة.

حينما لم تعد الحارة في مأمن من السرقات تبرع الميسورون من أهل الحي بتسوير جدران بيوت الحارة بالزجاج المهشم لمنع اللصوص من الوصول إلى داخل المنازل. .ولا أحد يعرف كيف تمكنوا من القفز داخل المنازل من غير أن تعيقهم تلك الشظايا الزجاجية البارزة على هامة كل جدار، مما جعل الشيخ أباعيشة يقسم أن البلد سيأكلها الغرباء ذات يوم من غير أن يحتاجوا القفز فوق الأسوار. .

وأمام هذه السرقات المتوالية تنادى شباب الحي للخروج للعس بدلا من رجال العسة الذين يتغطون بالليل وينامون أينما كانوا وقد اتفقوا على أن يتناوبوا الخروج فيما بينهم وأن يخرجوا في دفعات يمشطون الأزقة، ومن هذا اليوم ظهرت عادة الخروج ليلا لدى الشباب، وأصبح الليل لا يخلو من أصواتهم وتندراتهم، وقد بدأت مهمتهم جادة ومع مرور الأيام فترت واكتفوا بالجلوس جوار منازلهم يتبادلون الحكايات ويروون ما يتحرزون من روايته أمام من يكبرهم سنا، ولم تبرد همتهم إلا بعد أن طرأ على خروجهم تعديل أدى إلى فضيحة تناقلتها بقية الحارات بسخرية لاذعة، ففي أيامهم الأولى خرجوا متيقظين ومتربصين بأي شخص غريب يعبر أزقتهم، وأكثر من مرة تراكضوا خلف أشباح كانت تظهر لهم من على بعد ويعودون من غير أن يتمكنوا من

إيقاف تلك الأقدام الراكضة، وخشي العمدة أن يتمكنوا من القبض على اللصوص فلا يكون له دور يذكر فجاءهم واقترح عليهم أن يحمل كل منهم (صفيحة) وقضيبا معدنيا وأن ينطلق كل منهم في طريق وإذا لمح أحدهم شخصا وشك في أمره طرق (صفيحته) بالقضيب الذي يحمله منبها أقرانه ليتراكضوا محيطين بمن تدور حوله الشكوك، ولكي يحكم خطته أمرهم بالرد على سماع قرقعة الصفيحة بثلاث طرقات متوالية كي لا يخذل من يجد نفسه أمام اللصوص.

وفى تلك الليلة لم تنم الحارة فبعد منتصف الليل تعالى ضجيج الصفائح في كل الأزقة، وتراكض الناس في كل الاتجاهات وكلما وصلوا إلى الصوت لا يجدون أحدا، مما حمل البعض للذهاب إلى المركز وإخبار المأمور بتلك الفضيحة التي تسبب في إحداثها عمدة الحارة، لينتقل إليه مباشرة ويكيل له من الشتائم ليتمنى أن تخسف به الأرض قبل سماعها.

ما رواه المنديلي عن أيام السرقة

- هل صحيح راودها عن نفسها؟

*** الناس يخافون أن تظهر سوءاتهم، لكنهم ببساطة يخرجون لمشاهدة سوءات غيرهم ويتلذذون بذلك العري.**

أرعبتني هذه الجملة حين سمعتها من أحد عجائز الحي حتى ظننته ينظر إلى أعماقي، فتركته ولذت بالفرار.

حدث ذلك حينما كنت استقصي أخبار مها المورقي

11

لم يكن يشغل بال العمدة إلا تلك الشتائم التي اندلق بها لسان المأمور من غير تقدير لخدمته الطويلة، أو مراعاة وجود رجاله من حوله، وكلما تذكر وقفته المتخاذلة تلك عض على شفتيه وضرب طاولته التي تجاوره بعنف، في أحيان تخرج وساوسه بصوت مرتفع، فيسمعه القريب وهو ينز كنبع متدفق:

- الناس مع العصا أينما تميل مالوا

وتزداد حرقته لذلك التحقير الذي ابتدعه المامور ناعتا إياه بنعوت لا تليق بالبهائم السائبة ليجعل كل من حضر ينفرط في ضحكة قصيرة أو طويلة من غير مراعاة خضوعه وعجزه عن مقارعته الشتيمة بشتيمة، اعترك داخله الكره لرجاله الذين تشفوا منه وأطلقوا ضحكاتهم مع من ضحك، وتمنى لو يستطيع تسريحهم من أعمالهم ليأتوا إليه متوسلين ومقبلين يديه وعندما تذكر أن الحبل لم يعد بيده وما عليه إلا هز الرأس بالموافقة أطلق زفيرا حادا وبصق عن يمنه:

- الزمن يمنح كل دابة حظا من العز

وقهقه بمفردة حينما تخيل المامور في هيئة حمار والكل يبتعد عن طريقه مبجلا ومقبلا الهواء الذي يستنشقه، كاد يستمرىء نسج الصور التي تطبب مزاجه لكن الوجوه التي بزغت في خاطره شامتة به عكرت دمه وأعادته لنفس اللحظة حينما كان المامور يحقره بينما كان الجميع يمعن في التشفي منه.

اقلع عن وساوسه وغليانه معا، وأخذ يفكر في وسيلة تخلصه من كل تبعات غضب المأمور، وكان أهم عقبة يفكر في اجتيازها العثور على لصوص الليل الذين تسببوا في إهانته وتحويله إلى أضحوكة في أعين الجميع ابتداء من المامور مرورا باصغر طفل بالحي، وكان على استعداد أن يمنح ماله لمن يدله على من قام بتلك الفعلة التي جعلته مسخا في عيون الكثيرين، ولا يزال يتردد على الأماكن والأشخاص عل أحدهم ينبئه بمن قام بخذلانه بالطرق على الصفيحة في تلك الليلة التي قسمت ظهره وجعلته في موقف لا يحسد عليه، تلك الخطة التي اراد من خلالها أن يكون له دورا في القبض على لصوص الليل فإذا بها تتحول إلى فخ يقع فيه كجرذ أعمى . . .وانتابته حسرة مباغتة كونه لم يحتط لمثل هذه الأمور من وقت مبكر.

في بادئ الأمر لم يكترث بهذه السرقات التي بدأت في البزوغ بصورة متناثرة جعلت أهل الحي يتحدثون عنها مستغربين وساخرين من المأمور بطرف خفي الذي أقسم عند مجيئه أن يكون خيرا من سلفه أبي شايب رافضا إتباع أسلوبه الذي وصفه بالمايع المتخاذل فأطمع أهل الحي في اقتراف ما يشاءون من غير رادع ومع تكاثر السرقات أرسل أهل الحي مندوبا عنهم لمحادثة العمدة فلم يمهله لأن يتحدث وصرخ في وجهه:

- وهل تريدونني أن أقف على بيوتكم

وبعد أن سرقت أغنام محمد الشرقي أخذ يتنبه ويتيقظ لتلك السرقات، خاصة وأن الشرقي نائب المأمور السابق وأحد جلساء المأمور الجديد، ولكي لا يبدو متقاعسا أصدر في اليوم نفسه أمرا لرجال العسة بالقبض على كل من يجدونه يسير في الليل، هذا الأمر الذي أدى في نهايته لأن يقف لأول مرة ذليلا يسمع الشتائم من غير أن يتمكن من الرد خوفا من ذهاب العمودية من بين يديه، ويفقد إرثا تناقلته الأسرة جدا عن جد، وربما تقود المأمور لأن يركن بالعمودية لأشخاص برزوا في الحارة مؤخرا ويفقد ابنه البكر هذا المنصب بعد وفاته لذلك تحمل كل تلك الإهانات كاظما غيظه تاركا الشرر يتطاير من بين أهدابه المحدقة بالأرض من غير أن يجرؤ على مد عينيه إلى وجه المأمور، ففي تلك الليلة خرج رجال العسة وليس لهم من هدف سوى الإمساك بمن يجدونه يسير في تلك الأزقة، وبسبب ذلك لم تقم صلاة الفجر حيث قبض رجال العسة على أناس كثيرين من جملتهم المؤذن والإمام ولم تفلح أصواتهم من ثني رجال العسة لأن يخلوا سبيلهم، وكان من ضمن الذين قبض عليهم حارس المأمور الشخصي وحامل مفاتيح مكتبه، وأدى ذلك لأن يظل المأمور واقفا أمام مكتبه إلى ما بعد الضحى سابا ولاعنا حارسه ومرسلا في أثره لكن أحدا لم يأت له برد يسكت غضبه، وعندما جاء العمدة ليتفقد المقبوض عليهم أصابه الهلع لرؤية تلك الأعداد الضخمة، وازداد حنقه حينما رأى بعض الشخصيات المعروفة في الحي كالمؤذن، والأمام، والفران، والفوال، والكناس، وحارس المأمور والمكلف بنصب وخلع مصابيح البلدية وجل أعيان الحارة ومجموعة كبيرة من الخمارين فلم يتمالك غضبه ولعن رجاله وهو يصيح بجنون:

- ألا تعرفون هؤلاء؟

فرد أبو مريم بشموخ:

- بلى.. ولكن أمرك كان صريحا: القبض على كل من تجدونه يسير بالليل

كاد العمدة يجن فقذف عمامته وصر على أسنانه، ودفع رجاله بعصاته آمرا إياهم بإخلاء سبيل كل من تم القبض عليه وقام بنفسه بحل أوثاق أعيان الحي

وهو يسكب الاعتذارات ويقبل الأنوف واللحى ويتمنى منهم تجاوز هذا الخطأ الفادح الذي ارتكبه رجاله، كلماته كلها لم تجد من مستمعيه إلا التحقير والوعيد بالويل له ولرجاله، وكان متوقعا أن هذه الفعلة لن تمر بسلام، وكما توقع فلم يمض وقت حتى وجد المأمور يقف على رأسه صائحا:

- إن الخيول حينما تكبر يطلق عليها الرصاص، وأراك اشتقت لمضغ البرسيم في إحدى البراري من غير أن يزعجك ذباب الحظيرة

كانت كلماته كالرصاص، تعبر أذن العمدة التي انتصبت للأعلى كبهيمة لاحول لها ولا قوة سوى التوجس في مكانها واتقاء القادم بحذر وترقب، وقد جفل مرارا وحاول أن يوقف ذاك السيل من الشتائم إلا أنه خاف أن يفقد إرث آبائه لحظة كبرياء حمقاء فرضي أن يستقبل الشتائم وهو منصت هادئا وبلا أدنى اعتراض وكل ما كان يتمناه أن لا يقف رجاله مبحلقين فيه على هذه الهيئة الغبية وتمنى أن يرحموه ويغادروا المكان، ويبدو أن منظره الذليل أغراهم بالبقاء لإشباع رغبة دفينة في أعماقهم مما جعله يقسم على إذلالهم كما لم يذلهم من قبل، مرددا بأسى داخلي:

- الحياة قوي وضعيف وسوف أسترد كرامتي بإهانة الذباب الذي يحط على وجهي ببلاهة سوف أشبعهم ذلا

كان تلميح المأمور كفيلا بجعله يجفل كجواد نخس بميسم حمار، حيث لكزه بعصاته وصاح به:

- . . .عليك أن تهيىء نفسك لمجالسة نسائك بالليل والنهار، أو أن تهيء لضيوفهن الشاي والقهوة

هذه الجملة جعلت رجاله يهربون من صمتهم بكركرات بارقة مقتضبة، ليفقد صوابه

ويقذف أقربهم بحذائه ولم يتنبه لفداحة فعلته إلا حينما صاح به المأمور:

- أتجرؤ على تأديب أحد بحضوري

فطأطأ العمدة رأسه فيما واصل المأمور تحقيره:

- . . . .أتؤدب رجالك بالحذاء؟

- . . . .
- . . . . أولم يخلق الله لك لسانا؟!
- . . . .
- . . وهذه الفعلة تزيدني يقينا بأنك أصبحت أقرب إلى العطب. .أو تريدني أن أؤدبك بأسلوبك نفسه.

جفل وحدق في عيني المأمور وود لو أن لسانه يطاوعه للرد وفي محاولته تلك منحه المأمور ظهره ومضى بينما ظلت عيناه الكسيرتان الذابلتان تتبعانه، ولسانه يلهج بكلمات لم يتبين منها سوى:

- يارب البيت استر ما رأيت

وانطلق من ساعته إلى منزل الشرقي ليدخله وسيطا فيما بينه وبين المأمور ذاكرا له أن عمره الذي أفناه في خدمة الحارة لا يليق به أن ينتهي بهذه الصورة، ووعد أن اللصوص سوف يكونون مكبلين صباح الغد في زنازين المنطقة، ومضت أيام ولا تزال السرقات تتوالى من غير أن يقدم العمدة شيئا يذكر مما حمله لأن يجوب بنفسه الأزقة ليلا متفقدا كل الزوايا والأركان، ذاهبا إلى الخرابات مفتشا وممنيا نفسه بالعثور على ضالته هناك، وقد اخترق مسمار صدئ قدمه اليسرى في إحدى الخرابات فظل دمه ينزف فلم يتراجع وواصل البحث وعرج على الأحواش المتناثرة داخل الحارة ولم يعد إلى بيته إلا مع طلوع الصباح، وعندما أيقظوه في ظهيرة ذلك اليوم أخبروه أن اللصوص سطو على أغنامه في عز الظهر فلم يتمالك نفسه وأجهش بالبكاء غيظا، وانطلق كالمسعور يجوب الحارة لاعنا كل من يقطنها ومتهما إياهم بالتآمر على خلعه من العمودية.

ما رواه العريفه[8] عن أيام السرقة

---

(8) العريفه مساعد العمدة وينوب عن العمدة في حالات معينة. ويقول أبو النون أن نظام العمودية هو نظام تركي استقر في الحجاز عن طريق الحكم المصري المتصل بالأستانة آنذاك وثبته الأشراف كشكل من أشكال النظام الجزئي واستمر على هيئته وإن قل نفوذه كثيرا عما سبق.
وهذه المعلومة ليست دقيقة فقد أوردها أبو النون حين هم رجالات الحارة بإقالة العمدة عن منصبه أيام تعنته في إقامة سرداق مستقبل للموت أبي شايب.

في زمن الشعارات العربية، أو مايطلقون عليه المد القومي اخترت أن أكون في الصفوف الأمامية مدافعا عن حقوق هذه الفئات المسحوقة - كما كنا نصفها وربما استعرنا هذا الوصف من اليسار - وللأسف فإن هذه الفئة هي أول من يدهسك بقدميه حين يترك لهم الخيار بين الأمام والخلف، إنهم يحملون عقلية نخاس يمدحونك من أجل أن تباع بثمن باهظ، إنهم حشرات يجب أن لا نهتم بهم، هذا القول ليس مجانيا، ومن جرب سيكتشف هذه الحقيقة متأخرا.

- يا الله لقد ضاعت أجمل أيام العمر من أجل أوهام بنت أعشاشها في مرمى للقمائم وكانت تظن أن أحلامها تشقشق على رأس شجرة عالية.! !

نعم هذا ما حدث فقد كنا نشقق المدى بصراخنا بينما من ندافع عنهم لا يعرفوا كيف تكتب أسماؤهم. .أليس هذا هو الحمق بعينه؟

لقد انتدبنا أنفسنا للبحث عن طريق لا تحتاجه أقدامهم! !

** **

قالت لندن هذا الصباح شيئا يدمي القلب قلنا أنها مكيدة ولم يأنس هذا الظن في البال كثيرا فللأسف كانت الأخبار صادقة وناصعة كهذا النهار القائظ.

لكننا تواطأنا مع أوهامنا وسرنا كنعاج ملبين نداء صدى الصوت.

لقد امتلأت صدورنا بالهواء الرث ولن نقدر على استنشاق سواه.

12

وقف أبو مريم أمام العمدة ممسكا الثعلب الذي كان يتلوى ويحاول التملص من بين يديه فشدد عليه قبضته وجذبه من ثوبه و(فانلته) في آن واحد، كان الثعلب مربوعا ينتهي بأطراف دقيقة يقال أنه إذا أطلقها للهواء يسبق ظله، وقد روي عنه - فيما بعد - أنه مراوغ لا يستطيع أحد الإيقاع به في كلامه أو مسلكه.

كان العمدة يجلس في مركازه ولا تزال حوادث السرقة تعكر مزاجه، وبعد فضيحة الصفائح وحجز أعيان الحي وفشل رجاله في القبض على لصوص الليل لم تعد أمامه من حيلة تمكنه من القبض على هؤلاء الذين جعلوا

الجميع يسخرون منه ومن عموديته، فتوقع أن تكف يده عن العمل آجلا أم عاجلا، وأخذ يفكر بالاستعانة بعبدالله الفسيني ليقف معه في هذه المحنة لكنه تراجع خشية أن يضيف لمواقفه المحرجة ما يغضب المأمور وعندما وقف أبو مريم أمامه قائلا:

- هذا راس البلا

فز من متكئه وقبل رأس أبي مريم، لم يتوثق من الجاني فقد كان محتاجا لأي شخص يلصق به تهمة السرقات التي أحالت حياته إلى نكد لا ينتهي وحفر أخاديد من الخوف على أفول نجم العمودية من أسرته.

تناول شومته وسحب الثعلب من يديه بعد أن أحكم عليهما الكلبشات، واتجه صوب المأمور منتشيا.

كان يسير في طرقات الحارة متنحنحا ورافعا صوته:

- يا أهل الحارة لقد قبضنا على الثعلب فناموا من الليلة هانئين

وسرعان ماتناقل أهل الحي الخبر وتراكض الرجال والصبية خلف العمدة وهو يسير بالثعلب في اتجاه المركز، وان ظلت ثمة شكوك أفصح عنها البعض:

- هل يستطيع الثعلب بمفرده أن يقوم بكل هذه الأفعال

دلف العمدة إلى المركز نافخا صدره كالديك ووقف أمام المأمور متوددا:

- يا سعادة المأمور لقد تمكنت من القبض على الثعلب

رمقه المأمور بنصف عين ورد عليه ساخرا:

- برافوا. .وأين قبضت عليه

- لقد وجدته في الخرابة وعندما رآني حاول الهرب فضربت ساقه بشومتي وقد تنافر أصحابه لكنني أعدك أن يتم القبض عليهم هذه الليلة.

اهتز الثعلب من الضحك فلكزه على خده:

- لماذا تضحك؟

- لم أعرف أنك كذاب إلا اليوم

اصفر العمدة ولاذ بالصمت وحاول جاهدا أن يمنع الثعلب من الاستطراد فجذبه بشدة قائلا:

- ليسمح لي المأمور بإيداعه السجن.
نظر إليه مزدريا وصاح به:
- وهل تتصور أن هذا بمفرده قادر على تلك الأفاعيل كلها.
أرخى العمدة رأسه مرددا:
- له أعوان
تحرك المأمور وصفع الثعلب:
- أأنت وراء كل ما حدث؟

نفرت عروق صدغيه ولاذ بالصمت وغرس عينيه في اتجاه واحد وإن بدت جسارته إلا انه كان متهيئا للإجابة بلا مماطلة، دار المأمور نصف دورة متفحصا ملامح وجهه:

- من أمسك بك؟
- أبو حية
التفت إلى العمدة ساخرا:
- وهل أصبحت تستعين بالمخمورين
انتفض العمدة مرددا:
- لا أبدا.. القصة أن أبا حية أعان أحد رجالي.
هز المأمور رأسه:
- أريد أن أرى من أمسك به

وقبل أن يتحرك العمدة سمع صفعات متتالية على وجه الثعلب الذي زأر حانقا:

- سأجعلك تندم على تعيينك في هذه الناحية

ما رواه الثعلب للراوي عن كيف أمسك به أبو مريم

إن شهوة السلطة مميتة

اكتشفت هذا حينما كنت أجلس مع العمدة وهو يودع الحياة، كان الموت ينازعه وهو لا زال يلقي أوامره.

أظنه[9] كان يريد أن يودع الحياة وهو لايزال ممسكا بعصاه:

- هل سيجد أحدا يأمره حينما يكون مكوما في لحده؟

لقد أضاع حياته في لعبة سمجة، وأضعت حياتي مقذوفا في زنزانة رطبة فاسدة التهوية انتظر هبوب الهواء، وعندما يهب يجلب نتنا يقايضك حياة بحياة فلا تجد خيارا أفضل مما أنت فيه.

إنها لعبة العسكر والحرامية، كلنا لعبنا هذه اللعبة عندما كنا صغارا ولكننا لم نتعظ من كونها لعبة تصيبنا بالنشوة للحظات وتفقد بريقها بمعرفة أطراف اللعبة، إننا كالأصداف المقذوفة على الشواطئ لا نفهم أننا نؤدي حركة واحدة طوال حياتنا.! !

13

جلس أبو مريم جوار صندقته زائغ البصر وثمة كلمات ينثرها بشرود كان يحس أن أنفاسه تكاد تنقطع، ولم

يشعر بعبدالله الفسيني وهو يقف على رأسه:

- ألا تود مشاركة شباب الحارة العس

تطلع في وجه عبد الله بنصف ابتسامة:

- وأين هم حين كان يمضغني الليل وحيدا

- يبدو أنك شخت يا سبع الليل

زفر بعمق:

- يبدو ذلك فالكل يقول هذا، لم أعد أصلح لشيء وكنت أتمنى لو أن لي

(9) الحياة التي عشتها لم يعززها الصدق في كل جوانبها، وما وصلت إليه من وقائع في حياتي وحياة من عرفتهم كانت تحمل صور مناقضة لكل شيء ظاهر: الازدواج، المخاتلة، الخيانة، الخسة، والأوجه المتعددة كل هذه الصفات وجدتها ماثلة في حياتي فغلب الظن على كل الأحكام التي أطلقها، فالحياة زودتنا بأقنعة لكي تواصل بنا لعبتها وتعيش من خلال هذه الأقنعة ولهفنا على البقاء فوق صهوتها في سباق محموم ليس به جواد يصل للنهاية. .لذلك ستجد لفظة الظن تتكرر ألف مرة أو تزيد، فالظن هو الباب الوحيد الذي نتربص من خلاله بالحياة.

بيتا، أغلق على نفسي الباب وأنام قرير العين. .الله. .الله لم أظن أن هواني على الناس بلغ هذا الحد

- لا عليك أن شئت جعلتك تعيد هيبتك
- لم أعد أبحث عن هيبة فقد أصبحت أبحث عن مكان أدس فيه جسدي الهرم
- أيخيفك وجوده
- إلى الآن لم يعرفني ولكن وجوده يذكرني بمرارتي، في أحيان كثيرة أتمنى أن أقتله
- يبدو أنك حننت لماضيك
- لقد دنس حياتي وجعلني خرقة بالية لا تصلح إلا لمسح الأوساخ
- لا تذكرني
- ومن قال أنك ستنسى. . .عليك أن لا تدفع كثيرا ثمنا لنسيان زائف
- لقد كرهته منذ أن رأيته، انه يذكرني بقدرة القوي
- انهم يعبثون بحياتنا وفي أحيان نعبث بحياتهم
- أنت واهم فالعبث لا نجيده، لقد أحال حياتك إلى رماد وهاهو يحيل حياتي إلى نار متأججة
- إنني أفكر في قتله

ضحك أبو مريم مقتضبا:

- القتل ليس حلا
- لكنه يسعى إلى سرقة حياتي، سمعت أن الملكة ستكون غدا
- فكر في طريقة أخرى تمنعه من الاقتراب منك
- مثل ماذا
- أولا هل أنت متأكد من مها
- كما أنا متأكد منك
- إذا اجعلها ترفض هذا الزواج

- إنها رافضة ولكن أباها وأعمامها
- المرأة لا يقوى عليها أحد
- لكنني لم أرها منذ أسبوع
- إذا ابحث عن طريقة تمنع هذا الزواج
- دعنا من هذا جئت لأسمر معك وأنسى
- لم يعد السمر كما كان فبعد قليل سيمر العمدة أو أحد الشباب العاسين وسيلومونني
لجلستي وأنا لم أعد أحتمل سخرية الجميع
- لقد مضى زمن طويل وباستطاعتك أن تخرج من هذا السجن الذي ارتضيته
- كلنا مساجين
- كلامك يتعب رأسي ولا أريد أن أفكر كثيرا
- إذا تعب رأسك من التفكير فقد أصبحت دابة ليس لها من هم سوى مضغ النفايات
- دعنا من هذا الهذر، أريدك أن تمشي معي هذه الليلة وسأمكنك من غريمك
- أي غريم
- من أحال الحارة إلى مال سائب
- أو تعرفه؟
- قم
نفض أبو مريم مؤخرته وتناول شاله المقذوفة جواره مرددا:
- أهو شخص واحد
- هو الرأس. لقد دخل علي ذات مساء ورجاني أن لا أتدخل وقد وعدته
- وما الذي يدفعك لنقض وعدك

- لقد استمرأ السرقة وآن لي أن أرد دينك القديم

- من هو؟

- الثعلب، ولولاك ماسلمته ما حييت فأنا أريد أن أتشفى في المأمور

- لا تجعله يفسد حياتك

- لقد حولني إلى خرقة بالية مثلك تماما، ويوما ما سأرد اعتباري

ضحك أبو مريم بمرارة:

- أن حياتنا انتظار مؤجل، تعرف لقد قلت جملتك ذات يوم لكن عجزي من تحقيق ذلك جعلني أمضغ حقدي يوميا كجمل مل الرغاء فلم يجد مايمضغه سوى عصارة سنامه، استبدل أوهامك يا صاحبي

رد عبد الله:

- إيه يا أبا السباع هاأنت تنكأ الجراح

- عليك أن تحافظ على جرحك وتسعى لالتئامه لا أن تسعى لاتساعه

- لا عليك، فأنا قادر على التحمل، هيا إسرع ودعنا نباغت الثعلب

خرجا متلازمين وانعطفا إلى أحد الأزقة الضيقة الذي أسلمهما إلى برحة واسعة عبراها في اتجاه بيت أبي نصير وهناك توغلا بين الأزقة التي أفضت بهما إلى برحات واسعة استقرت في إحداها صندقة كبيرة فدخلاها فوجئ الثعلب بهما وحاول الإمساك بشومته لكن قفزة سريعة من أبي حية حالت دون ذلك، وتعاركا لوقت قصير ولم يكن الثعلب قادرا على إنزال الهزيمة بخصمه فتراخت عضلاته وقال بصوت معاتب:

- ألم تعدني

- بلى ولكن له دين في عنقي

وأشار لأبي مريم، حاول الثعلب تخليص يديه الملتوية خلف ظهره واعدا أبي حية:

- أنا أدفع دينك

- ليس مالا انه أكبر من ذلك بكثير

وعندما وجد إصرار عبد الله الفسيني حاول التملص والركض لكن أبا مريم سارع بربطه وقاده إلى العمدة بينما اتجه عبد الله إلى شأنه، ووسواس مر ينخر هامته.

بعض التفاصيل التي ذكرها أبو حية للراوي

كان علينا أن نبدأ أول خطواتنا مع الفجر.. الكارثة أن القائد سهر ليلتها ونسي الموعد وعندما استيقظت الشمس كانت عيناه تحرس حلما فاخرا نبت في مخدعه..

هذه ليست طرفة، الطرفة أننا بقينا ننتظره وعندما أفاق كانت أسماؤنا محفورة في سجلات لم تنس أي منا! !

**** ****

قلة من الناس يعيشون كما يريدون، وكنت أحلم أن أعيش كما أشتهي وفي كل مرة أجد شيئا غامضا يسيرني إلى جهة لا أرغب السير بها، وقد أمضيت سنوات طويلة كقشة يطوح بها الهواء في طريقة، الآن أشعر أنني أسير نحو مبتغاي، فهل أجدها؟!

14

مقهى الشنب بيت لمن لا بيت له حيث يفد إليه الغرباء والمنقطعون للمبيت مقابل ريال للكرسي والغطاء، وتنقص القيمة كلما تخلى النائم عن الغطاء وشربة الماء أو اختار كرسيا مبثوثا أو كرسيا كسرت إحدى قوائمه.

كانت الأسعار تسري على الجميع باستثناء أبي مريم الذي يعد من أقدم نزلاء المقهى وأول من رقد به بعد انتقاله من موقعه الأساسي بموقف باب مكة حين كان إيجار الكرسي لا يتعدى ربع ريال ولأقدميته فقد ظل ينام بربع ريال يضاف إليه كأس شاي يتناوله بعد انتهاء دورته الليلية حيث اختار ركنا قصيا من المقهى ثبت كرسيه فيه ووضع صرة صغيرة أسفل منه، وبعد أن ينهي مهمته ويصلي صلاة الفجر يعود إلى فراشه ويغط في النوم غير مبال بصيحات الزبائن والقهوجية وبعض الباعة المرتادين المقهى ومع صلاة الظهر يستيقظ ليبدأ

يوما باردا من الحكايات التي ينثرها رواد المقهى ويتزود بنوم خفيف في القيلولة حتى إذا دخل الليل نفض شاله وألقى به على كتفه واتجه إلى دوريته الليلية، ونادرا ما كان يذهب إلى العمدة فما أن تتهيأ الحارة لإغماض عينيها حتى يخرج جارا قدميه من المقهى ومتجها صوب ركنه - الذي اختاره منذ ثماني عشرة سنة مضت - بجوار صندقة غنم السميري ويخرج دافورا وبرادا لصنع كأس شاي، هذا الشاي الذي يعدل مزاجه أكثر من شاي المقهى ويظل يرتشفه بلذة وعيناه تتربصان بالأزقة بلا اكتراث فقد علمته الحياة أن لاشيء يساوي لحظة تحفز لذلك كان يؤدي عمله برتابة وبطء يثيران الدهشة لدى أهل الحي، وقد تناقلوا طريقته في العس باستغراب مبدين عجبهم من خوف اللصوص منه، بالرغم من هذه الطريقة فقد كانوا مطمئنين لوجوده بين رجال العسة إذ كان اسمه كفيلا بجعل أعتى المجرمين يفكر مرارا قبل أن يقدم على دخول حارة بها أبو مريم، كانت سيرته كالطبل يسمع ترددها من بعيد لكن واقعها كان مغايرا لما أشيع عنها إذ كانت السمعة التي اكتسبها في صالحه حيث ضخمت سيرته وأبعدت الآخرين عن مواجهته.

بعض المواقف كانت تبين بعض خصاله فيرجعها الكثيرون إلى قوة القادر، ولا يسعى أحد لاستغلالها خوفا من بطش صاحبها إذا غضب.

وقد أدت لا مبالاته بإيقاعه في مواقف لا يحسد عليها، وكان أشهر موقف فضح هذا الضعف في شخصيته حينما كان عائدا من دوريته الليلية ودخل إلى المقهى لينام فجذبه عيسى غريب وادعى أنه أقرضه مائة ريال قبل أسبوع ولشدة خجله أخذ يتعثر في الكلام ويعد بالتسديد وقد كتب على نفسه سندا بالمبلغ يقسطه شهريا من معاشه الضئيل، وكان الغريب يأتي مع نهاية كل شهر ليأخذ عشرين ريالا وهي كل ما يتقاضاه شهريا مقابل عسته ليليا، وكثر اقتراضه وتملص من دفع أجرة نومه في المقهى كثيرا، وألزم نفسه بأكل وجبة واحدة طوال اليوم، وقد لاحظ الشنب هذا التغير على أبي مريم فجالسه في إحدى المرات فحكى له القصة كاملة، فلم يكن من الشنب إلا أن رفع ضحكاته عاليا ولم ينزلها حتى حكى لكل الجالسين بالمقهى عن نبل أبي مريم وخساسة عيسى غريب.

وقد أقسم للشنب أنه لم يكن في ذات يوم مغفلا، وضرب كتف الشنب وتنهد بعمق:

- في أحيان كثيرة يقودك الزمن إلى منعطفاته ويشبعك ركلا فلا تقوى على التألم

وعندما حاول الشنب التخفيف عنه خاصة حينما تخضلت عيناه بالدمع وأخذ يهرب بوجهه عن عيون زبائن المقهى، واتجه إلى سريره القابع داخل المقهى، يتبعه الشنب، ودس في يده ورقة من فئة العشرة ريالات، فأعادها إليه متمتما:

- أن اليد التي تعطى أفاكا لا تسترد خسارتها من كريم

وأسدل على وجهه الغطاء، بينما وقف على رأسه الشنب يفتل شواربه ويبللها بلسانه من غير أن يقدر على تقويم الموقف، فيما كان جسد أبي مريم يهتز من تحت الغطاء. .

خرج الشنب إلى رواد المقهى، واصفا أبا مريم بنعوت جليلة وفي كل مرة يردد:

- لو أن في حارتنا اثنين من أبي مريم لنزل علينا المطر يوميا

وحين استفسر منه بعض الزبائن عما حدث فتل شنبه وحاول رفع صوته:

- أن القوي الرحيم يتنازل عن حقوقه وأبو مريم تنازل عن راتبه لعيسى غريب لمعرفته بضيق حاله، وكان يستطيع أن يسحقه من غير أن يلومه أحد.

هذه الحادثة جعلت أبا مريم يكبر في عيون الكثيرين، وعدوه من الرجال القلائل في هذا الزمن، وانهالوا على عيسى غريب لائمين:

- الرجل منع عن نفسه الزاد بسبب دناءتك وكان بمقدوره أن يسحقك

فوافقهم، وأبدى ندمه بإخراج مائة ريال من جيب كمره[10] ووضعها على طاولة أبي شنب، ووقف معتذرا لأبى مريم أمام الجميع، تقبل أبو مريم العذر

(10) الكمر هو حزام جلدي يصنع محليا ويتصف بالعرض وله عدة جيوب جانبية، ولفظة كمر تطلق على الحزام في المناطق الجنوبية وشاع اللفظ نفسه في مدينة جدة.

ورفض أن يأخذ المائة ريال وأقسم أنها هدية فلم يتمالك الغريب نفسه فأجهش باكيا ومقبلا رأس أبي مريم.

بعد هذه الحادثة أصبح أبو مريم مكان حفاوة الجميع وأولهم أبو شنب الذي أقسم على أن لا يتقاضى قرشا واحدا منه مقابل نومه وأخذته النشوة فحلف أن زوجته طالق إن لم يقبل وجبة غداء مجانية يوميا.

كان يمضي ليله جوار صندقة غنم السميري يرتشف الشاي، ويدندن بأغان عتيقة تهيج حزنه الدفين وحين يوشك على البكاء ينهض مادا قدميه في تلك الأزقة المظلمة صامتا يلوك حزنه حتى إذا أكمل دورته عاد إلى مكانه وأشعل سيجارته وأخذ (يمزها) ببطء تاركا بصره يسرح في تلك العتمه، مخترقا إياها ليصل إلى تلك الأيام التي يجترها بشيء من الفزع اللاهب فيقفز من مكانه صائحا:

- لابد وأن أشرب من دمائك

عندما قدم إلى جدة كانت تداهمه كوابيس فينهض من نومه صارخا بتلك الجملة المرعبة.

في أولى أيامه كان يبيت بمقهى الشنب في باب مكة قبل أن يستقر المقهى في هذه الناحية، ففي تلك الليلة تعرف أهل المقهى على كوابيسه فبعد استئجاره كرسيا للمبيت نهض أكثر من مرة صائحا:

- لابد وأن أشرب من دمائك

وظل يهرع بين كراسي المقهى حتى أنه أيقظ نزلاء المقهى من سائقي الشاحنات والعابرين إلى هذه المدينة، وقد أعاده نادل المقهى أكثر من مرة إلى كرسيه وأرقده بعد أن عرف أنه يحلم، ولم يفق إلا على صفعة استقرت على وجهه من أحد سائقي الشاحنات الذي أغاظه صراخه المتواصل:

- وأنا لابد من أن أشرب من دمك. .دعنا ننام فأمامنا سفر طويل

فأفاق مرتبكا وممسكا بتلابيب صافعه وكادت تقع مشاجرة عنيفة لولا أن بعض النزلاء تدخلوا فيما بينهم، ولاموا السائق على تصرفه، حينها قال عبده القهوجي:

- لم يكن يحق لك صفعه لمجرد أنه كان يحلم بصوت مرتفع

فاشتاط السائق وهم بافتعال مشاجرة أخرى مع القهوجي فتدخل الزبائن وحالوا دون ذلك وسحب كل منهم واحدا وفرقوا بينهما، فسأل أبو مريم النادل:

- ما عساني فعلت

فأخبره بما حدث، فنهض في اتجاه سائق الشاحنة واعتذر منه فقبل منه اعتذاره وتناولوا فطورهما سويا.

من تلك الليلة ظل أبو مريم (خفيف) النوم وكان كل ما يخشاه أن يسرب لسانه سره الدفين الذي قلب حياته رأسا على عقب.

أرهقه هذا الحرص حتى أصابه النحول، وضمرت أوداجه التي كانت تتقافز منها عروق صلبة تتوتر كلما اتقدت عيناه، فما تبدأ دوريته حتى يشعر أن أقدامه لا تقويان على حمله، فيظل يدور بين أزقه الحارة حتى يعبر به العمدة متفقدا العسس، وبعدها مباشرة يخطو خطوات واسعة صوب مرقده الليلي الذي اختاره - بجوار صندقة السميري - ويخرج الكراتين التي يحتفظ بها فوق الصندقة ويفرشها واضعا حذاءه متكأ لرأسه الثقيل ويحرص أن لا ينام قبل أن يطلق صفارته مرارا صارخا بصوت مشروخ:

- من هناك؟

وينام قبل أن يسمع جوابا لتلك الأقدام التي تجول في تلك الأزقة الملتوية والقابعة تحت الليل البهيم.

في هذا المكان ينام مسترخيا من غير أن تشاغله مخاوفه من أن أحدا يسيخ السمع لكوابيسه بينما يظل متحفزا كلما وضع رأسه للنوم داخل مقهى الشنب.

في أول أيام اشتغاله بالعس أبدى كثيرا من الحرص واليقظة، وأوقع العديد من اللصوص والخمارين وكان لا يكف عن دورانه إلا مع بزوغ أشعة الشمس، كما دأب على عدم استخدام صفارته لكي لا تنبه المتسللين أو الخمارين، فكان يسير بين أزقة الحارة حاملا (شومته[11]) ومتحفزا لأي حركة،

(11) الشومة عصا غليظة يستخدمها الفتوات في لعبة المزمار أثناء المنازلة أو (المقاشعة)، وهذه العصا تمر بمراحل قبل ان يطلق عليها شومة فهي غالبا فرع من فروع شجرة

فما يرى أحدا حتى يهوي ب(شومته) على الظهر أو على الساقين لتظل ضحيته تتلوى ولاتقدر على الحركة فيجرها من ملابسها صوب المنطقة الرابعة، أو إلى دار العمدة، وفي إحدى المرات كان ضحيته يصيح به وهو يجره من ملابسه غير مكترث بسبابه ولعناته وصوته الذي كان يصر حانقا:

- سوف تندم ندما تتمنى لو أن أمك لم تنجبك على هذه البسيطة

وعرف فيه صوت العريفة(12) ولكنه لم يتراجع، وظل يسحبه حتى بلغ به مركاز العمدة بعد أن رفض ضابط الخفر استلامه، ولم يكن العمدة متهيئا لمقابلة أحد في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل، ومع الطرق المتواصل خرج العمدة من بيت زوجته الثالثة مزمجرا وغاضبا ملتحفا بإزاره وكاشفا عن صدر عار أظهر ثديا رخوا وشعرا فاحما امتد إلى السرة:

- يا حيوان ألا تعرف أن هذا الوقت من نصيب أهل بيتي؟

فاعتذر أبو مريم مرتبكا:

- لقد وجدته متسلقا بيت أبي يوسف

نظر العمدة فوجد عريفته معلقا في يد أبي مريم فصاح غاضبا:

- ألا تعرف من هذا يا بهيمة؟

- بلى.. ولكنه كان متسلقا

فتنهد العمدة متضايقا ونهر العريفة الذي كان يتلوى ويحاول الوصول إلى ساقه:

- ألم تكف عن تلك الشمطاء

= الجوافة يتم تشذيبها ودهنها بالشحوم حتى تتشربها تماما ومن ثم تزينها بقطع شمعية ملونة وزاهية وتدق بمسامير رقيقة في طرفها العلوي وتختلف غلاظتها وزينتها من شخص لآخر.

(12) عندما التقيت بالعريفة لاستقصاء الأخبار عن أبي مريم نفى تماما هذه الواقعة وقال: هذه واقعة مختلقة من أعدائي وأشاعها جابر البس وأنا أعرف دوافعه تماما. .وهي فرصة أن أنفي هذه الواقعة على الملأ. .
هذا النفي قابله إثبات من شخصيات عديدة التقيت بهم.

- كنت أتفقد العسس وسمعت صراخا فاعتليت الجدار لكن هذا الأحمق كسر لي ساقي

فلم يعر اعتذاره التفاتا، فأقسم أبو مريم:

- والله لقد أمسكت به وهو يتسلق الجدار

فصاح بهما العمدة:

- أذهبا الآن وفى الصباح سيكون لي معكما حديث

رفض أبو مريم أن يتحرك قبل أن يدخل العريفة إلى غرفة الحجز، فاستل العمدة شومته وقرع به رأسه:

- قلت دعه يمشي إلا إذا كنت العمدة ونحن لا نعلم

- ولكنه ت..........

- دعك من كل كلام فأهلي ينتظرونني، اذهب إلى عملك الآن ولا تأتني مهما كان الأمر إلا في الصباح. أتفهم في الصباح

- وهل أظل ممسكا بالعريفة إلى الصباح

أمسك العمدة رأسه متضايقا:

- قلت لك دعه ولي حساب معه

فتركه، وعاد إلى الحارة فاتر الهمة، ونافخا صفارته طوال ممشاه حتى أن بعض أهالي الحي استيقظوا مفزوعين من تلك الصفارات المتواصلة، ولم يتوقف إلا عندما تقافزت رؤوس كثيرة من شرفات المنازل ناهرة إياه الكف عن إطلاق نفير صفارته، وعندما علم أن العمدة تغاضى عن عريفته ضمر حرصه، وأصبح ينام الليل قرير العين من غير أن يكدر نومه أحد، بهذا النوم المسترخي استرد كثيرا من عافيته وأصبح أقوى مما مضى.

في تلك الأيام تناقل أهل الحي حادثة العريفة بشيء من السخرية صابغين على أبي مريم بطولات عديدة مما ساهم في تضخيم سيرته، فأمسى بطلا لا يشق له غبار، ومما زاد في سطوع نجمه وهيبته أن (أبادلش) تم القبض عليه بهدوء، وتناقلت أخباره (المراكيز) المنتشرة في أنحاء جدة مشيرين إلى أن أبا مريم هو الرجل الوحيد الذي استطاع الإيقاع بهذا اللص الذي يسرق الكحل

من العين ولا يترك خلفه أثرا، ولم تمض أيام حتى ألقى القبض على (البوصة) الهارب من دماء ضحاياه.

(والبوصة شاب تشادي دهس أبواه في رمي الجمرات، فعاش صبيا عند العجيلي بائع التمور بمكة ولفساد طينته سرق غلة عمه وانتقل إلى جدة، وقبض عليه وأودع السجن لعام كامل خرج منه للشوارع متحرشا بمن يصادفه وأدمن الطعان مع خصومه في لعبة المزمار ففسدت سيرته ونبذه الكثيرون فانتقل بخنجره لأجساد أهل الحارة عند أول شجار وكان يتقاضى أجرا إذا ما استعان به أحد في عراك طارىء، فيخرج خنجره ويشرخ من يواجهه فأثار الرعب وسعى الكثيرون لمهادنته، وابتعد عن طريقه أعتى المتسيبين في الشوارع، وعندما أسلم نفسه لأبي مريم تناقل الناس خبره بشيء من عدم التصديق وبكثير من المبالغة، وكان أول من فخم هذه الحادثة إبراهيم أبو عينين وهو رجل بلغ من العمر أرذله فلم يعد يبين طريقه وكان فيما مضى نسابا وقصاص أثر فروى قصة القبض على البوصة بطريقة تثير الاستزادة في سماع القصة وان أقسم في آخر روايته وبصوت متهالك:

- والله لمحت أبا مريم يجر البوصة من عنقه كبهيمة لاحول لها ولاقوة ومن فمه تعددت الروايات في كيفية القبض على البوصة.[13]

وتوافد عمد الأحياء القريبة مطالبين من عمدة الهندامية استعارة أبي مريم عدة شهور كي يخلص أحياءهم من لصوص الليل، مما جعل العمدة يضحك بملء فيه، ويضرب كفا بكف متعجبا:

- أو تصدقون أن هذا المخلوق قادر على شيء، أنا أعرفه تماما فهو كالتيس يتبول في الشوارع ولا يشم بوله

---

(13) حصلت على هذه المعلومة عن البوصة أثناء جمع المعلومات عن أبي حية وأبي مريم ولم أجد لها مكانا فدمجتها هنا وهي ليست من أصل رواية جابر البس، وهذه فرصة للإشارة إلى أن كثيرا من الأحداث التي جمعتها تداخلت ووجدت أنه من المناسب وضع كل معلومة في ظرفيتها الزمانية أو المكانية حتى وإن لم يقلها الراوي واضعا تلك الأحداث أو المعلومات بين قوسين لتفريق بين قول الراوي وبين الداخل على روايته.

وأمام إلحاحهم تنازل عن خدمته لعمدة حي الكندرة، فاستقبله أهالي الكندرة بالأهازيج وأقاموا وليمة بمناسبة انتقاله إلى حارتهم، وفى العصر خرجت الكندرة عن بكرة أبيها لمشاهدة أبي مريم وهو يلعب بشومته في حلبة المزمار، وصفقوا له كثيرا حين أبدى مقدرة فائقة في اختطاف عصي من يقابلونه في تلك الرقصة (والحقيقة أن الكثيرين ممن نازلوه كانوا يجاملونه خشية أو طمعا في وده، فاظهر منازلوه تخاذلهم أمامه، وهذه الوقائع - أيضا- أسهمت في تضخيم أبي مريم بصورة كبيرة).

وفى نفس الليلة جاء (اللوري) إلى مركاز عمدة الكندرة طالبا منه تسليمه للشرطة بدل أن يهشم رأسه أبو مريم وإزاء هذه الحادثة تحرك أهالي الهندامية مطالبين بعودة أبي مريم، وعندما رفض طلبهم استعانوا بالمأمور أبي شايب ليقنعه فأعاده إلى مكانه.

ومنذ ذلك اليوم ابتعد اللصوص والخمارون عن ناحيته فنعمت الحارة بأمان دام عشر سنوات لم يسمع فيها أهل الحي سيرة للصوص الليل، وكان أهل الحي ينامون قريري العين حينما يلمحون أبا مريم متجها إلى عسته الليلية.

في السنوات العشر الماضيات لم يعثر أبو مريم على أحد فقد كان ينام قبل أن يسترخي الليل في بسط أطرافه.. مرة واحدة لا غير أصابه الأرق فنهض وأرتشف كأس شاي وسار بين أزقة الحارة نافرا بصفارته وصائحا بصوت مشروخ:

- من هناك

وأثناء سيره انشطر حذاءه إلى قسمين متساويين، فحمله بيده وسار باحثا عن مسمار يصلح به تخاصم تلك القطعتين، وبينما هو يسير كاشفا عتمة الزقاق بكشافه الصغير سقط أمامه جسد لفتى يافع كان معلقا بإحدى النوافذ وما أن قبض عليه حتى أغلقت النافذة (وظل ضوء صغير ينزو من درفتيها التي لم تغلق تماما وأبانت وجه فتاة كانت تتطلع صوبهما بقلق، وما عدا هذه الحادثة لم يمسك أحدا في العشر السنوات الماضيات، كان السبب وراء هذا الأمن وجود أبو شايب.)

وعادت سيرته للتوهج بعد القبض على الثعلب، لكن هذا لم يدم طويلا فقد اختفى أبو مريم وكأنه لم يكن.

وظل الكثيرون يتساءلون، ما الذي حدث لأبي مريم؟!

ما رواه جابر البس عن أبي مريم والثعلب

ذات ليلة كنا نجلس سويا في زاوية مظلمة نتبادل الشجن،

قال أبو مريم:

– كنت أحتفظ بها في داخلي أما الآن فهي ملك مشاع للجميع يتخيلها كيف شاء

هذه بداية الشرارة التي ألهبتني، وتخيلتها فإذا بها كقطرة ماء تختلط بدمي، فأعيش بها.

أي جنون هذا الذي أحيا به؟

التفسير الوحيد لهذه الرغبة الرعناء ما عشته من سنوات طويلة أتغذى بالخيال حتى غدا الخيال واقعا

لقد أمضيت سنوات طويلة أنسق حياة من الأوهام كي لا أفقد عقلي داخل هذه الزنزانة، وأظن أنني فقدته مع مداومة أحلام اليقظة، أظن ذلك، بل أجزم أننا جميعا نعيش بأحلام يقظة أقمنا صروحها وارتضينا أن نبقى داخلها، والويل لأي عابر ينبهنا بأننا نجلس في الخلاء.

15

وقف الهلال على أسطح المنازل، ينز بضوء خافت لا يقوى على هش تلك الظلمات التي تجمعت وأخذت تسرح بين منعطفات الأزقة، كانت الحارة تبدو كمقبرة واسعة يخيم عليها الصمت، ولم يكن يحيا في هذا الصمت إلا عواء الكلاب الذي أخذ يتعالى من مرمى الحارة مفتتحا الليل بعراك شرس، هذا العراك الدائم يحدثه كلبان من أجل كلبتهما البيضاء الأثيرة التي تقودهما دوما إلى العراك مع الكلاب الأخرى عندما دأبت على إمتاع أي كلب ماعداهما، مما دفع الكلبين العاشقين إلى الدخول في معارك لا تنتهي.

كان أبو مريم يركض صوب العواء كلما سمعه متحسبا دخول غريب ما

إلى الحارة، وعندما يصل لا يجد إلا مشاجراتهما التي امتدت مع بقية الكلاب السائبة في تلك الناحية، وقد استجاب لعوائهما أكثر من مرة وفي كل مرة كان يجد هذين الكلبين شريكين في معركة دموية بينما تظل الكلبة البيضاء مسترخية ترقب المعركة، وتمضي مع خصم عشيقيها - أيا كانت النتيجة - من غير أن تلتفت إليهما مما أوغر صدر أبي مريم عليها وحمله على قطع ذيلها، فبينما كان العاشقان يتصارعان كانت الكلبة مسترخية واضعة رأسها بين قوائمها الأمامية وتنظر إليهما ببرود وقد تدلى لسانها لاهثا وفاترا فاقترب منها أبو مريم وهوى بساطوره فجز ذيلها ليرتفع عواؤها حادا وانطلقت تجري بغير هدى ليلتها لم يسلم من العاشقين فركضا نحوه وتمكن أحدهما من قضم ساعده، ووجد نفسه نهشا لكلبين حرقهما العشق فلم يجدا ما يطفئان به لوعتهما سوى دمه فأدار شومته وكسر قدم أحدهما وهوى بضربة قوية على ظهر الآخر فأخذ يركض متقاعسا وعواؤه الحاد المنكسر يتجدد من بعيد.

في الليلة التالية كان الكلبان يتبعانها بذيلها المقصوص وهي تنفر منهما كلما اقتربا، وتأجج عشقهما بانقيادها لمن يأتيها تاركة إياهما يتبعانها بانكسار ذليل.

لم يعد ذلك العواء محفزا لأبي مريم لكي ينطلق صوبه متفقدا ما يجري، بل كان محفزا له لكي يطلق ضحكته المجلجلة، ضاربا كفا بكف:

- الأنثى كمرض الجذام تعيش فيك لترى تساقطك وأنت لا تزال حيا! !

اكتسب في تلك الفترة صيتا واسعا، ولم يكن أشقياء الليل ليفكروا بالخروج ومزاولة شغبهم، فوحشية أبي مريم - كما يشاع - كانت كفيلة بجعل المرء يتردد مرارا قبل أن يقدم على الخروج، فما يدخل الليل حتى يمسي أبو مريم - في أذهانهم - وحشا ضاريا يفتك بأي شخص يعبر تلك الأزقة الملتوية.

هذه السيرة أكسبته صيتا يفوق الحقيقة التي لم يعرفها إلا عبد الله الذي قاده عشقه لأن يكون على مقربة من تلك الشخصية التي أحالت اللصوص إلى فئران تختبئ عن عينيه بكل ما أوتيت من مكر ودهاء.

بينما كان في واقعه فأرا يهرب من ماض يتبعه أينما اتجه، ولم يكن بالإمكان أن يظل بعيدا عن العيون فالليل سرق منه غطاءه وتركه في العراء.

رواية لأبي حية عن أبي مريم

سقطت كل الأشياء الجميلة في داخلي، وارتميت كجرو صغير

لا أعرف إلا النباح الوديع بعدها بدأت أفكر بطريقة سافلة:

أبو حية لن يخرج من هنا، وسأجد نفسي خارج هذا القفص بعد عدة اشهر، سأبحث عن مها وسأمنحها كل ما تريد، ولا أريد منها سوى أن تحرقني بعينيها.

– أليس هذا تفكير سافل؟

إننا في أحيان كثيرة نبطن خرائبنا كي لا تنفر عصافير الأسرار المطمئنة التي يودعها الآخرون في أقفاصنا الصدرية.

الغريب انني لا أجد حرجا عندما أفكر في استلاب قلب تلك الفاتنة.

16

ليلة مظلمة، والشوارع تصنصن بوحشة، ونسمة هواء محملة بروائح البحر تتمايل بتموج وتخترق البيوت بتكاسل، وأضواء خافتة تنثرها مصابيح البلدية فتخلف بقعا من ضوء باهت يرتمي في الطرقات كسيحا، وعواء كلاب، ومواء قطط، وخطوات مترنحة لأشخاص يتوارون بين الأحواش الكبيرة مستعجلين ومتحفزين.

ليل ضرير يبتلع من يدخله ويخبئه في جوفه، وفتى يتربص بخطواته ويتلفت في الطرقات حذرا، وبقفزة سريعة يرتقي شجرة نبق، ويستند عليها مادا عنقه صوب نافذة مغلقة، يصفر بصوت واهن، لحظات من قلق يوزعها في الطرقات النائمة حتى إذا فتحت النافذة مات كل شيء من حوله إلا تلك العينين.

(انتهى أبو مريم من احتساء كأس الشاي الذي تعود أن يسكبه في جوفه قبل أن يطوف بالحارة متفقدا أزقتها، ومطلقا نفيرا حادا من صفارته التي

صدئت وهي معلقة على صدره، كان يطيب له أن يمسك ب(شومته) من طرفها المدبب، ويهزها مع صوت صفارته، ويتنحنح بصوت غليظ مطلقا صوته الأجش بين تعرجات تلك الأزقة:

- من هناك؟)

في تلك الليلة أنهى أبو مريم احتساء كأس الشاي، وتحرك ليبدأ جولته الليلية، وعندما أراد السير اكتشف أن حذاءه انقشع عن طبقتين متنافرتين، فانشغل بالبحث عن مسامير ليدق بها تلك القطعتين الذائبتين ويعيد وصالهما.

كان يسير منكسا، وضوء كشافه يهتز بين تلك الأزقة الملتوية، وفى كل مرة ينكس ليتناول مسمارا ويعاود قذفه إما لكونه أطول من اللازم أو لكونه معوجا أتعبه إصلاح اعوجاجه بطرقه بين حجرين حتى أن يده اليسرى أصيبت بإحدى الضربات الطائشة في تلك العتمة الغامقة، فعدل عن تناول المسامير المعوجة واكتفى بتناول المسامير وفحصها وإذا وجدها لا تصلح لدق وتثبيت قطعتي حذائه طوح بها كيفما اتفق لاعنا من خطر على باله، وعندما طال به البحث قرر أن يسير بفردة واحدة ضاما المقطوعة تحت إبطه، وفى أحد الأزقة أصابته شوكة، فانحنى ينزعها من راحة قدمه، ولم يتمكن من انتزاعها بأظافره، فأصبح البحث عن أي مسمار شغله الشاغل، ولكي يسري عن نفسه أخذ يردد بصوت مسموع وهو يذرع زقاقا ملتويا:

- لن يطول بحثي عنك سأجدك لا محالة

ولشده الظلام الذي كان يكتنف ذلك الزقاق، أخرج كشافه، وأخذ يحركه يمينا ويسارا، وقد أصابته موجة من الهذيان وكأنه في تحد صارم:

- لن يطول بحثي عنك، سأجدك..سأجدك لا محالة

ويبدو أنه لمح مسمارا في إحدى الزوايا، فصاح ظافرا:

- ألم أقل أنني سأجدك

وانحنى لالتقاط المسمار لكنه ترنح قبل أن يلتقطه، وأحس بجسد يسقط عليه من أعلى، فبهت في أول الأمر، وظن أن شخصا ما من ضحاياه يريد الاقتصاص منه، فسارع بالتقاط شومته وهم بتصويبها صوب ذلك الجسد لكنه

سرعان ما تراجع حين لمح فتا ملقى في جواره وقد نهض نافضا مؤخرته بيديه وواقفا أمامه باستسلام، فأمسك به من (فانلته)، كاشفا بضوء كشافه عن ذلك الوجه الذي بدا يضج برجولة غضة، تفحصه مليا، وجذبه نحوه بعنف، فبدرت من الفتى صلابة حيال ذلك الجذب، وبهدوء قال لإبي مريم بصوت منخفض:

- أرجوك عاملني كما تعامل الرجال

فضحك أبو مريم لهذا الرجاء، وأراد أن يتهكم منه:

- ولكن الرجال لا يتسلقون الجدران في الليالي المظلمة. . أما أنت. .

فقاطعه الفتى بالصوت المنخفض نفسه:

- أفعل ما تريد ولكن بعيدا من هنا

صمت أبو مريم للحظات، وقلب بصره في المكان، فلمح ضوءا خافتا يخرج من إحدى

الرواشين وعينان ترقبان الموقف من هناك، فصاح أبو مريم:

- اهنئوا بنومكم مادمت أحرسكم

ولكز الفتى:

- لقد أحس أهل البيت بك، فهم أيقاظ ولسوء حظك أنك كنت ستقع سواء مني أو منهم. . هيا اخبرني ماذا كنت ستسرق. . دجاجا؟، أم أنك كنت ستحمل أغناما وتهربها من فوق الجدران بعد أن تكمم أفواهها. . هكذا يتصرف العقلاء من الرجال

أطلق ضحكة جافة أتبعها بالتحديق في وجه الفتى بعد أن سلط عليه ضوء كشافه، محاولا سبر أغواره، فكان يرى فيه صلابة، وقسوة تنبثق من بين أحداقه، ولم يكن متهافتا أو مرتبكا بقدر ما كان حريصا على الابتعاد عن المكان الذي يقفان فيه، فقال له أبو مريم:

- سأقودك للمأمور أبي شايب

وتطلع للفتى، مبتسما:

- أبوشايب رجل طيب.. سيخلي سبيلك، أمثالك لا يصلح لهم إلا العمدة فهو يحب الأذية

- حسنا سوف أسير معك إلى أي مكان تريد. لكن دعنا نتحرك من هنا

- ولماذا كل هذه العجلة، قبل أن نسير أريد أن أعرف، ما الذي حملك على صعود المواسير؟

ارتبك الفتى أمامه ولاذ بالصمت، فكرر عليه السؤال دون أن يجد إجابة، فجذبه من (فانلته)، وسار به باتجاه المركز وهو يردد:

- لا تفرح بلقاء أبي شايب أنا أعلم أن العمدة هذه الليلة هناك وسوف أناديه ليتصرف معك

كان الفتى يسير معه من غير مقاومة، وكان أبو مريم يرغب في إخلاء سبيله فقد وجد نفسه منجذبا نحو هذه الرغبة، وان كانت تنازعه رغبة أخرى لمعرفة سر صرامة وبأس هذا الفتى، فظل يماحكه في الحديث وينتظر منه أي كلمة توسل لكي يطلقه إلا أن الفتى ضل صامتا، فسار متوكئا ويده ممسكة به بتراخ، وعيناه تبحثان عن مسمار بدل الذي فقده من سقوط هذا الفتى عليه حيث ازداد وخز الشوكة التي توغلت في راحة قدمه، وعلى ضوء كشافه الصغير لمح مسمارا فانحنى إليه وترك الفتى جازما أنه سرعان ما يطلق قدميه بين تلك الأزقة، وافترش الأرض واضعا قدمه على فخذه وقاضما على الكشاف بفمه ليرى موضع الشوكة، وأخذ ينكش جلد قدمه الميت حتى أطل رأس الشوكة فأخذ يداعبه على مهل وعيناه تطرف كلما أحس بوخز الشوكة، فانحنى الفتى عليه ولز موضع الشوكة وانتزعها بقوة، فصدرت آهة خفيضة من أبى مريم، وتطلع إلى الفتى متسائلا:

- أقمت بهذه الخدمة من أجل أن أخلي سبيلك؟!

وأطلق ضحكة جافة:

- أنت لم تسمع بي بعد

فرد الفتى بصرامة:

- بلى سمعت بك، سمعت أنك سرت في إحدى الليالي وبظهرك سبعة

خناجر حين حاصرك لصوص الليل، ولم تمنعك جروحك من ربطهم بحبل واحد والسير بهم إلى المركز، ولكن الذي سمعته يخالف ما رأيته، فقد رأيتك تغمض عينيك من ألم شوكة، ولو أردت الهرب لفعلت عندما كنت مغمضا عينيك، ويبدو أنك أضعف مما تصورتك

فجذبه أبو مريم باتجاهه بعنف:

- أو تسخر مني

- لم أتعود السخرية، ولكني خشيت أن أنا لاطفتك في الحديث تذهب ظنونك إلى أنني أريدك أن تخلي سبيلي

- وهل تظن أنني فاعل

- لا يعنيني ما ستفعل، ولكنني أسألك. .ما الجرم الذي سوف تلصقه بي؟

- إذا كان هذا ما يشغل بالك فلا عليك سوف أجد لك جرما لا يخرجك من الكركون قبل مضى عامين

- إذا كان هذا يرضيك فأنا موافق، بشرط

وتوقف عن الكلام حين اتسعت دهشة أبي مريم، وصاح به:

- أو لديك شروط

- شرط واحد أن قبلت به، مكنتك من إلصاق أي تهمة بي

- (عشنا وشفنا) لص يملي شروطه

- أرجوك لا تقل لصا

- عفوا

وأطلق ضحكة طويلة، وتناول حجرا وانشغل بتسمير نصفي حذائه المفترقين من أول الليل بالمسمار نفسه الذي أخرج به الشوكة وإن كانت عيناه ترقبان الفتى الذي ظل واقفا على رأسه من غير أن يثير أي مخاوف أو يبين استعدادا للهرب، فكر أنه يخشى من ذلك الحجر الممسك به فقذف الحجر بعيدا بعد أن سمر حذاءه كيفما اتفق ومنحه فرصة إضافية حيث انزوى جانبا متصنعا التبول، فاقتعد الفتى مكانا قريبا حتى إذا عاد أبو مريم وقف مستعدا للسير معه:

- لماذا لا تهرب؟

- لا أستطيع

- ما الذي يمنعك؟

- لأنك ستراني مرة أخرى

هز أبو مريم رأسه، متمتما:

- هل ستعود إلى المكان نفسه لو أنا أطلقت سراحك

هز الفتى رأسه موافقا، فلوى أبو مريم فمه وبصوت منخفض:

- ما الذي يجعلك تعود

لاذ الفتى بالصمت، فصاح أبو مريم فجأة:

- إذا لم تقل سأذهب إلى المكان الذي وجدتك به واطرق الباب الذي كنت في جواره

أجفل الفتى فجأة ثم لان:

- ألم أقل لك بأنني مستعد لأي تهمة تريد إلصاقها بي بشرط، وشرطي هو أن لا تقول لهم عن المكان الذي أمسكتني فيه

- ولماذا

عاد الشاب إلى صمته، فجذبه من (فانلته) التي وصلت فتحتها إلى بطنه من كثرة الشد:

- لماذا هل في المكان ذهب؟

فأحنى الشاب رقبته، وانقاد لجذبه بخضوع، فتراخت يده عنه:

- تذكرت كان هناك شبح فتاة. .أهذا هو السبب؟

فهز الشاب رأسه، فاتسعت ابتسامة أبي مريم، وباغته سائلا:

- هل تحبها؟

انتفض الشاب، وحينما حاول الإجابة تحشرجت الكلمات بين فكيه، فاقترب منه واضعا يده على رأسه:

- لا زلت صغيرا فلا تكو حياتك بهذه النار

صمت ثقيل سال بينهما قبل أن ينطق الفتى جملته:

- من غير هذه النار لا طعم لحياتنا

وافقه أبو مريم بدندنة عميقة، وبدل أن يواصلا السير صوب المنطقة انعطفا ليدورا حول الحارة وفى أزقتها. . وأبو مريم يحكي عن كوارث العشق وما تتركه المرأة من دمار في الأنفس بينما كان الفتى يسير في محاذاته منصتا وواضعا يده خلف ظهره وشوق طاغ يبحر بين دمائه.

افترقا ثم التقيا وتوطدت علاقتهما عبر سنوات وفي كل مرة كان أبو مريم يوصيه:

- المرأة الخنجر الوحيد الذي يبقر أحشاءنا ونظل طوال العمر نعاود هذا الطعن المميت. . . وأنصحك أن تقطف قلبك وتدفنه في أي مكان لتعيش ملك نفسك.

ذهب أبو مريم وبقيت نصيحته عالقة برأس أبي حية الذي كان يقول عنها دائما:

- لو نفذتها لكنت الآن في ألف خير.

صياغة الراوي لأول التقاء بين أبي حية وأبي مريم

البداية أن تعرف ومن ثم تخر حبات المسبحة، وعليك ان تعيد تلك الحبات المتساقطة في عقد منضود.

فجاة وجدت أن الأحداث تتوالى وأن علي أن أقوم بتنظيم كثير من الأحداث العشوائية كي تستقيم حياتي.

يا الله، هل نحن مدفعون بالفطرة؟ أم أننا نحيا بأنانية ذواتنا الملوثة بأطماعها؟

هذا القول ليس وليد لحظة انفعال طارئ، فتش في حياتك وستجد أنك في كل الحالات تسير وفق رغبة مجنونة نبتت في داخلك وعندما بلغتها لم تكن متوهجة في خاطرك كما كانت أول الأمر، ولو أنك أهملتها لربما نجوت من حياة كبريتية تشتعل في كل حين.

17

عرف عبد الله الفسيني طريق السجن ولم يعد يمضي وقت يسير حتى يعود إلى زاويته بالسجن الكبير، وكلما خرج عاد بعقوبة أفدح من سابقتها، وبداء جديد وحزن ينمو فيسد أمامه الطرقات.

لم يعد يذكر أحد اسمه فإذا خرج يوما غاب شهورا وامتد غيابه لسنوات، ومع لقبه الجديد لم يعد أحد يذكر عائلة الفسيني حتى ذلك البيت الذي أبقى اسم العائلة أخذ يتناقص باقتسام الجيران أرضه متوسعين ومضيفين ولم يبق منه سوى جزء خرب يأوي إليه عبد الله (أبوحية) حين يخرج من السجن ويظل به لأيام كغراب يتطير منه الناس حتى إذا عاد إلى السجن عاد ذلك الجزء خرابة ومبيتا للخفافيش والنسيان.

ولم يكن دخوله وخروجه من السجن يمكنه من المطالبة أوالمنازعة على ما فقد من أرض البيت، فكان في كل مرة يطلق تهديدا وقبل تنفيذه يكون قد عاد إلى زنزانته.

وفى إحدى خرجاته اكتسب اسما جديدا بسبب تلك الحية التي نفرت من ساعده، ونسي الناس اسم عبد الله الفسيني ذاكرين لقبه (أباحية) بشيء من الخوف والنفور.

في بدايات دخوله السجن كان يتوق للخروج منه بأي صورة وعندما أدمن النوم على أرضية الزنازن أصبح منبوذا ليس له قلب يجاوره ويخفف من لوعته فيحن للعودة ويفتعل أي شجار ليعود من حيث أتى.

فبعد الحريق الذي أكل جزءا من حياته كانت الحياة أقل ضراوة مما هي عليه الآن في جوار أبي شايب وأبي مريم ومها تلك الزهرة التي قطفت من حوض عمره فغدا صحراء جرداء تصلى بحرارتها أحشاءه.

في البدء قاده عشقه لمساكنة الليل، وطرق العتمة لملاقاة مها فيختلس لحظات ويعود جذلا يستعجل الأيام ليكون بقربها.

مها والليل قربا منه أبا مريم فأصبح صديقه الحميم بالرغم من فارق السن، وحين التهمت النار أسرته ساير الليل والشراب وأبا مريم.

في الأيام الماضية التي كان يقضيها في صحبة أبي مريم، كانا يسيران سويا وفي أحيان يجلسان جوار صندقة السميري ويتناجيان عن ماض لم يتبق منه إلا الجراح العميقة فقد تلوث عبد الله بالوحدة، وتلوث أبو مريم بماضيه، ذلك الماضي الذي تسرب ليلة ما ليقود أبا مريم إلى الغياب ويدفع عبد الله إلى ظلمة جديدة.

وبعد نفور تلك الحية العظيمة نسي عبد الله الفسيني وبزغ أبوحية رجلا يثير الرعب والضغينة، فكلما خرج من زنزانته يترع خمرا مغشوشا ويتطوح في الأزقة حتى يصل إلى تلك النافذة التي كانت منتهى أحلامه تقف فيها ويظل يحدق في ذلك الأثر الإسمنتي الذي تركه المورقي عندما أغلق النافذة وحولها إلى جدار ويظل واقفا أمام ذلك الأثر ولا يتحرك إلا بعد أن يغشى عليه من ارتشاف العرق ويزداد نحيبه إذا تذكر أبا مريم.

منذ تلك الليلة التي قبض عليه وهو معلق بنافذتها أصبحا صديقين وقد حاول أبو مريم كثيرا أن يبعده عنها لكنه دائما ما يجده بالقرب من نافذتها يتبادلان الهمس وكلمات الغزل الأولى وعندما يئس من إقناعه ارتضى أن يكون حارسا لهما حتى إذا انتهت مناجاتهما انعطف هو وصديقه الصغير إلى إحدى الزوايا وجلسا يتسامران أو يسيران بين الأزقة ينثران حرقة الجوى.

بعد أن توثقت عرى صداقتهما كانا يسيران جنبا إلى جنب، وأبو مريم يتوكأ على شومته، و قد أطفأ كشافه، وامسك بيد عبد الله وسارا تاركين خطواتهما تتشعب بين الأزقة والمنحنيات وهما يستعيدان قصائد الهوى، فقد برع أبو مريم في حفظ قصائد العذريين، فكان يلقي على مسامع عبد الله تلك النار التي خبأها التاريخ بصوت ملتاع وكلما صمت استزاده، ومع كل قصيدة يلقيها كان يذكر تفاصيل صاحبيها ولا ينسى ترديد تحذيره: - المرأة خلقت لاخراجنا من الجنة والدنيا

ويصمت للحظات، ويتابع متحمسا:

- ألا تلاحظ اشتراكهن جميعا في الخيانة كلهن يتركن عاشقهن صريعا في هواهن ويمضين إلى حياتهن هانئات

وكلما ماطله صديقه الصغير جدت عزيمته لإقناعه.

ذات ليلة شعر برغبة في الحديث، شعر برغبة أن يلقي ما في داخله من قمائم، ويتخلص من ذلك السر الذي تعفن داخله، وأصبح يخرج مع أنفاسه، ويسمم أيامه، كان يتمنى لو أنه تعلم الختانة ليجز أعضاء الذكور ويطمرها تحت التراب، فهو يرى أن مثل هذا الفعل سيخفف ويلات الكثيرين، وسيجعل الحياة أكثر ألفة، عند هذا الرأي اعترض عبد الله محتدا:

- المرأة ليست فرجا

وتابع جملته الباترة بقسم: والله إني لا أشتهي تقبيلها فأنا أراها أكبر من كل شيء

صاح أبومريم: (أفا على الرجاجيل)

استدرك عبد الله على الفور ضاربا صدره بعنف: راجل من ظهر راجل

- وماذا تعني بقولك لا تشتهي تقبيلها

- أحيانا تتحول المرأة إلى شيء أقوى من غريزتنا شيء أشبه بالمقدس

- استغفر الله العظيم.. ماذا تقول؟.. المرأة هي المرأة.. قدسيتها أن تطأها وإذ لم تفعل ذلك فإنها تنظر إليك كالقلم الجميل الذي بلا مداد فجمالك هنا لاينفع.. فهمت

وعندما أراد عبد الله أن يرد أسكته أبو مريم وتأوه:

- إن مشكلتي الوحيدة هي المرأة، فأنا أعرفها تماما إنها بذرة الموت فحين تدخل أعماقنا ونتستر عليها تعمل بكل جد لإسقاطنا أحياء.

في تلك الليلة لم يكن يحفل بشيء، كان يرغب في أن يودع سره صدرا أخرا، تشعر أنه كان يبحث عن أرض يزرع فيها كل كره الدنيا لتثمر مناجلا تقطف النساء من حياتنا:

- سأقول لك قولا وعليك أن تعيه وإن استطعت حفظه عن ظهر قلب فذلك الخير كله: المرأة دودة تعيش في دمائنا، وسأبذر في صدرك كل الحقائق التي لا يتعلمها الانسان إلا بعد أن يصبح قريبا من القبر فإياك أن تنساها.

ولكي يستميل عبد الله بدأ في سرد لوعة الحب، والنار اللذيذة التي

تسري في العروق حين تعصف رياح الهوى وحين آنس تقاربا وأحس بأن عبد الله أصبح متهيئا لاستقبال ما يريد قوله تحرك به صوب زاويته، وانهمك في إعداد كوبين من الشاي. . .أخرج علبة الدخان، وأخذ يلف سيجارته متمهلا، وأشعلها من نار الدافور، ومزها حتى امتلأت أوردته بالدخان، ونفث دخانا كثيفا في وجه عبد الله ومط شفتيه مسترخيا:

- لقد اكتشفت بأن الحب أغنية هزيلة نحرص طوال أيامنا على ترديدها، مترنمين بها إلى درجة الافتتان، وفجأة نفيق على صراخ ينبهنا بأن أصواتنا نشاز، أو أن كلمات هذه الأغنية هربت من ذاكرتنا وغدونا نردد كلمات مفككة عندها نشعر بالألم، ونسفك بقية أعمارنا في استرجاع تلك الغفلة التي كنا نعيشها، إن استرجاعنا تلك اللحظات كمن يحاول إحلال الوهم محل الحقيقة، ولولا هذا الوهم لأصبحت حياتنا قذرة. . مرمى يستقبل جيف الأرض، ويعيش فيها، والحقيقة التي لا تعرفها إلا متأخرا هي زيف الحياة المعاشة عندها تتمنى لو أن حياتك بها قاذورات الدنيا كلها أفضل من أن تكون حياة كاذبة تعيش في داخلها وفجأة تكتشف أنك كنت لعبة غبية تتحرك بأيدي الآخرين وكما يشاءون

رفع صوته منبها بينما ظلت سبابته تركض في وجه عبد الله:

الرجل هو الذي يفضل أن يعيش حياة جافة على حياة رغده زائفة. . لا تظن بأنني رجل خرف يذرف الكلمات لتزجية الوقت لقد أفنيت عمري حتى بلغت هذه الحقيقة العارية. .إننا نعيش حياة سمجة يصنعها الأخرون، ونصعق عندما نكتشف بأننا حجارة لعب في أياديهم، مع العلم أننا كنا نعرف ذلك تماما ولكن في غمرة اللعب ننسى الحقيقة ونعيش في الوهم.

توقف أبو مريم عن استطراده، وناول عبد الله كأس الشاي، وأخرج سيجارة أخرى وأشعلها مستعجلا، واستوى في مواجهه عبد الله:

- بماذا تفكر؟

كان عبد الله ينكش الأرض بعود، وعندما سمع السؤال رفع رأسه فاترا في اتجاه محدثه:

- أشعر بصوتك يحترق وأنت تتحدث، ولكن لا أعرف لماذا تحمل هذا التشاؤم كله؟

- سأسمعك قصتي، بالرغم من معرفتي الأكيدة بأنني أعرض حياتي للموت، فالسر الذي لا يحمله صدرك لا يقوى على حمله صدر غيرك، ومع ذلك أجدني منقادا لأن أحدثك به، فقد تعبت منه واستحال في داخلي إلى خرابة أقتات منها لمواجهة ما تبقى لي من عمر، وقبل أن أسرد عليك حكايتي أريد منك أن تتعظ مما سأروي، أما حفظك لهذا السر فلن أجبرك على كتمانه فالدم الذي يغادر الجسد لا يعود إليه، أنت لا تزال صغيرا والحياة كابوس مخيف تتطلب منك أن تظل مستيقظا لا يهتز لك طرف.

وأطلق ضحكته الجافة في تلك الظلمة، وحاول جاهدا أن يبدو متماسكا، وهو يرتشف من كأس الشاي الثالثة لكن صوته خرج متحشرجا يكبح جماح نشيج أوشك على الخروج:

- أتريد أن تسمع أم أتركك تمضي في هذه الحياة تقتات وهمك حتى تموت

وكأن الجملة الأخيرة راقت له فكررها مرارا:

- نعم نحن نمضي في هذه الحياة نقتات الأوهام حتى الموت

تنحنح عبد الله:

- لماذا تخبرني؟

- لكي ارتاح

- هل تغامر بأن تسلمني سرا قد أنشره في كل مكان

- عندما تموت في داخلك تصبح الحياة موتا إضافيا تبددها بالحكايات، وأنا تعبت من هذا الموت الذي أحياه

- وكأنك تريدني أن أسمع لا غير.

- لا. . لا. . أريدك أن تفهم أنك حجر في يد الآخرين، وعليك أن لا تفض هامة من لم يقذف بك بعيدا عن أحلامك الصغيرة، أن مصيبتنا أننا قادرون على هتك قلوب الآخرين، وهذا هو الكابوس الذي نعيشه، والمرأة هي

السهم الوحيد القادر على اختراق قلوبنا الصلدة وتحويلها إلى طين نصنع منه المآسي كلها التي يعيشها الناس

رد عبد الله متضايقا:

- لا أتصور أنها بهذه الصورة التي تتحدث عنها

- بلى بهذه الصورة افتح عقلك لترى ما تحدثه المرأة في حياتنا، عليك أن تقرأ لتعرف، التاريخ مجازر نصبتها النساء، آه لو كانت كتبي معي لجعلتك تقرأ ماذا فعلت المرأة بالبشرية

- وماذا فعلت؟

- الحية والمرأة صورة لعملة واحدة، أخرجونا من الجنة ليعبثوا بنا في الدنيا

- حية . . . .

وقبل ان يكمل عبد الله حديثه جأر أبو مريم:

- تمنيت لو أنني رسمتها على ذراعي وأبقيتها لأتذكر سمها في كل حين

- هذه الليلة أنت على غير عادتك

- إذا أغتنم الفرصة واسمع ما سأقوله لك

- حسنا أعدك أن أكتم ما سوف تقوله ما حييت

- ليس مهما هذا. . المهم أن تنفذ من الشراك الذي ينصب لك

وقبل أن يبدأ في سرد حكايته، تحرك إلى صندقة صغيرة محاذية لصندقة السميري كان يخبئ بها راديو، أخذ يحرك موجاته حتى استقر على صوت العرب. .كانت أم كلثوم تغني بحرقة:

يالي كان يشجيك أنيني

وتمايل مع صوتها كثيرا، وأخرج تنهيدته الحارقة:

- إنها تبكي الحجارة التي يلعب بها الأخر ون

أحس عبد الله برغبة في التدخين، فطلب منه سيجارة، فصاح به:

- أو تدخن؟

- لا. .ولكن رغبت في ذلك

فصاح أبو مريم مولولا:
- هذه بداية المحرقة. .هذه بداية المحرقة
فيما كانت أم كلثوم تبحر بصوتها عبر ذلك الليل البهيم

حكايات عديدة جمعها وصاغها الراوي عن علاقة أبي مريم بابي حية

(إذا كان السر حملا ثقيلا أمكننا إيداعه بئرا في الليلة القادمة، ويجب أن يتم ذلك لدى اكتمال البدر، ليتمكن الشخص من رؤية صورة وجهه في ماء البئر، خلال الوقت الذي يستغرقه بوحه لنفسه.

ويجب الامتناع عن البوح إذا نبتت شجرة صفصاف إلى جوار البئر، فهي تسمع كل شيء وتعيد التحدث به كلما اشتد الهواء.[14])

---

(14) هذه أسطورة ذكرها خوليو اليوناني التقطتها من فم خالد السوري حين روى لي أن خوليو تأسف لمصير أبي مريم عندما علم بقصته وقال على المرء أن لا يفرط في أسراره في ليالي الصيف حيث تنبت في الأرض رياح رطبة تحمل ماء الأسرار الهزيلة وتكورها في بطنها لتصبح كارثة حينما تهب رياح الشتاء.
وخوليو اليوناني رجل قدم منذ فترة طويلة للحجاز ومكث في مدينة جدة للتجارة وفتح مكتبا للملاحة يربط بين التجارة القادمة من الهند والذاهبة إلى بقاع الأرض ويقولون انه فكر في دخول الدين الاسلامي لكنه تراجع في اخر لحظة حينما علم أن عليه أن يختتن ويغير اسمه فنكص خشية بوار تجارته وفساد عقود تجارية عقدت صفقاتها بمبالغ ضخمة سيفقدها لو انه غير اسمه.
وقال أبوطيرة مازحا: لم يخش على تجارته وإنما خشي على البلبل
وروى شيخ النجارين ان خوليو ابتنى موقعا ملاصقا لبيته وهيأه لأن يكون مكانا يطبب أمزجة ندمائه بنبيذ معتق يصله عبر البواخر القادمة من موانئ بومباى أو لندن.
وكذب ياسين السمكري قصة إسلامه وروى انه أبدى لندمائه رغبته في رؤية الكعبة المشرفة فاشترطوا عليه الإسلام فأبى ولم يعد لذكر هذه الرغبة بتاتا.
وعن علاقته بأبي حية حدثني شخص من أعيان الحارة - رفض أن أشير إليه من قريب أو بعيد - فقال:
- في إحدى الليالي وبينما كنا نرتشف كؤوسنا تطرقنا لسيرة الحارة فقال أحدنا أن أبا حية لو شرب البحر ما أصابه بلل السكر
فاستملح خوليو حكايته وطلب رؤيته والتقى به في ليلة من ليال العيد وتوطدت =

هل كانت تجاورهما شجرة صفصاف حين أخرج ماضيه في تلك الليلة؟

18

لا يزال أبو مريم يحدق في عبد الله الذي أخذ ينصت إليه بلا مقاطعة، فشجعه صمته لأن يمد حكايته بعيدا صوب تلك الأيام الأولى من فتوته، وقد تهيأ للحديث واخفض صوت المذياع المجاور له، وجهز كأسين من الشاي، وغرس سيجارته في فمه ومزها بلهفة. . ناول عبد الله كأس الشاي الخاص به، وأخذ يتحدث وكأنه يسترجع شيئا نائيا عنه:

- عندما تصبح رفيقا لليل تدخل من الباب السري للعالم، وتشاهد الأشياء عارية. . كل شيء عار، كل شيء يقدم حقيقته دون مواربة، ظانا بأن الليل بئر للأسرار العتيقة، بينما الليل يسرب تلك الأسرار. .آه كم من سر قاتل يخرج في الليل، يكفى أن آباءنا لفظونا من ظهورهم ليلا، الليل سر الوجود. .أسرار عديدة تسير على قدميها بين الأزقة الملتوية المظلمة. . همسة عاشق، تعرجات مسطول، حرص سارق، وجسارة خائن، وارتجافة خائف حتى القمائم لها أسرارها الخاصة فهي الشاهد الوحيد الذي نخبئه في بيوتنا،

= علاقتهما بسرعة ولم يكن يلتقي به إلا سرا.

وقد بدت لي أن الرواية الأخيرة التي رواها -من لم يرغب في ذكر اسمه - أنها رواية مدسوسة تحاول إيقاع أبي حية في أمر لم يعرف انه اقترفه في يوم من الأيام كما أن العلاقة ارتبطت بين أبي مريم وخوليو ولم يذكر أحد كيف التقى الاثنان وقد تطابقت الأقوال في أن خوليو قال لأبي مريم:

- اذهب للندن فستجد من يقدر هذه القامة الفارعة.

فضحك أبي مريم وردد:

- ماذا سيصنعون بي. .هل سيضعوني بابا لأحد العمائر هناك.

ويقال أن هذا الحديث حدث قبل مجيء خالد ابو العمائم وانقطعت صلتهما فيما بعد. فيما يذهب بعض العارفين ان تجارة خوليو ما هي إلا غطاء بينما حقيقته انه عين لاتنام . . . وكان يسعى في أحيان كثيرة لتصيد الأخبار ممن يظن ان ألسنتهم لا تبيت في أفواهها.

وعندما يدخل الليل نقذف بها في الطرقات المعتمة ونتوارى عنها وكأنها ابن لقيط نخشى أن يتعرف علينا الآخرون من التشابه الذي يربطنا بها، قد تضحك الآن في سرك من هذا الكلام الذي قد تظنه تخريفا، أو تزجيه للوقت أو أنني أحاول أن أبدو كأولئك الذين حصلوا على تعليم متقدم، آه بمناسبة التعليم كنت قد التحقت بمدرسة أقامها أحد التجار لأبناء مدينته وقد أظهرت نبوغا كان محل حفاوة مدرسي المدرسة لكنني توقفت لأعمل، الفقر عدو المعرفة حيث تجبرك الفاقة لقذف كتابك والبحث عن لقمة لتتبرزها في اليوم التالي، انظر إلى هذه المفارقة فأي كلمة دخلت رأسك لا تخرج منه بينما لو وضعت جبلا من الطعام في بطنك يتحلل إلى عفن، هذا العفن الذي من أجله نعيش، وسبيله فروجنا وبطوننا التي لا تمل من طلب هذا العفن، لن أطيل عليك، قلت لك أنه كان بالإمكان أن أصبح شيئا يذكر لولا الفقر والمرأة، هذان الشيئان عكرا حياتي وقاداني إلى العتمة ولولاهما لربما رأيتني في حال غير هذه الحال أو لربما أصبحت شاعرا ولما رأيت وجهك. .

وأطلق ضحكة رائقة، عندما أظهر عبد الله استغرابه:

- شاعر

- نعم شاعر لا تستغرب فقد أمضيت وقتا طويلا أستعير الكتب وأقرؤها وأقرض الشعر وأعرضه على الأديب حسين جعفر

- حسين جعفر شاعر البلد بأسرها. .يبدو أنك بدأت تدخل مناطق الخرف

- في أحيان كثيرة يلتصق المغمورون بالمشاهير ليظهروا أهميتهم، ولكنني ليس من هذا النوع فما اخبرك به هو الحقيقة، وإن كنت أومن بعدم وجود حقيقة مطلقة

- وكيف التقيت به؟

- كان جارا لنا وقد شجعني كثيرا لكن التي أحببتها لم تكن تكترث بما أكتب، كنت أسهر الليل أكتب بدمي قصائد لعينيها لكنها لم تكن تكترث بما أنسجه لها و في أحيان كثيرة كانت تقول: (دع هذا الكلام الفاضي)

وتركته وركضت خلفها وها أنا أجلس خلف الليل أتتبع أسراره وما تقذفه قمائمه وأظهر الصرامة وأحيانا الخنوع وأحيانا التسامح كلها كانت أقنعة أتخفى خلفها، اذكر أول ما قطنت هذا الحي بحثت عن عمل يبعدني عن عيون الناس، وبقيت وقتا طويلا ضيفا على أبي شنب بعد أن أوصاه بي عثمان السائق الذي نزلت معه من الطائف، وكنت كل ما أخشاه أن يعبر المقهى عابر سبيل فيعرفني، فكنت ألف شالي على وجهي دائما وأختلق الأعذار فمرة أقول أن ربما خبيثا أصاب فمي، ومرة أدعي حرقا أكل جلدي، أعذار عديدة كنت أختلقها لكل سائل وقد حمدت الله حين انتقل أبو شنب بمقهاه إلى هنا، ففي الموقف يمكن أن يعرفك أي عابر سبيل، أي أحد، والأشخاص الغامضون والمتوارون محطة فضول الأخرين، كنت أهرب منهم ومن أي شخص يحاول الاقتراب مني، كنت اخشى العيون السارحة في الوجوه أو الألسن الباحثة عن كلمات للمضغ اليومي، اعتزلت الناس وتحولت بينهم إلى كائن يشرب وينام ويحرس الأجساد المخبئة في بيوتها، أن ترتبط بصداقة يعني بداية لأن يتحول هذا الصديق إلى باحث في أعماقك، تبدأ الحكاية بكلمات والكلمات تنشط فضوله، وفضوله يتحول إلى إلحاح وخشية عليك من همومك التي تقوض فؤادك وفي غمرة الشعور بالصدق تفرغ قمائمك وتفتح صندوق أسرارك الذي أغلقته بسنوات طويلة من الغربة والانزواء، أذكر أن السائق عثمان كان يمر علي عند نزوله إلى جدة ويتمنى أن يقدم لي أي خدمة كإيصال رسالة، أو تبليغ سلام لأهلي في الطائف، وعجزت عن إفهامه أنني منبت لكنه في كل مرة يعيد رجاءه ظانا أنني أتحرج كي لا أتعبه وفي الحقيقة كان مدفوعا بفضوله يريد أن يعرف شيئا عن هذا الكائن الصامت، يريد أن يتسلى بحكايته في الخطوط التي يعبرها في سفرياته الدائمة، وربما كان صادقا في مشاعره لكنني كنت متهيبا من أي شخص وحريصا على إغلاق كل الطرق إلى داخلي، وكان مساعده (الصنبة) أخطر علي حين جاءني في إحدى المرات وقال أنه تعرف على شخص يعرفني في مقهى السلمانية في الطائف، وحمل لي منه التحيات، فأنكرت معرفتي بمن حدثني عنه لكن الغبي أراد أن يؤكد كلامه فسعى للحصول على شارة تذكرني بذلك الصديق، فكنت أتهرب منه دائما، ولم أنفك منه إلا حين

انتقل مقهى الشنب إلى داخل هذا الحي وأخبرت أبا شنب أن يبلغه أنني ارتحلت من جدة بعد أن اختلقت عذرا باردا استجاب له الشنب من غير أن يدخل في التفاصيل. . وجدت أن العمل في العسة سيريحني من تلك العيون الفضولية، فعشت داخل الليل ومع مخلوقاته، وعندما أعود من دوريتي استلقي في فراشي داخل المقهى وأنام، نادرا ما أتحدث مع شخص أو أرتبط معه بعلاقة، اذكر أن عيسى غريب تحرش بي مرارا، وسعى لابتزازي بمطالبته لي بتسديد قرض لم أقترضه كنت أظن أنه تعرف علي وأن تمحكه بي استدراج لفضيحتي فارتضيت أن أكون ضحية لابتزازه، ودائما ما كنت أتذكر مقولة حسين جعفر:

- الإنسان إذا ارتضى الذل يكون قد أصيب بالعطب ولم يعد صالحا للحياة

وفي كل ليلة أقرر مغادرة هذه المدينة لكن شيئا ما يمنعني من المغادرة فارتضيت الذل، وأمعنت في ذلك حتى تكشف لي أن الغريب لا يعرف عني سوى أنني رجل يمكن استلابه. . .

هذه الحارة البائسة كانت تنظر لي كبهيمة من بهائم الليل السائبة، وساعدتهم في تعميق هذا الظن، وتغابيت في كل شيء حتى القراءة ادعيت أنني لا أفقه حرفا واحدا، تصور فبدل أن أمسك القلم هاأنا أمسك صفارة وشومة وخوفا عظيما، هل تعرف أن الليل هو الوجه الحقيقي للحياة؟

ودون أن ينتظر إجابة من عبد الله أردف:

- هي حقيقة اكتشفتها من مصاحبتي لليل تلك المصاحبة التي استمرت ثلاثين عاما. . ولن أبتعد عن يقيني من أن الليل يخرج الأسرار العميقة التي قد تؤدي إلى مقتل أحدنا حينما يشاء له القدر أن يقف عليها وهي عارية.

توقف قليلا ودلق كأس الشاي في فمه وكأنه يحاول طرد مرارة نبتت في حلقه فجأة، وهمس لعبد الله:

- انتظر للحظات

وتحرك حافيا، تاركا شومته ملقية جوار دافوره الموشك على الهلاك من

كثرة الاستعمال، ومطلقا عدة صفارات متلاحقة، وصاح بصوت حاول تضخيمه:

- من هناك

وأخذ يتربص بالأزقة البعيدة للحظات، وعاد إلى مكانه، حين بادره عبد الله:

- أو هكذا تحرس الحارة؟

فأجابه ببرود:

- إن السنين الطويلة التي تعاشر فيها عملك تحولك إلى حمار لا يفقه سوى النهيق كلما ظن أن صاحبه موشك على ضربه

- الآن يراودني سؤال

- تفضل

- إذا كنت تحرس الحارة بهذه الطريقة كيف لمحتني وأنا منزو في المنور، وتظللني شجرة النبق

فضحك أبو مريم ضحكة جافة عميقة:

- أنت من الأسرار التي هربها الليل

- لم أفهم

- لم أكن أعنيك، كنت أبحث عن مسمار فأسقطك الليل على ظهري

- أتعني أنك لم ترني

- ولم أكن لأراك. .وليكن بمعلومك أن العين التي تنظر إلى الأسفل دائما لاترى الأعلى

- إذا هي حماقة ارتكبتها، وأسلمت لك أمري

- ليست بهذا الصورة، فأنت أحد أسرار الليل التي تم تهريبها كما قلت لك. .

وخبط بيده ساعد عبد الله، وهزه مترفقا:

- أحمد الله على تلك الصدفة فقد أكسبتك صديقا أنفس على مسامعه وساوسي

- يبدو أن الليل يفضحنا دائما

وسكب ضحكة أقرب للمجاملة:

- ألا تقول بأن الليل يهرب الأسرار، فليكن سرك هاربا من هذه الظلمة أيضا

فاسترخى أبو مريم قليلا، وأردف مستحسنا مقولة عبد الله:

- ها أنت تتعلم بسرعة

وأردف بلا إبطاء، وإن كانت نبرته استحالت إلى حزن عميق:

- نعم جاء دوري ليهرب الليل أحد أسراره المنسية

وعمق النظر في وجه عبد الله محتارا، ثم ردد متمما:

- ربما أسردها لك يوما ما، فما يدريك ربما يجمعنا قدر واحد

** **

وعندما جرحت تلك الفتاة عبد الله وأصبح ربيب الشوارع والأزقة الملتوية، وغدا يعرف بأبي حية تهابه القلوب وتنفر منه العيون كان إذا طوحت به السكرة والحزن عرج إلى زاوية أبي مريم وجلس يبادله اللوعة.

في ذات ليلة جلس الاثنان صامتين حين كان أبو مريم يلعب بمؤشر الراديو بحثا عن صوت العرب:

- الليلة ستشدوا أم كلثوم

- . . . .

- . . . . . في الطائف نحتفل بسهرتها مع مجموعة كبيرة ممن لعبت الأوهام برؤوسهم، في تلك الأيام كنت أعد نفسي لأن أكون شاعر البلد

استقر المؤشر على صوت العرب، وهطل صوت أم كلثوم حارقا يدفع لهيبا من الأشواق:

فات الميعاد وبقينا بعاد

تفيد بايهياندم ياندم

فأنصتا وهما يزفران آهاتهما من غير أن يتنبه أبو مريم ليد عبد الله وهي تدس في فمه قاروره يرتشف مستعجلا، وعندما أوغلت أم كلثوم في الجراح

انخرط أبو مريم في بكاء مر، وبعد وقت طويل من المحاولات التي بذلها أبوحية لتهدئته كفكف أبو مريم نشيجه وغمغم:

- الليلة سيهرب الليل حكايتي قررت مختارا أن أودعك هذه القمائم التي أركض بها من زمن طويل، إنها قمائم سامة فاسمعها ولا تخرج من صدرك مادمت حيا

وصمت برهة وعاد يتطلع في وجه عبد الله:

- أعلم انك مثل كل الكائنات تبطن نفسا أخرى. .لا يوجد شخص نقي البتة في هذا الكون لكنني بإرادتي أمنحك السيف الذي هربت منه عنقي منذ سنوات طويلة عليك أن تكون باترا حين تستخدمه.

تنحنح عبد الله معاتبا:

- وهل تظنني هكذا

وأبدى عتابا مرا وهو يردد:

- لا أريد أن أسمع منك شيئا

ربت ابو مريم على كتفه:

- يا صاحبي الصغير، الحياة لم تعلمك كل أسرارها فلا تنس أن تتعلم من كل تجربة تمر بك، وما قلته لك لم يأت من فراغ فقد علمتني الحياة أن الإنسان هو صورة مكررة في كل زمان ومكان ولا يمكن لصدره أن يغلق مدى الدهر، سياتي يوما ما وتعيد ما أقول، يكفى أن تعيده على نفسك لتعلن أن شخصا في حياتك أسير رعونة لسانك، فأسرارنا تنتقل لتكتب التاريخ، ألم تسأل نفسك كيف يتحرك الزمن، إنه أحداث نتناقلها ونصنع بها جرائمنا وحروبنا وأفراحنا ونكتب نهاية بعضنا بتلك الأسرار التي نتناقلها

رد عبد الله حازما:

- كفى. .لا أريد أن أسمع شيئا

- أنت لا تريد لكنني أريد، ويبدو أن هذه الإرادة الملحة هي سر الوجود، سر أن نواصل ذبح بعضنا فحين نقف في نهاية زماننا يكفي أن نتذكر أننا فرطنا فيما كان يجب علينا ألا نفرط فيه، ومن هنا يأتي الموت، لا عليك

ستفهم فيما بعد، والآن لا يهمني أي شيء الذي يهمني أن تصغي لما أود قوله.

وأخذ يسرد سره الذي ضاق به صدره.

استكمال لما رواه أبي حية للراوي عن علاقته بأبي مريم

أثيرت حولي أقاويل كثيرة، ولم اكن آبه بها، كنت أشعر بعيونهم تخترق قحف جمجمتي ولم ابالي، وفي ليلة مظلمة داهموني، بعثروا أوراقي ولم يجدوا شيئا يذكر..كانت صورته فقط معلقة بداخل غرفتي يبادلهم النظر بابتسامته العميقة ونظرته الحزينة

صرخ أحد الأفراد:

– انظروا هذه صورته

كانت هذه الصرخة كفيلة بجعل كل العيون تقفز من محاجرها التصقت بوجهي عدة صفعات، وتم سحبي من ترقوة ثوبي.

هذه أول حادثة أتعرف من خلالها على السجن، ومن ثم تساقطت حبات المسبحة

** **

أمي تغطت بالتراب في أول عام سجنت به، وأبي آنسته امرأته الثانية حياته الأولى، وعندما خرجت علمت أنه تبرأ مني وأن اثنتين من أخواتي ذهبتا مع زوجيهما إلى مدن في أطراف البلاد، وبقيت الصغرى خادمة لزوجة أبيها، وأنا لا أحد يريد أن يعرفني حتى تلك الفتاة التي كنا نتبادل النظرات من نافذتينا تزوجت أحد رفاقي الذي كان يوصل رسائلنا.

– لا أحد ينتظرك حين تؤوب.

عندما افكر في مها هل أعيد قصة صديقي الذي منحته سري، وبدل أن يوصل إليها أخباري، تزوج منها؟

19

يكفي أن تقف خلف الروشان لتتحول حارتنا إلى عيون هائمة بين تلك الشقوق الضيقة باحثة عن سواد عينيها، كان الشباب يجتمعون في تلك البرحة

المطلة على منزلهم ممنين أنفسهم بلمحة عابرة وعندما تخرج لزيارة إحدى جاراتها، كان ظهورها يحملنا جميعا لأن نظل نذكر الله مرارا دهشة لتلك المخلوقة التي لا تشبه النساء، مرة حين رآها أحد المسنين قال:

- والله ما أظنها إلا حورية أرسلت إلى الأرض لتعلمنا مقدار بؤسنا مع نسائنا

تلك الجملة التي تضاحك لها جلساؤه انطلقت بين الأفواه وأصبحوا يلقبونها بالحورية. كانت أنثى كاملة لا تستطيع الكلمات أن تفيها حقها من الوصف، فالكلمات مع جمالها تتحول إلى أسمال بالية وقصيرة لا تستطيع أن تغطي تلك الفتنة التي منحها الله لها، وكانت تعلم مقدار فتنتها فإذا خرجت تريثت في مشيتها وتثنت بقدها تاركة أردافها تتموج جارفة تلك العيون المحلقة بها.

كنا جميعا نحلم أن تحضننا عيناها، حتى ادعى كل واحد منا أنها تحبه دون سواه، فلم تكن بخيلة صارمة كانت لينة تمنح كل واحد منا ما يشعل الحرائق في داخله وتزوده بحلم يطير بمخيلته كما لو كان المعشوق الأوحد، حتى استطاعت أن تجمع حولها مائة قلب، كانت كل تلك القلوب تخفق باسمها، وتنام محتضنة خفقانها وخدرها اللذيذ.

وبتوزيعها الأحلام على قلوبنا الفتية كثر المتنافسون للوصول إليها، كنا نجلس بالعشرات في برحة تقابل منزلها وكل عين تحاول أن تخفي خلساتها السريعة للروشان الذي تقف من خلفه تلك الحورية الفاتنة.

انتعشت البرحة بوجود أولئك الفتية المتجمعين، فكثر صخبنا، كما كثرت نكاتنا ومشاجراتنا، كان كل واحد منا يفتعل أي شيء ليدخل في معركة حامية ليثبت لتلك العينين المطلتين علينا من خلف الشيش أنه الأجدر بها.

ففي شرخ الشباب تستحيل المرأة إلى هاجس أوحد، وتغدو إثباتا للذات والرجولة معا، وفى تلك المعارك الضارية التي كنا نفتعلها لم تكن تأبه بمن يحقق انتصاراته في تلك الحروب الصغيرة لأنها التزمت الحياد حيث كانت تمنح الجميع (منتصرا أو مهزوما دميما أو وسيما) فرصة أن يظل قريبا من أحلامه

التي زرعتها في داخله في كونه حبيبها الأوحد.
ولا يوجد مستفيد من هذه التجمعات سوى العم يوسف صاحب الدكان الوحيد في تلك البرحة حيث كان يرفض أن يجلس أي شخص أمام عتبة دكانه ما لم يشتر أي شيء مقابل مكوثه في تلك الواجهة التي تجعل المرء في مواجهة مباشرة مع الشيش المطلة منه، ومع الأيام لم يكتف بذلك فقد زاد في سعر المشروبات الغازية لمن يريد أن يشربها فوق المنصة التي وضعها في مواجهة الشيش مباشرة.
وقد عرف الباعة سر تلك البرحة فتسابق إليها بائعو اليغمش وحمام البر والمنفوش، و(الآيسكريم) للبحث عن مكان بتلك البرحة التي تضج بأحلام أولئك الفتية.
كنت من ضمن أولئك الشباب الباحثين عن عينيها، ولم يكن يعيبني عن بقية أقراني إلا فقر مدقع ضرب أسرتنا، وتوارثناه جيلا بعد جيل، ولهذا السبب كنت أبدو بين أقراني الأقل حظا في الوصول إليها، هذا العيب تحول مع الأيام إلى حافز لأن أصل إليها، فاجتهدت في تعليمي وتفوقت، كان هذا التفوق يمكن أن يثمر عن شيء ما لولا فقري الذي جعلني أبحث عن عمل يقيني أنا وأمي مد اليد فتوقفت عن التعليم والتحقت صبيا في أحد المناجر، ولكي أكتسب تميزا في الحارة أخذت أنظم الشعر وأردده بصوت مسموع حتى اكتسبت لقب شاعر من قبل أقراني ولم يهنأ بالي إلا حينما أشاد بي حسين جعفر شاعر الحي (على ذكر حسين جعفر لقد نظم قصيدة ميمية يتغزل في جمالها فحضي هو أيضا بقليل من رضاها)
لأكمل لك القصة وأقول لك أن تميزي بالشعر لم يرفع عني لحاف فقري وتفاقم احساسي بالمرارة عندما نعتني خالد أبو العمايم على مسامعها و بصوت مرتفع:
- من الخير لك أن تبحث عن عمل يسد جوع والدتك العمياء بدل التحديق في أسيادك
فغصت في خجلي، ولم أجرؤ على التطلع صوب عينيها المبثوثتين إلينا، حينما أحسست برغبة ملحة للمشاجرة مع هذا الوغد الذي كسر اعتدادي

بنفسي، فكورت يدي وألقيتها في وجهه بكل قوة، خيل إليّ أنني سمعت تصفيقا انبعث من خلف الروشان، فتعاركت معه وداخلي إيمان عميق أنها تناصرني وتنتظر مني أن أسحقه، وما أخذ كل منا بتلابيب الآخر حتى تجمع حولنا الشباب في نصف دائرة مطالبين بإراقة الدماء، كانت صيحاتهم تملؤني خوارا وتراخيا:

- علم ابن العمياء أن لا يحلم بعيدا عن عصا أمه

في عراكي معه كنت أسمع الصيحات كلها ضدي، وكان خاطري مشغولا. .ما الذي دفعني لمنازلة هذا الفتى الثري، والواقف خلف أعوانه، فلو أني سحقته فلن أنفك من هذه الجمهرة التي تدين له بكل الفضل في ألعابها المختلفة، فهو من يمدهم بالمال في أي احتياج يشعرون به، وآخرها قيامه بتجهيز فريق الحارة بكل ما يلزم من كرة (فرتابول) وفانلات.

كانت ضرباتي رخوة أكثر من اللازم فتمكن من تسديد كثير من اللكمات الصائبة على وجهي فطفر الدم من بين أشداقي، عندها تمنيت لو يتقدم أي شخص لفض هذا النزاع وإنهاء هذه المعركة التي ستقضي علي قبل أن تقضي على أملي في أن أظل في عين آمنة فتيا يمكن أن تعتد به إلا أن أحدا لم يتقدم لإنهائها بل تجمهروا وأشعلوا فتيل حقده علي فكان يسدد اللكمات المتتالية فأتقهقر، وألوذ بالركن الذي حشرت به متكورا على نفسي بينما كانت ضرباته تصلني تباعا بصورة مركزة.

كان خجلي مضاعفا حينما خسرت معركتي مع خالد الذي تلقفني بيده وحشرني في إحدى زوايا الشارع، وأخذ يهيل لي اللكمات والصفعات حتى لم أعد قادرا على الاحتماء من ضرباته الساحقة والتي انهالت في معظمها على وجهي حتى أنني لم أعد أميز تلك الأصوات المتداخلة، أو الوجوه المتلذذة المطلة علينا حتى غدونا ككبشين خارت قوى أحدهما فلم يجد الآخر بدا من مناطحة جثة أخذت تترنح وتحاول أن تتفادى نطحاته المسددة والمتقنة، وعندما لم يعد في ما يغري على الصمود تركني أهوي من بين يديه كخرقة بالية وتطلع صوب الروشان باصقا، ولاعنا فتوتي الرخوة.

بعد هذه الواقعة اعتزلت الخروج والمكوث أمام روشانها، وقد تطاير خبر عراكنا إلى مسامع أمي فجاءتني تتلمس بعصاها موقعي، لم تقل شيئا قربت رأسي من صدرها، ومررت يديها على رأسي، فلم أتمالك نفسي من البكاء، كانت أوهن من أن تسندني أو تخفف نشيجي الذي ارتفع، فدفعت رأسي عن صدرها ونهضت تحمل عصاتها، لتتكوم على سريرها الرث، تغالب بحة نبتت في حلقها فلم تمكنها من الحديث معي، كانت تغمغم بشيء لم أدرك فحواه، وان كنت أظن أنها تردد جملتها الدائمة:

- أعوذ بالله منك مثل قنو الموز ما ينحني إلا ليقتل أمه

فجأة نهضت من سريرها واقتربت مني، ووقفت على رأسي، وأخذت تنثر الكلمات:

- عندما تقف في عراك عليك أن تعرف مع من تتعارك. . فخالد أبو العمايم ابن أحد وجهاء المدينة إن ضربته كنت خاسرا لأن أباه لن يسكت عنك، وان ضربك امتطى ظهرك ما حييت

كنت صامتا وهي تحكي عن عوزنا واحتياجنا تلك الأيدي التي تمد فضلها، وإحسانها إلينا، وكلما أمعنت في الشكوى وحاجتنا إلى حسنات الآخرين زدت كرها للأغنياء، وكان الحل الوحيد للهروب من كلماتها المسمارية أن أصعد إلى السطح من غير أن تشعر بى، فتسللت بهدوء، وارتقيت سطح غرفتنا الوحيدة ومكثت هناك أتسلى بجمع ما استقر على ذلك السطح من خردوات عديدة، ويبدو أنها أحست بغيابي فأخذت تصيح:

- أبوك تسبب في فقد بصري وأنت سوف تتسبب في موتى. . والله كأنك قنو موز لا تنحني إلا لتقتلني.

بقيت في دارنا لا أبرحها خوفا من أن أخرج فتتلقفني الألسن وتعيرني بما حدث، وكان الخوف الأكبر أن أخرج فلا أرى عينيها بعد تلك الإهانة التي لم تبق في داخلي أي رغبة في التحديق صوب عينيها المرسلة في الطرقات، ولم يعد يعذبني سوء إلحاح أمي الذي لم يمل من مطالبتي بالخروج، فقد امتنعت عن قضاء حاجياتها فاستعانت بأبناء الجيران الصغار في جلب ما تريد، كانت

تأتيني وتتلمس جسدي حتى تمسك بشعر رأسي وتهزني:

- لم أعرف بأنني أنجبت بنتا. . .

وعندما لا تجد استجابة لثورتها الغاضبة تغادرني محولقة ومستغفرة الله من هذا الذنب الذي ابتلاها به.

في إحدى العصاري كان صبي يقف على بابنا، ويهمس لي:

- تسلم عليك آمنة وتقول لك: (ياهوه وحشتنا)

لم أصدق أذني، ونقدت الصبي أربعة قروش دفعة واحدة، وأوصيته أن يخبرها بأنني سأكون في البرحة بعد لحظات، وقمت بالانشغال بغسل ثوبي الوحيد، وتجفيفه وخلال هذه المدة كانت وساوس شتى تبحر في مخيلتي، فراودني إحساس بأن هذا الصبي شرك أعده أبو العمايم وصحبه ليهزءوا بي، وتخيلت نفسي أضحوكة أمام الشباب الذين لا شك أنهم ينتظرونني ليخرطوا كل سخرياتهم على رأسي، وعندها لن أستطيع أن أكون جديرا بشيء، فعدلت عن فكرة الخروج، واكتفيت بذلك الشعور اللذيذ الذي أخذ ينساب في أعماقي لمجرد التفكير بأنها هي التي أرسلت الصبي.

في اليوم التالي جاءني الصبي نفسه حاملا قطعة (منفوش) ومدها إليّ قائلا:

- أمون تسلم عليك وتقول لك: لم تستطع أن تأكلها لوحدها فوهبتك نصفها، وتعتب عليك لأنك لم تخرج لرؤيتها كما وعدتها.

تناولت قطعة (المنفوش)، ولم أجد في جيبي ما أمنحه لذلك الصبي، وهممت أن أمنحه إحدى حلل البيت، ولكنني تراجعت حينما لمحت أمي تتساءل عن الطارق، فرفعت صوتي مجيبا أنه أحد الأصدقاء جاء لزيارتي، فتراجعت وهي تغمغم مستهزئة:

- لاتنس أن تخبره بأنك احتجبت

لم أكترث بسخريتها، وجذبت الصبي جانبا، وهمست له:

- بلغ أمون سلامي وقل لها أن ترسل معك شارة

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الصبي، وهو يحمل (مسفعا) برتقاليا

لطالما رأيته يجمع خصلات شعرها المتطايرة، ولم يكتف ذلك الصبي بهذه الشارة بل أردف قائلا:

- تقول لك أمون وشارتها الثانية أنها رمتك إحدى المرات بلوز بجري

أيقنت عندها من صدق الصبي، ومنحته قدرا كنا نطبخ فيه حين يوزع علينا لحم العيد، وركضت صوب سحارة أمي وأخرجت منها قطعة قماش حصلت عليها من إحدى السيدات المحسنات، وأوصيته أن يعطي آمنة قطعة القماش كعربون محبة، وعندما غادرني قفزت عاليا أضم جسدي بفرح غامر. وارتديت ثوبي، وخرجت والثقة تملأ كياني. كان الشباب مجتمعين بتلك البرحة وعيونهم مبحلقة باتجاه تلك العينين التي ترسل سهامها من خلف شقوق الروشان الضيقة، وعندما رأتني مقبلا هزت بيديها، فرددت على إشارتها بإشارة مماثلة لأشعر أن كل من كان حاضرا يهم بسحقي.

مارواه أبي مريم عن عشقه لآمنة

أمثالي هم من يقعون فريسة الكوارث العظيمة،

فنحن اشبه بالفراش الدائر على ضوء لهب متصاعد

فمع أول دورة نكون نهبا لذاك الحريق المعد.

بدأت حياتي قارئا لنظريات صنعت في موقع لايشبه موقعنا فعلقتها على صدري وسعيت بعشق لأن أضع لبنة أخرى في الكون

كنت اتخيل أنني أحد الأبطال الأسطوريين الذين سيزفهم الزمن لدرجات المجد

كانت كل الكتب التي قرأتها تغريني بذلك، ومع فورة الشباب اندفعت كنت أدور حول اللهب فوقعت مع اول شرارة مستتني.

ولم أكن قويا أو تقيا أو نقيا لقد تلوثت بكل قاذورات تلك النظريات التي قرأتها. إننا مساكين نسير وفق رغبة الآخر.! !

20

توقف أبو مريم عن سرد حكايته وأخذ يبحث عن سيجارة بين أشيائه المبعثرة في داخل تلك الصندقة المنزوية بين جدارين والتي تفوح منها رائحة

الدمن، بينما كانت أم كلثوم لا تزال تبحر بصوتها في ذلك الليل البهيم، وعاد إلى موضعه واضعا سيجارة على أذنه اليمنى بينما الأخرى مغروسة في فمه، وانحنى على الدافور لإشعال سيجارته تاركا عبد الله ينظر إليه بكثير من الدهشة، كان مسترخيا ينفث من سيجارته ويمزها مرارا حتى امتلأت رئتاه بدخان كثيف أخذ يطلقه على دفعات، ويتابع تموجات الدخان المحلقة على ضوء مصباح البلدية فأحس عبد الله بشيء من الغيظ، فخرج صوته متبرما:

- وأين السر في هذه الحكاية التي أسمعتني إياها؟

اعتدل أبو مريم في جلسته بهدوء بحيث أصبح وجهه في مواجهة جليسه، وكور يده واطلق سبابته في وجه عبد الله:

- إذ رغب شخص ما في إخبارك بسر فلا تستعجله. .فربما ظن أنك تستخف بما يراه جليلا، أو أن يظن أنك لست أهلا لأن يمنحك سره، فكل إنسان يحس أنه مر بعذابات لم تمر على أحد سواه تجده يستملح رواية التفاصيل الصغيرة وربما يعيد لك الحادثة أكثر من مرة متناسيا أنه يثقل على سامعه. . .ربما أثقلت عليك قبل أن تسمع ما أود قوله وهذا خير فلنتحدث في أي أمر آخر

وكمن أحس بشيء من الذنب أخذ عبد الله يعتذر اعتذارات تكاد تكون أشبه باستعادة حجر قذف عشوائيا في إحدى البرك الراكدة فعكر ماءها:

- عذرا إن أخطأت التعبير أو استعجلت، فما تفوهت به حكاية كل الشباب

- هذه هي العجلة. .اعلم أن كل القصص وان تشابهت في تفاصيلها إلا أن لها طعما خاصا عند صاحبها، وقصتي التي لم أكملها نار تتلظى مضى على اشتعالها ما يزيد على ربع قرن ولا تزال تتأجج في داخلي. .ولست نادما على إخراجها الآن فقد اكتويت بها زمنا طويلا وآن لي أن أرتاح من شياطها الذي أحرق أيامي كلها. . .

- اعتذر بشدة

- لولا رغبتي في أن أحدثك بقصتي لتوقفت

- حسنا ستجدني منصتا

- أرجوك أن لا تقاطعني دعني أتحدث كيف شئت، ولا تقترب مني إذا أنا بكيت الزم الصمت حتى استعيد هدوئي وأكمل لك قصتي، وإذا شعرت بالملل اتركني وامض.

استجاب عبد الله لتلك الوصايا ولزم الصمت بينما نهض أبو مريم ليملأ كأسه من براد تفحمت مؤخرته، ورشف منه متلذذا وأطلق صفارته لتدوي في ذلك السكون، وعاد إلى موضعه متأوها مع صوت أم كلثوم:

فات الميعاد وبقينا بعاد.. بعاد

- على فكرة أم كلثوم تأجج نار العاشق، ونصحيتي أن لا تستمع إليها إذا أردت أن تنسى حرائق الماضي

- ولماذا تستمع إليها أنت

- أنا لا أستطيع النسيان فما حدث في حياتي لا ينهيه إلا الموت

- الموت

- نعم الموت

وشخص ببصره في تلك العتمة مرددا تلك المقاطع، وفجأة أخذ ينتفض في نحيب مكتوم كانت هنهنته كفيلة بسماعها من على بعد.

ما رواه أبي حية عن عشق أبي مريم لآمنة

عندما يرن اسم الطائف في أذني أتذكر الردف، وشبرى، وجبل الحبالى وبساتين نجمة، والأغنيات الهاربة من حناجر الصبايا وحكايات العشاق في غدير البنات، وقرى تنام على خاصرة جباله وشيء له طعم الفرح.

مع اسمه تنبت في مخيلتي كرومه ورمانه وتينه، ونسمة عليل أحيتني في إحدى بساتينه ذات مساء، وحين التقيت بأبي مريم

لم أعد أتذكر إلا دما يسيل في شوارعه كالطوفان

21

تزوجت آمنة.

كان عمري آنذاك واحدا وعشرين عاما على أبعد تقدير، فبعد أن خطبت وجدت نفسي فارغ اليدين ولم أجرؤ على مفاتحة والدتي بنية كانت تعترك في داخلي، وخوفا من أن تبطل هذه الفرحة التي شبت في أعماقي، أخبرتها بأنني وجدت عملا أفضل من العمل صبي نجار، كانت ضخامة جسمي، وغلظة صوتي تؤهلاني لأن أعمل حدادا، وسرعان ما التحقت بهذه المهنة إلا أن دخلها كان يقضي أن أمضي أكثر من ثلاث سنوات لجمع المهر، وكانت شهادتي تؤهلني لأن أعمل في إحدى الدوائر الحكومية خارج مدينتي، وخوفا من ضياع محبوبتي قررت أن أبيع بيتنا من غير أن تعلم أمي، وتمت المبايعة بيني وبين عمدة الحي ورجوته أن نبقى في الدار مقابل إيجار شهري فوافق على ذلك، وتقدمت بثمن البيت مهرا إلى أم آمنة التي كنت أغريها بالهدايا المتتابعة، تلك الهدايا التي كانت تحصل عليها أمي من المحسنات فأسرقها من (السحارة) ومن غير علمها أبدلها بخروق بالية.

وتقرر موعد الزواج. كان زواجا باهظا كلفني ديونا ظللت أحملها لوقت طويل، فلم تكن آمنة وأمها يرضيان باليسير، كان علي أن آتي بما لم يأت به من سبقني من شباب الحي، ولقد علقت أمي على هذه الطلبات المتلاحقة بمعارضة مبطنة:

- يا ابني من يجلب لك التعب لا يسعى إلى إسعادك، والرأي أن تترك هذه الفتاة قبل أن تورثك الذل.

فأصممت أذني دونها، ومضيت أستدين ممن أعرف ومن لا أعرف فأستدين من الأشخاص الذين لا أعرفهم بواسطة من أعرفهم، كنت مستعدا لأن أحمل الأرض على كاهلي مقابل أن أصل إلى تلك المخلوقة العجيبة التي تغريك لأن تمضي لجمع ذهب الدنيا بأجمعه لتضعه بين يديها، وقد كانت نصيحة أحد الأصدقاء وبالا علي حيث أوصاني باستمالة عمتي بأي صورة كانت، فعملت على ذلك بجلب كل ما تطلبه دون أي اعتراض حتى وإن

كلفني أمورا لا أطيقها ولكي أظهر أمامها بما يخرس ظنونها، ادعيت أن لنا أموالا وعقارات مترامية ورثها لنا أبي ونعته أنه بحار عتيق جاب الموانئ وادخر مكاسبا عظيمة عند شريك له في مدينة جدة، وادعيت أيضا أن أمي دفعتنا لحياة الشظف كي أعرف قيمة المال حينما تؤول تلك الثروات كلها لملكيتي، كانت أكاذيب متوالية لا أدري كيف انسقت لها، وبعد هذه الادعاءات لم أعد أدري كيف أوفي بطلباتها المتلاحقة، كان همي الوحيد الظفر بابنتها ولتعرف حقيقتي بعد ذلك، وأوشكت أن تضع أمام زواجي من ابنتها عقبة كؤودا حينما اشترطت أن أكتب لابنتها بعض العقارات قبل إتمام عقد النكاح، ولم أستطع أن أتملص من هذا الشرط إلا بكذبة أخرى حينما أكدت لها أن جميع الحجج تحتفظ بها أمي في مكان ما من البيت وأنها كتبت وصية تخبرني بمكانها أسلمتها خالي ليعطيني إياها إذا قرضتها الحياة. .ولم أكن أعلم أنني أحفر قبرا لأمي بكل هذه الادعاءات، ولم تفوت فرصة استكتابي على بيع أربعة منازل في مدينة جدة، فوجدت نفسي أحرر لها حجة بثمان منازل ولمعرفتي أنها ستسلمها لمن يقرؤها فتركت ملاحظة حفزتها كثيرا لإتمام زواجي من ابنتها، فقد كتبت أن جميع ما أملك من عقار ومال يذهب مناصفة بين حبيبتي وزوجتي آمنة وأمها مهدية ابنة يوسف الجمير، وقبلتها على مفرق رأسها، فنهضت متثاقلة وعادت أكثر بشرا مما مضى، وتزوجنا.

كان زواجنا مثار دهشة الكثيرين، وخاصة أولئك الشباب الذين كانوا يظنون أنفسهم الأقرب إلى قلبها.

في ليلة العرس كانت التهاني تصلني بصور شتى فيها كثير من الغمز واللمز، ولم أكن مكترثا بكل تلك النظرات التي كانت تحدق بي، وتضحك سرا من قيافتي التي أبدتني كأحد المتسولين عثر على ثوب في إحدى القمائم فرتقه وخرج يسير به مزهوا.

كان عرسا بائسا فبالرغم من الاقتراض الذي اقترضته إلا أنني لم أستطع أن أقيم عرسا كبيرا كما كانت تتخيل عمتي فقد اقتصر على قلة من أبناء الحي، وقد بلغني تحقير أهل الحي حيث لم أستطع أن أدعوهم فاقتصرت دعوتي على المقربين مما حملهم على مقاطعة هذا الزواج، فلم اكترث، وقد أبديت عدم

رغبتي بهم أمام أحد المسنين فقام بنشر ما قلت ليتناقله الجميع.

في ليلة العرس اقتصر الحفل على قلة من الأصدقاء وخالي وبعض زملاء المهنة وكنت حريصا أن يكون العمدة حاضرا ليمنح العرس هيبة فذهبت إليه ورجوته الحضور لكنه اعتذر متحججا أن هذا الزواج يجلب الذل له ولن يتبرع بالحضور من غير أن يكون هناك أحد من أعيان الحي ولم ينس أن يذكرني بأنني رغبت عنهم فرغبوا عني وفي زفتي وقف في طريق الزفة ذلك الرجل المسن، صائحا:

- ابن العمياء نجس فلا خير في من يسير في زفته

فانسحبت مجموعة كبيرة ممن كانت تسير في زفتي، حتى أن (الجسيس) حسين أمان أوقف إنشاده واعتذر عن مواصلة السير مع موكب الزفة كان ذلك حين طالبته بإغداق المديح لشخصي ووعدته أن أنقده مبلغا يحلم به في البدء أبدى الموافقة وحين أعلم أن الأمر مؤجل رفض، فحاولت إقناعه ليصيح:

- يا أخي ليس عندك شيء يستحق الذكر، فهل تريدني أن أكذب

ومضى ساحبا معه مجموعة من (الدقيقة) وتجاوب لانسحابه بقية من السائرين معي حتى أن حامل الاتريك تركه على قارعة الطريق وانسحب وظللت وقتا طويلا أتوسل بمن حضر أن لا يخذلوني في مثل هذه الليلة، وأمام هذا التوسل حمل الاتريك الكناس، وقبل أن ننعطف إلى زقاق بيت العروس لمحت خالد بازغا من أحد الأزقة ينغزني بكلماته:

- آمنة غنيمة لجميع فحول الحارة

شعرت بالدم يتدفق في أعلى رأسي وكدت أن أدخل معه في عراك لولا أن دفعني من كان يسايرني، وعندما لم ألتفت إليه أمعن في شتمي وتحقيري، ولم يشغلني كلامه كثيرا حيث كنت موقنا أن أهل الحارة بأجمعها يحسدونني على اقتراني بآمنة.

في أول ليلة من عرسي شعرت بالمهانة فقد أصرت أمها أن ترافقها إلى بيتنا وفي الطريق كنت أسمعها تشتم، وتحرض ابنتها على العصيان، حدثتها بلين:

- ما الذي يحملك يا عمة على كل هذا؟

فصرخت بحدة:

- عمة، عمى يعميك أنت غشيتنا

- غشيتك، بماذا؟

- يقولون أنك لا تملك شيئا حتى البيت الذي تسكنه ملكا للعمدة

شعرت برغبة في شتمها أو منعها من السير معنا لكن آمنة كانت دائما تقف في البال، فاضغط على أعصابي وأتودد إليها بكلام معسول:

- كل ما سمعتيه كذب وسوف أبرهن لك على هذا

حرنت ودلت لسانها ككلبة تستعد للعواء:

- الله يلعنك ويلعن الساعة التي رأيتك فيها

أحسست برغبة في خنقها، تماسكت بصعوبة وتوددت:

- سأجبر أمي على إخراج الحجج، والآن اهدئي ولا تعكري فرحتنا

فاشتطت غضبا وصاحت:

- أنا أعكر فرحة ابنتي

- قولي ما حدث بلا صراخ

فمها لا زال يرغي وعيناها تفيضان بكره بغيض:

- الذي حدث أنك تحمل آمنة لبيت العمياء، أين ما وعدت به

- وما الذي وعدت به؟

لكزت ابنتها متشفية:

- ألم أقل لك أنه كان (يتدحلب) حتى يصل؟

- سيكون كل ما تأمرين به رهن إشارتك

واقتربت منها وقبلت رأسها، فدفعتني عنها متضايقة، وواصلنا السير صامتين، فيما كان خالي يبربر بصوت متحشرج جعل عمتي ترفع صوتها عاليا:

- كل السبب منك يا آمنة

وحين بلغنا البيت حاولت إدخال زوجتي إلى داخل الصندقة التي ابتنيتها بجوار غرفة أمي، فجذبتني أمها وخبأت ابنتها خلفها واستقبلت وجهي

استقبالا مشينا، وأخذت تصيح وأنا أرجوها أن تصمت وهي كريح صرصر تعوي:

- فضحتنا بهذه الزيجة، ابنتي لا يسير في زفتها إلا القمامون والحدادون وآخر المطاف تدخل صندقة

فرجوتها أن تصمت وسحبت يد زوجتي فامتنعت وكان يدور في خلدي أنه حياء العذارى، أو انتصار لأمها فأمسكت يدها متوددا، كانت تبدو ساحرة بتلك الشرعة التي غطت وجهها فزادتها ملاحة، وعندما جذبتها تملصت من يدي:

- مثلي لا يدخل (الصنادق) وأنت تعلم بأنني كنت أستطيع أن أسكن القصور

شعرت بالبرودة تخترق مفاصلي ولم أجد ما أقوله لها سوى البحث عن إرضائها، فأقسمت أن لا أدخل بها في هذه الصندقة.

وقضيت ما تبقى من الليل استرضيها، واسترضي أمها، كانت أمي تقف من بعيد وصوتها يصلني بين الحين والأخر:

- كن رجلا واكسر شوكتها

فيزداد هياج عمتي فتبادلت هي وأمي السباب فكنت محتارا في إرضاء أي منهما، وأمام فتنة زوجتي صحت في أمي وأدخلتها غرفتها، فدخلت وهي تبكي بحرقة مما جعل خالي ينسحب وهو يشتم الرجال من أمثالي:

- والله لولا العيب والفضيحة لأنزلت حذائي هذا على رأسك

وخرج وهو ويقسم أن لا يعود لرؤيتي أبدا، فلم أكترث به كثيرا وطفقت أتوسل آمنة لأن تريني عينيها عن قرب، فجمحت نافرة، واقتعدت طرف السرير، وهي بكامل زينتها، بينما وقفت عمتي في مواجهتي تمطرني بلسانها السام.

وظللت استرضي عمتي وأذكرها أن آمنة لو عادت فستمكن الجميع من التحدث عنها وسيقولون لم تعد إلا لعيب رآه زوجها بها وان من الخير أن تقضي ليلتها ليعرف الجميع أن آمنة مهرة لم تمكن أحدا من امتطائها إلا زوجها

فوافقت أن تعود إلى بيتها بشرط أن تنام زوجتي بغرفة أمي، وأمام هذا الشرط دخلت على أمي متوددا وباكيا ورجوتها أن تخلي غرفتها فزاد نحيبها وخرجت منكسرة لتسمع عمتي تصيح بها:

- وغدا تخرجين من البيت

فلم تجد سوى البكاء وهي تمد عصاتها لتتعرف موقعها، اقتربت عمتي من ابنتها ووشوشت في أذنها بكلمات لم إسمعها، وخرجت وأمرتني أن أوصلها إلى بيتها فلم أجد بدا من مسايرتها، فكنت أمد خطوتي بالشوارع فتستوقفني باللعنات، والدعاء بأن لا أعود سالما، كنت أشتمها في داخلي وأتمنى لو أنني أقدر على فصل رقبتها وقذف لسانها للكلاب السائبة.

عدت إلى البيت سريعا، فوجدت آمنة تجلس كما تركتها مزدانة بفتنتها وعنفوانها وعندما أصبحنا سويا بدت أكثر دلالا وسحرا فذبت أمام عينيها ونسيت مقولة ذلك الصديق:

- اكسرها قبل أن تكسرك

وزودني بقط أوصاني أن أملص رقبته أمامها، كنت أضحك من هذه الوصية وأفكر كيف لي أن أعكر هذا الجبين، كيف لي أن أخلق الرعب لتلك العينين، ليلتها لم أقدر على شيء سوى التحديق فيها، وتنفيذ ما تريد، فعندما رأيتها نسيت كل شيء ولم يعد يشغلني سوى التلذذ بدلالها، والركوع تحت قدميها وهي تتفنن في إذلالي ولم تسلمني نفسها فكلما أوشكت الوصول إلى مفاتنها العميقة جمحت نافرة، كانت تقترب وتبتعد، قربها لكي تعيد إلى داخلي التحفز ومعاودة الكرة بعد الأخرى، وجموحها لقطف كبريائي، ومن تلك الليلة امتطت ظهري وامتلكت حق قيادي.

كان أول انقياد حينما اكتشفت أن ورق التوت نزعت منها ولم أقو على بكائها فضممتها لصدري فانخرطت تروي لي تفاصيل تلك الواقعة، كانت تتحدث باكية ووجه خالد يقف بيننا نازعا كرامتي ظننت أنني قادر عليه لكنني لم أستطع وان بيت النية لذلك لكنه غادر في بعثة دراسية إلى مصر قبل أن استرد كرامتي منه.

إن الانكسار يتبعه انهيار شامل فقد رضيت بها كما هي وتفانيت في إرضائها فتوالت الهزائم وكان أعظمها حين تغاضيت عن البحث في أسباب سقوط أمي من على سطح منزلنا فتهشم رأسها وغادرتها أنفاسها قبل أن أستطيع أن أقدم لها شيئا، اعترتني فرحة غريبة لموت هذه الأم العمياء التي أورثتني التحقير بسبب عماها وفقرها، وكان موتها أدعى للابتهاج خاصة وأنها تطلبني ليليا حين أكون بين أحضان آمنة أنهل من رضابها الذي أصبح شرابي اليومي تطالبني أن أثأر لكرامتي وأطلق آمنة.

ماتت والدتي وهي تحمل حسرتها ولم تكترث بها زوجتي ورفضت تقبل العزاء فيها واعتذرت وأعتذرت من المعزيات أنها لا تقوى على مثل هذه الحالات:

- من أراد أن يعزي فيها فليعز ابنها

تقبلت العزاء والتهنئة في موتها حتى انزلق لسان أحد المعزين:

- لقد كانت حملا عليك فليرحمها الله

وعندما وافقت على هذه المقولة، لم يصلني رجال الحي وان ظلت هناك أحاديث وأقاويل تحاك في مجالس النساء عن موت أمي الغريب حيث كان السؤال المحير:

- ما الذي حملها على صعود السطح وهى عمياء؟

كانت الإجابة تقف على ألسنتهن يصرحن بها حينا ويتبرأن من تحمل الذنب أحيانا حتى بلغني أنهن يتهمنني بمقتلها إما تحريضا أو تغاضيا عن إلصاق التهمة بآمنة وأمها، وقد قالت مغسلة والدتي أن الميتة لم تسقط من السطح لكن ثمة شخصا هوى على رأسها بحجر غليظ مستشهدة أن جسدها ليس به خدوش أو كدمات بل جرح غائر في أعلى الهامة.

تغاضيت عن الأقاويل كلها ما عدا مقولة المغسلة، فقد ذهبت إلى بيتها وحذرتها من مغبة ما تقول وأبديت حزما زائدا حينما ادعيت بأنني سأتوجه إلى العمدة لينصفني من مقولاتها، عندها نفت ما أشيع عنها أقسمت أنها لم تقل شيئا مما يتردد على أفواه النساء.

لم أشعر بالحزن على والدتي كثيرا وان كان هذا الموت المفاجئ قد عكر علي اللحظات السعيدة التي كنت أقضيها مع آمنة فقد تحول بيتنا إلى مجموعات يتقاطرن في الصباح والمساء ليذرفن قليلا من دموعهن وكثيرا من التساؤلات المملة بالرغم من فتور آمنة معهن وفي أحيان رفضها لاستقبالهن وتركهن يجالسن بعضهن بلا ضيافة حتى سرى فتورها إلى نفسي حيث كدت في إحدى المرات أن ألعن بعض المعزين الذين أخذوا يتباكون على المرحومة وظلوا في بيتنا لليلتين متواليتين لقرابة تربطهم بأمي مبدين أسفهم لاستعجالنا في دفنها وعدم انتظارنا مقدمهم إذ قدموا من خارج المدينة، واستكمالا للواجب ظلوا معنا لقطع العزاء، كنت أشعر أن مكوثهم بيننا سيحيل حياتي إلى عذاب لن ينتهي، فآمنة لا تقدم لهم وجبات ولا تهتم بمرقدهم فوجدت نفسي أقوم بهذا الدور وأنا أسمع غمز النساء:

- (اللى راكب يدلدل رجوله)

وأزداد ضيقا إذا جلست مع رجالهم، فقد دأب أحدهم على تعداد محاسن أمي كلما جلست إليهم ولا يجد من حديث سوى الحديث عنها حتى زجرته في الليلة الثالثة:

- أنسيت أن الميتة هي أمي.. لقد أصبتني بالضيق من كثرة سرد حكاياتها

فنظر إليَّ مندهشا ولم يكمل يومه فقد رحل بمن جلبهم معه من غير أن يتناول وجبة الغداء، وعندما حاولت إحدى العجائز أن تثنيه عما عزم قال لها:

- لقد ذهبت المرحومة ولم يتبق منها شيء والخير أن نمضي قبل أن نطرد

تبعه الأخر ون صامتين، ولم تمس أيديهم يدي، ولم أتمنع عليهم بالمكوث.

ازدادت آمنة بعدا فكلما اقتربت منها بعدت وكلما تذللت لها تطاولت، وكلما انحنيت لها اشتهت ركوعي، ونسيت كل الكلمات سوى ترديد لبيك، حتى هذا الخضوع لم يرضها فقد تفتحت شهيتها لمزيد من الإذلال.

بعد موت الوالدة بأيام قلائل جاءتني عمتي تتودد وتحفزني لإخراج الحجج والتمتع بالحياة مع آمنة، حاولت أن أتملص منها لكنها أحكمت الخناق

بدلال آمنة التي كانت تأتيني ليلا في أبهى صورها وتمنحني لذة الحياة وقبل أن أنيخ بلذتي تشاغلني وتطالبني بإخراج الحجج، كنت ألعن الساعة التي كذبت فيها وعندما لم أجد فائدة من المماطلة أخبرتها بأنني كنت أكذب عليها، يومها لا أعرف بالتحديد ماذا حدث كل الذي أذكره أنني خرجت خلفها أبكي وأتوسلها ألا تهجرني، وظلت في بيت أمها لعدة أسابيع، كنت خلالها أذهب ليليا إلى بيتهم لاسترضائها فلا تخرج لملاقاتي.

كنت أقف على بابها أناجيها وهي من خلف الباب تكركر من هيامي وفي بعض الليالي كانت تجمع صويحباتها ليستمعن لمناجاتي وقصائدي التي أسكبها بلوعة وجوى وهي تحقرني بأبشع الألفاظ.

كنت كلما تمادت في كبريائها وغطرستها تذللت وصعرت لها الخدين حتى طردتني ذات ليلة فعدت أبكي في الشوارع، وتحولت إلى القبلة أدعو الله أن لا يفرق شملنا، وأن يرقق قلبها علي.

آه. .المرأة إذا عرفت ضعفك، وطأت بقدمها هامتك، ولا يكفيها هذا، والمحظوظ من لا تعرف له أنثى نقطة ضعف، إياك ثم إياك أن تضع رقبتك في يد امرأة، أتسمع

هز عبد الله رأسه، متمتما:

- لو عرفت

- لو عرفت انج بنفسك أن استطعت

- كيف

- ابحث لقلبك عن سلوى أخرى غيرها

- وإذا لم يكن بالفؤاد سواها

- ارض بالذل، وضع رجولتك في أقرب قمامة

نكس عبد الله رأسه، وتنهد بعمق:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

استوى أبو مريم في جلسته، ونفث سيجارته بدخان كثيف تسرب من فمه:

تناقل الجيران خبر مرض عمتي فانتقلت إليها في الحال متناسيا طردي

وهواني عليها، فوجدت آمنة تبكي، انحنيت أقبلها في أي مكان يصل إليه فمي فتناشجت:

- ليس لي سواها في هذه الدنيا ولو ماتت لقتلت نفسي على آثرها

فصحت مفجعا:

- أنا فداؤك

- أن كنت تحبني أعمل أي شيء لنجدتها

واتبعت السبل كلها لمعالجة عمتي التي كانت تنز بالكره لي حتى وأنا أتنقل بها بين العطارين وحكماء المستشفيات في مدن متعددة، ولا أسمع عن طبيب إلا جئته بها، كان كرهها أعمق من أن تصل أعمالي لاجتثاثه، ولولا فقدان ابنتها لبكارتها لما رضيت أن تتطلع إلى وجهي، كانت تفيض بالكره، فكلما تفانيت في الوصول إلى قلبها زادت ضغينتها، كنت أحملها بين ذراعي، فتنفر من رائحتي وتظل ممسكة بأنفها حتى إذا وضعتها تنفست بعمق، ولدغتني:

- أتمنى أن أشم الموت ولا أشم رائحتك

كان حقدها غريبا، وكلما حاولت معرفة سببه لا أجد له سببا، في تنقلاتي بها بين الحكماء، كانت في أحيان كثيرة تبدو كميتة، فيصيبني الجزع من خاطر موتها، فلو ماتت بين يدي فلن أجد آمنة بعدها أبدا، كنت أتنقل بها وأنا أدعو الله ألا تموت، وقبل أن أكمل دعوتي تكون كقطة أدمنت النكران:

- لو أن آمنة اختارت من تقترن به لما كان هذا حالي

فكنت أتغاضى عن إهاناتها خوفا من أن تبلغ آمنة بأي شيء أتفوه به ومع هذا الصمت لم أسلم من تحريضها لآمنة.

يبدو أن مرضها كان مستعصيا على الفهم، فكلما جسها طبيب احتار في تشخيص علتها، فقد كانت تعاني من صعوبة في التنفس وتورم في الساقين واليدين وألم في الصدر مصحوبا بخفقان، كنت حين أحملها بين ذراعي وتضع يدها على أنفها أخاطبها بود:

- يكفي ضيق صدرك فلا تضيقي على نفسك

فيخرج فحيحها:

- ضيق نفسي جاء من رؤيتك

فأخيرها في المشي، فتصيح:

- ألا ترى أن ساقي متورمتان

لم أعرف كيف أرضيها، فاحتملتها على مضض، وحين مللت من وخز الابر والتنقل من مكان إلى آخر من غير أن تشفى، قررت أن تبقى في منزلها، وعلقت اللوم في عنقي أمام آمنة:

- هذا البهيمة ضاق بي وليس لدي ولد يحملني لمن عنده الدواء لعلتي

هذه الجملة كلفتني أن أحملها شهرا كاملا إلى مدينة جده وأن أكون لها خادما وممرضا ومداويا، ففي الليل أظل مخففا من أنينها ومكمدا لأورام قدميها، لم أكن أنام فما تغفو عيناي حتى ترتفع آهاتها، وفى الصباح أدور بها بين الأطباء، وكلما عرضتها على طبيب أبدت استياءها منه فانتقل إلى طبيب آخر حتى عرضتها على حكماء هنود وسودانيين وسوريين، فكانت تبلع أدويتهم مجتمعة وصوتها لا يكف من التذمر واللوم. .كانت كثيرة الشكوى من الرطوبة فأظل أروح عنها بـ(مهفة). . .كنت عبدا لها ومع هذا كانت تشعرني أن آمنة أصيبت بخسارة فادحة لاقترانها بي، وكانت تتندر بي عندما تهدأ أوجاعها:

- قبحك الله كنت أمني نفسي بالبيوت الثمانية التي كتبتها في ورقتك، لكن (من أين تأتيك الريحة الطيبة)

شعرت بالفرح حين طالبتني بالعودة إلى الطائف، عندها أحسست بأن الله رحمني، توجهنا إلى مواقف السيارات وعدنا، واستقبلتنا آمنة، وأول شيء تفوهت به:

- قلبي عليك من هذا النصيب

فحرنت آمنة، ولم أجد جوابا سوى الصمت.

في صباح أحد الأيام أخفيت فرحي الغامر حين اعتلى الصراخ لينبئ بوفاة عمتي ومع ذلك أقمت لها العزاء كما يليق بحبيبتي. . وانتظرت أن تسلى وتعيد لي الحياة لكنها عادت إلى بيتي وهى ذابلة لا أجد عندها سوى البعد.

** **

سعل بعنف فتوقف عن سرد حكايته وأخذ يحاول إيقاف سعاله الذي امتد حتى اغرورقت عيناه كان يمسك بصدره بقوة وينثني على الأرض باصقا وهو يلعن التدخين والحب على السواء وعندما هدأ قليلا واصل حكايته:

- هذه الحياة لها وجوه لا يمكن أن نمسك بها أثناء أعمارنا القصيرة وللمرأة وجوه لا يمكن أن ترضى بقلب واحد يعشقها إنها تبحث عن النار وكأنها فراشة لا تجد لذة وجودها إلا في تلك الأضواء التي تدور حولها وحين يصلها اللهب لا تجد فرصة لأن تبوح لنا بسرها الغامض.

صمت برهة وهو يحاول احتجاز عبرة تحشرجت في حلقه فدفعها برشفة من فنجان الشاي الذي استقر جواره وقضم الخاتم الذي كان يحيط ببنصره فظهرت أسنانه المتسخة المستوية كز بقوة وأطلق لعنة تشتتت في فضاء ذلك السكون الذي كان يحيط بهما، وأبحر صوته:

- كان يمكن أن أجن لو لم أخرج غضبي، كانت ليلة غريبة باحت بأسرارها دفعة واحدة ولم أتمكن حيالها سوى أن أطلق ذلك المارد الذي نام داخلي واقشع عن جلدي خواري المزمن أمام عين آمنة. .فجأة وبعد خمس سنوات من زواجنا تحولت معاملتها أصبحت تدللني وتمكنني من قطف ثمارها الناضجة حين أعود من عملي الليلي. . . . .

نسيت أن أذكر لك بأنني اقترنت بالليل من ذلك العهد فقد ظللت لوقت طويل أتسكع بين المهن وكلما بدأت بمهنة أنهيتها قبل أن يكتمل الشهر وكمن يقودني إلى هاوية أعدت سلفا.

جاء أحد الأصدقاء واخبرني بأن عس الحارة توفي ولا يزالون يبحثون عمن يحل محله وامتدح عنفوان شبابي وأن جسدي يصلح لمثل هذه المهام واسر إلى أن خالدا أبا العماعم توسط لي للعمل في هذه المهنة بعد أن عاد من بعثته يحمل نجمة على كتفه، عدت إلى البيت متحيرا ووجدت آمنة تسألني أسئلة مبطنة - لم أتنبه لها في ساعتها - عن العمل القادم فبحت لها بما أسر صاحبي فقفزت في اتجاهي متوددة:

- عس. . والله أنه عمل يليق بك وستصبح مهابا ولك كلمتك في الحارة

ألصقت شفتيها بخدي فشعرت بطراوتها، فقبلتها بنهم فمنحتني شفتيها كما لم تمنحني من قبل، عندها أحببت أن أظهر تميزي:

- أستطيع أن أعمل في الحكومة، فأنا متعلم

فردت بدلال:

- لن تجد من ينظر إليك، لكن أن تعس ستجد كل الناس يتحدثون عنك

وقبلتني، وانثنت بغنج تلم خصلات شعرها المنسكبة على عينيها:

- ألا تريدني أن أفخر بك، وأنت تصول وتجول بين الأزقة

ولم تتركني حتى أبديت رغبة متأججة للحصول على هذه الوظيفة، وبدأت أمشط أزقة وشوارع أحد الأحياء المجاورة لحينا، وما أن أعود من عملي حتى أجدها كمن انتهى من استرخاء لذيذ وممتع وهي في كامل زينتها وعنفوانها فتمنحني سر الحياة، كانت تمنحني هذه الهدية كلما تفانيت في عملي، وسرعان ما تكور بطنها وانقشعت عن بنت جميلة أسميتها مريم ولم أعد أعرف إلا بهذا الاسم

توقف فجأة وسأل عبد الله:

- على فكرة. .هل تعرف اسمي

فهز عبد الله رأسه نافيا، فتبسم أبو مريم نصف ابتسامة ورشف من كأسه وعاود الإبحار:

- أن أسماءنا كروائحنا نسير بها ولا نعرف ما تحدثه من ضرر، لقد تخلصت من ذلك الماضي ولم أستطع التخلص من اسمي، أو بالأصح كنيتي، فمن حماقتي أصررت على الإبقاء على هذه الكنية التي تذكرني بحرائقي، (ماعلينا)، نسيت أن أخبرك، عاد خالد أبو العمايم إلى الحي بعد سفر دام ثلاث سنوات واستقبلته الحارة استقبالا كبيرا وقد أصر أبوه على إقامة حفل كبير حضره كبار رجال الحي وظهر خالد بملابسه العسكرية الفاخرة ولم أجرؤ على الاقتراب من مكان الحفل فقد حرص أبوه أن لا يحضر الحفل رفيقو الحال

كي لا يتسببوا في فضحيته مع من دعاهم من علية القوم، هذا التحذير ذهب أدراج الرياح حيث تنافر الناس واخذوا يرقبون الحفل من خلف التيازير ولم يكن يدعوهم لذلك داع لولا أنهم سمعوا أن مطربي جدة والطائف سيحيون الحفل بأغانيهم، كنت ضمن من اختلس النظر من خلف التيازير فرأيت خالدا، كان يبدو أوسم وأنظف في تلك البزة العسكرية وقد لمحت كثيرا من صبايا الحي يختلسن النظر إليه من خلف الرواشين فأحسست بالحنق حين رأيت شبحا من خلف روشان غرفتي ثابتا يتطلع صوب تلك البرحة الواسعة والتي تناثر بها المغنون(15) والمهنئون ليلتها سمعت كلاما من آمنة يجرح القلب فقد لعنت حظها وشتمت نفسها لتسرعها بالاقتران بي وقد اختلقت الشجار اختلاقا، فبعد أن عدت كنت أهم بسؤالها عن وقفتها بالروشان، لم تمهلني فقد بدأت هي بالأسئلة:

- كيف الحفل، من حضر، ماذا فعل خالد، من سلم عليه، كيف كان يستقبل الناس، ماذا، كيف، أين

شعرت برأسي ينتفخ ويوشك على الانفجار، كنت أتمنى لو أن لي مالا.. كنت أتمنى أن أتعرف على طريقة تجلب هذا المال، لم يكن مهما من أي طريق كان الأهم ما الطريق؟

في تلك الليلة كنت أشعر بخالد يجلس بين نفسينا، وألمحه يجري في دمها، فيباعد بيننا، كنت استرضيها لوقت طويل وهى تردد لعناتها لحظها العاثر، وآخر كلمة تفوهت بها قبل أن تنام:

- آه لو كان خالد

هل تتصور رجلا يبلغ به الخوار إلى هذا الحد، فيسمع زوجته تردد اسم عشيقها وغريمه متولهة ومع ذلك يحضنها لتنام، أن العشق سم يجري في دمائنا

(15) قال أبو مريم كان من بين المغنين الذين أحيوا هذه الليلة: طارق عبد الحكيم وعبدالله محمد وطلال مداح وعمر كدرس، ومحمود حلواني وقد أعاد طارق عبدالحكيم غناء ياريم وادي ثقيف ثلاث مرات كلما عبرها طالبه خالد أبو العمائم بإعادتها وقال أيضا أن الوقت لم يسعف بقية المغنين من إشباع نشوتهم فأقيمت ليلة ثانية خصصت للمقربين من أسرة أبي العمائم.

ولا نستطيع أن نلفظه إننا نبحث عن لحظة تخفف وجعنا، وكنت دائما أبحث عن وسيلة تخفف هيامي بها.

في إحدى الليالي اشتقت إليها فعدت من عملي قبل الوقت المحدد، وأحببت أن أقف على رأسها وهي نائمة كانت تبدو أجمل حينما تغلق عينيها، فمع إغلاق عينيها يموت جبروتها ولا تتبقى إلا رقتها وأنوثتها الطاغيتان، في ليالي عديدة كنت أعود وأجدها نائمة وأظل أقبلها وأمرر شفتي على جسدها، وأقبل قدميها وأعود أرقب تلك العينين المغلقتين، واسرح شعرها بيدي، وأتشمم رائحتها، غالبا ما أنام وأنا أتطلع إليها متلهفا وكل ما أتمناه أن أدخلها بين ضلوعي.

بعد أن جاءت مريم، (على فكرة آمنة هي من سمت ابنتها بمريم، فأم خالد اسمها مريم وعليك أن تربط بين الاسم والمسمى بها)أقول بعد أن جاءت مريم زاد هيامي بآمنة وزاد نفورها مني، ولم يكن هناك سبب واضح، فأخذت أتودد إليها فتزداد بعدا، فتحولت أيامي إلى جحيم وكلما سألتها تنفر متضايقة وتبرطم بكلمات مكررة:

- استعجلت باقتراني بك

وفي أحيان تعود للمفاخرة بجمالها:

- خلقت لأن أكون في القصور لا في الجحور

كنت أستعجل حلول العشاء، فمع هذا الوقت تأتيني لتحرضني للذهاب إلى العمل، وكلما ماطلت أو ادعيت الفتور أو العزوف أو أبديت رغبتي في ترك هذا العمل، تمطرني بالقبل، وتذكرني بأننا لم نعد أنا وهي بل معنا ابنة تحتاج لأن نهيئ لها مستلزماتها، فاخرج بعد أن تسمعني كلاما معسولا، وقد دأبت على المماطلة عند ذهابي للعمل وهي لا تمل من دفعي دفعا، وكانت دائما ما تحذرني من مغبة ترك عملي قبل إنجازه.

في تلك الليلة المشئومة اشتقت إليها، اشتقت لأن أتمرغ تحت قدميها وأذرف هيامي، اشتقت لأن أراها نائمة، كنت مخططا أن أقبل عينيها واحرسها حتى الصباح بدل الدوران وحراسة الأزقة المظلمة، فعدت. . . .

فجأة شهق أبو مريم وانتحب، حاول عبد الله الاقتراب منه فأشار له بالبقاء في مكانه، كان ينظر إليه وهو ينتفض ويجهش بالبكاء وبعد وقت طويل توقف نشيجه وكفف دمعه وعاد لحكايته:

بعد موت أمي سعيت لأن أجعل بيتنا جنة صغيرة لتلك المخلوقة فأعدت بناؤه وحرصت على أن يكون جميلا ومحكم البناء، وقد وجدت صعوبة في تلك الليلة للدخول حيث كانت كل الأبواب مغلقة، فكرت بطرق الباب لكن حبي لمفاجأتها جعلني أقفز السور ومرقت من الحوش الكبير وتحركت ببطء وأنا أسير في السيب وقبل أن أصل إلى غرفتنا سمعت لهاثها ومطالبتها بالمزيد أحسست بالدم يفور في رأسي فتراجعت، وتهاويت أسفل الجدار كان فحيحها يصلني حارا متدفقا بالرغبة وحين هوى بلذته نشطت قبلها وكلماتها:

- إلى متى تتركني مع هذا الثور

- لن يطول الوقت

- وماذا نصنع بابنتنا، هل نتركها له

- سأتدبر الأمر

وعادت تقبله، كان صوته يرن في أعماقي أنه الصوت نفسه، جاهدت ووقفت فرأيتهما من خلال شقوق طاقتنا الداخلية الوحيدة، كان يقف في ذاكرتي وهو يهيل اللكمات على وجهي ونظراتها من خلف الشيش وهي تراقب هزيمتي، رأيته يقف في ذاكرتي في ليلة الزفة صائحا:

- آمنة غنيمة لجميع فحول الحارة

رأيته وهو يسير ببزته العسكرية في الحفل الذي شهدته كل الحارة، ورأيتها تتطلع إليه من خلال الروشان، ورأيته في وجه مريم، رأيته في عينيها، ورأيته يخطفها مني ويرحل بها بعيدا، ورأيته يقبلها ويحضنها ويداخلها للمرة الثانية، وهي متهيجة تكاد تخترق صدره وتذوب:

- أنا لك لوحدك، لا أريد من الدنيا سواك

أحسست بكل شيء في داخلي يسقط، وينهار، كنت أشعر بدموعي تتقاطر من على لحيتي، وهما يتقطران لوعة، حملت شومتي ودفعت الباب بهدوء

ليسبقني ضوء السيب إلى داخل الغرفة ذات الإضاءة الشاحبة ففزعا وقبل أن يستوي هويت عليه بشومتي فأصابت كتفه ليترنح، وتشهق هي بالصراخ استيقظت مريم بالبكاء الحاد، فجذبتني آمنة وهي تصيح:

- لا أريدك

وقفت أمامها كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما يتطاير منهما بغض قديم فأدرت شومتي وفلقت رأسها لم تستطع أن تمد صرختها فسقطت جثة تفور بالدماء، أصبت للحظات بالدهشة والفزع كان خلالها قد قفز غريمي وولى هاربا تركت مريم تبكي وخرجت في أثره ولم ألحق به فقد ابتلعته الأزقة فعدت لأرى ما حل بآمنة، رأيت ابنتها تمسك بصدرها وهي فاغرة والدم يفور من رأسها وقد استلقت تماما رفعت يدها فهوت، كانت مريم تبكي تأملتها فرأيت مقدار الشبه الحاد بينها وبين خالد وبوحشية أطبقت عليها المخدة، عندما اقتربت منها أخذت تتناشج وتلامسني بيديها الصغيرتين بعدها لم أر سوى قدميها اللتين كانت تحركهما في الهواء حتى تراخت، جلست أمام الجثتين أجهش بالبكاء كان النهار يتسلل ببطء وقبل أن تدب الحياة نهضت وعمقت حفرة واسعة بداخل الحوش وألقيت بالجثتين في جوفها وطمرت عليهما التراب وخرجت من البيت هاربا.

ما رواه أبي مريم للراوي عن زواجه بآمنة

في السجن ليس للزمن ملامح، نعرف تقلب الليل والنهار من العسكر المتناوبين على حراستنا، ويتجدد -الزمن - بوجوه أولئك النزلاء الجدد حيث نعرف أن الزمن لازال في دورته الأزلية،

فمن حكاياتهم نشتم رائحة الربيع، ومن أغانيهم تهل علينا ليالي الصيف

وكان دخول وخروج أبو حية زمنا آخر

نحتفل به ونعرف أننا لا نزال أحياء.! !

وكلما جالسته اكتشفت أن خارج السجن ثمة شيء يتحلل، يتآكل

وتنبت البكتريا هناك، فأصيح برفاقي:

- حافظوا على امكنتكم قبل أن يصيبكم العطب.! !

ولهذا كان من يغادر السجن يعود إلى مكانه في أسرع وقت[16].! !

22

في سرداق العزاء وبينما كان المعزون يقفون صفا لتقديم واجب العزاء في المأمور أبي شايب اقترب أحد أعيان الحارة من العمدة وهمس له فأبدى اهتماما زائدا وفاضت ملامحه بصرامة مفتعلة، ووقف شادا على يد محدثه بود وامتنان وأشار لأبي مريم بالاقتراب ووشوشه:

- تم تعيين مأمور جديد عليك أن تستعد بعد العزاء لتذهب معي للترحيب به

هز أبو مريم رأسه، وخاطبه بالنبرة نفسها:

- نذهب إلى أين؟

- إلى المأمور؟

- وهل وصل البلد

اشتط العمدة وشتمه بصوت مرتفع ليتحول حوارهما إلى زعيق:

- قبحك الله، (وأنا من الصبح أقول ايه)

- لم تقل إلا الآن

---

(16) أقسم احد السجناء أنه لا يشتاق لشيء سوى العودة للسجن كلما خرج منه. .كان يبكي دائما ويردد:
- في الخارج يعاملني اهلي كالمصاب بمرض الجذام لا أحد يقترب مني وقد اغلقوا في وجهي أبوابهم وكلما خرجت اخذت أفكر في جريمة تبقيني فترات أطول هنا. .فهل لديك جريمة - غير القتل - تبقيني زمنا أطول
كان سؤاله محرضا لأن تفيق خستي ودناءتي صمت كثيرا يومها وفكرت ان اجنده لرغبتي - ورغبة زملائي - وتراجعت في أخر الأمر فقد أشفقت عليه فأبعد ما يصل إليه عقله اشباع وطره بأي كائن كان بعدها تصبح الحياة أرق وأدفئ بين جوانحه.
وعندما أعاد السؤال كنت أهم بدفعه للنار. .

- يا حمار، وصل المأمور وأريدك أن تذهب معي، ليبقى العريفة وبقية الرجال مع المتبقين من المعزين، فهمت

- فهمت، ولكن لماذا أنا؟

- لتمسك حماري يا حمار

ابتلع أبو مريم هذه الإهانة على مضض وحاول تجنب تلك الأعين المتربصة به وبالعمدة، وهز رأسه تفاديا لمزيد من الشتائم، وعاد إلى مكانه مسترقا النظر لمن كان يختلس النظر إليه، تمنى لو أنه بادل العمدة السباب، وجلس يمضغ هذه الأمنية ويحقر تخاذله:

- كان علي أن أرد عليه. . أن أقول له أنت الحمار وأنا من زمن أمسك لجامك

ولم يوقف خواطره إلا نهوض العمدة والإشارة له بإتباعه وقد استطاع أن ينهي العزاء سريعا واتجها إلى بيت المأمور بصحبة من جاء بالخبر.

كان المركز مكتظا بالأعيان والعمد ومجموعة من العسكر اصطفوا في صورة متوازية.

كان الجميع في انتظار مقدم المأمور، وفي هذا الانتظار انشغلوا بتحسين قيافتهم وهم في أمكنتهم، ومع مرور المأمور تدافعوا للسلام عليه.

وقف أبو مريم مذهولا لرؤيته وتداعت بمخيلته سنوات طويلة قضاها في التجوال من مدينة لأخرى حاملا جروحه ومتناسيا غريمه، وهاهو الآن يعود من جديد، أقوى مما مضى، قوة بدن وقوة مركز، لم تغير تلك السنوات الطوال شيئا منه فهو لا يزال فتيا، وسيما حاد الملامح يؤاخي بين الخيلاء وبين الأنفة في مشيه، ناظرا للآخرين من فوق عينيه، وزاما فمه كمن يموج ماء آسنا.

كانت عيناه تعبران من حضر بدونية مادا يدا باردة أثناء مصافحته لمن جاء للسلام عليه بينما ظل رأسه مرتفعا باعتداد.

في لحظة الاستقبال تملص أبو مريم وسحب حمار العمدة، ووقف بعيدا، وظل ينتظر العمدة الذي دلف مع مجموعة منتخبة إلى داخل المكتب بعد جملة

حارقة تلقاها من المأمور فقد سعى لكسب وده حين خاطبه بلين:
- ألا يرى مأمورنا أن يرتاح ويتفقد المركز في الصباح
فرد عليه ردا قاسيا يفتقر للكياسة:
- هذا الأمر لا يعنيك ولست مسئولا عن راحتي
واستدار لداخلِ المركز فتبعته مجموعة من العمد وبعض الرتب العسكرية.
مضى وقت قصير وبدأ المرحبون يغادرون المركز بينما ظل أبو مريم ممسكا بحمار العمدة يتلظى منتظرا العمدة الذي تأخر دون سواه، فقد استبقاه المأمور، فظن أن سيعتذر له عن تلك المقابلة الجافة والرد القاسي، وحين أصبحا وحيدين التفت إليه المأمور محتدا:
- أبقيتك لأعرف أسباب هذه المهازل التي تحدثها
فارتبك العمدة وانخفض صوته على غير عادة:
- أي مهازل أطال الله عمرك
رمقه بنظرة عدائية وعكر وجهه وضغط على كلمته:
- العزاء
- هذا واجب علينا يا سيادة المأمور
- وهل كان أبوشايب من بقية أهلك
ارتبك ولم يستطع أن يجيب، فاردف المأمور:
- لن يكون هناك عزاء في الغد
قفز من مكانه بصوت محموم:
- مستحيل. .سمعتي
فقاطعه المأمور متوترا:
- هل ترغب في الإبقاء على سمعتك أو العمودية
اصفر وجه العمدة، وأخذ يتطلع صوب المأمور بشيء من الخضوع، وعندما طال صمتهما تمتم العمدة:
- هل لك حاجة نقضيها
- لست في حاجة أحد أنتم المحتاجون لي

وأشار له بالانصراف.

فخرج من عنده يجر قدميه ليجد أبا مريم ينتظره.

كان شاردا ولم يوبخ أبا مريم لانزوائه بعيدا عن باب المركز، ولم يصعد على ظهر حماره كالعادة بعد أن يشبع أبا مريم بشتائم يصبها على من يسايره في مثل هذه الحالات، فقد سار موازيا له ووجهه يطفر بالضيق والاحمرار، يمضغ هواجسه بشرود تام، ولم يرد على أبي مريم الذي ذكره مرارا بركوب الحمار، كان منشغلا بوساوسه الداخلية، فشعر أبو مريم بالارتياح لهذا الشرود أكثر من فرحه بعدم رؤية المأمور له، وفكر جديا بمعاودة الهرب، فما أن أوصل العمدة حتى عرج إلى مقهى الشنب لجمع حاجياته البسيطة وصرها في شاله القديم ووضعها تحت إبطه، واتجه إلى صندقة السميري، انتظارا لمقدم عبد الله ليودعه الوداع الأخير، وجلس جوار الصندقة حزينا وحين جاء عبد الله قال له:

- لقد جاء الماضي لينهي حكايته

- الماضي لا يتحرك نحن الذين نحركه

ابتسم أبو مريم بفتور:

- دع هذه المجادلة جانبا، يبدو أنك بدأت تجيدها

وعندما رآه حزينا، اقترب منه، واضعا يديه حول كتفه:

- ما الذي حدث؟

- ظهر الماضي، بصورة أقوى مما كنت أتخيل

- اتفقنا على ترك الأحاجي، ما الذي حدث؟

- ظهر خالد

- أين؟

- انه مأمورنا الجديد، لقد رأيته عندما كنت في صحبة العمدة

- ربما خيل لك

- لا، أنه هو، وهل ينسى الإنسان قاتله؟

- وماذا قررت

- أن أعود للترحال

- إلى أين؟
- بلاد الله واسعة
- والى متى تظل هاربا؟
- قبل أن أراه كنت أفكر أنني سأطاله يوما انتقاما لشرفي ولغربتي، ولكن بعد رؤيتي له، أيقنت من قوته، وانه يستطيع أن يسحقني بحذائه مرة أخرى
- أنت تضخم الأمور
- لم تجرب مرارة الذل، والهرب معا
- وأنت لم تجرب إشغال غريمك بوجودك، أقلقه بوجودك، فلن يجرؤ على الاقتراب منك

شعر أبو حية بتردده فتابع: أعاهدك ان أكون معك أنا و(بشكتي) ضده سنطوق عليه الخناق ونعرف لك خباياه حتى تأخذ بثأرك، ولا تعلن عن وجودك إلا حين أخبرك

- لكنه
- . . لا بد أن تبقى وتشغله وتنغص عليه حياته كما فعل معك لا تخف من شيء، إن الثعبان عندما يعلم أن أحدا ينتظره عند جحره يتردد كثيرا في مد رقبته

راقت هذه الفكرة لأبي مريم، وتمتم:

- لا بد من تنغيص حياته، إلى متى أظل هاربا؟ نعم إلى متى كان الأجدر بي أن أتحرك إليه وأرهقه بوجودي. . نعم كان يجب فعل هذا منذ زمن

وصمت وقد تغيرت ملامحه: أه إننا نتهاون في حقوقنا. . نعم لماذا لم أخرج إليه؟ أو أحاول أن أعكر حياته

وهمس وكأنه يواصل تحريك دواخله:

يجب أن أبدأ . . . . . ولكن قبل أن يراني علي أن أستعد له بحيث يكون ظهوري صاعقة له، نعم لابد من البقاء

وتعهد أن لا يخرج نهارا مهما كانت الأسباب وأن يكتفي بالليل أنيسا

وحياة استعدادا للمواجهة وان كان يلازمه شعور بأن الحياة أخذت تضيق ولم يعد بها مجال لحياة هانئة.

رواية أبي مريم حية لا لتقائه بخالد أبو العمايم

اعتذرت إحدى أخواتي عن استقبالي في بيتها بعد أن تكبدت مشقة الوصول إليها، كانت تقف خلف الباب الموارب وثقلها يحيل بين اتساع تلك الفرجة ورؤية وجهها، وكأي رجل غريب كانت تدفعه بعيدا عن تلويث سيرتها

وقفت مرتبكة وجلة تخشى أن يكتشف أمرها مع رجل ينبش مفاتنها، ومن الباب الموارب قالت:

- سمعت ان أختك ستضيع انقذها من زوجة أبيك

وأغلقت الباب على عجل وكأنها رمت قمامة لا تحب أن يعرف أحد مصدرها

ومع شروق الشمس أيقظني أبي ودفعني إلى خارج البيت موصيا:

- أقذف حياتك السابقة وأبدا من جديد وإذا سرت إلى الأمام ستجدني في انتظارك أما الآن فأنت غير قادر على تدبير شؤونك فكيف أسلمك أختك

وخرجت كانت كل الجهات قصية، باردة. .طاردة وأنا كقطعة إسفنج تمتص ماء الغربة وتشعر بثقلها. ..تشعر انها مشبعة وغير قادرة على امتصاص غربة جديدة

شعور وحيد يبقيني منتصبا حين ألمحها تسوف مواعيدها في البال فأهجس: أنت الملاذ الوحيد الذي أبحث عنه. .يا مها[17].!!

---

(17) كتبت لها عدة رسائل أبث فيها لواعجي وفي كل مرة أضع رسائلي في مكان قريب منها، أول رسالة كتبتها وقذفتها في طريقها حين عبرتني في ممشاها، فلم تلتفت إليها وثانيها غرستها بنافذتها فخطفتها بائعة اللوز العجوز وصنعت منها شكلا مخروطيا ووضعت بها كمية من اللوز لأحد الصبيان وعندما لمحني مقبلا عليه ركض واختفى في تلك الأزقة الملتوية، وثالث رسالة وضعتها ببابها فمضغتها إحدى الأغنام السائبة لمحتها تمد عنقها وتلتهمها برغاء ممتد ورابعة سحبها عجوز وتمخط بها. .كنت أعلم ان =

23

رأيته.

كنت أظن أنني واهم، حركة عينيه لا تزال ترف بسرعة وتخطف ما حولها، وعضلات فكيه متوترة وكأنها تقضم حبلا متينا، لا تزال القسوة تسكن بين حاجبيه فيضمهما كجناحي طائر يهم بالتحليق، خطواته تباطأت قليلا وظلت محافظة على خيلائها.

رأيته

هل تتعرف على دمك بعد عشرين سنة، تلك القطرات التي انسكبت من جسدك، وسببت لك ألما مبرحا ساعتها، وعشت بأثر جرحك سنين طويلة، كلما رأيته تذكرت آلامه.

المصائب كلها تولد كبيرة ثم تصغر حتى تغدو أثرا باهتا في البال. هل فعلا نسيت ذلك الماضي البعيد؟

انفتق الجرح، التحم على صديد يتدفق الآن، ووخزاته تتعمق وتشعل حرائق من الألم.

رأيته.

هل أستطيع أن أثأر لكرامتي؟

أي كرامة وأنا (أتخشخش) في الجحور وأتغطى بالليل بينما يسير مزهوا تحف به الناس وتخطب وده، أي كرامة هذه، والقتيل يتخفى من قاتله.

رأيته

لو رآني هل يعرفني، لقد تغيرت كثيرا، هزلت ووهن عظمي، واتسع تسامحي، عرفت في الهروب أن الإنسان يقدم على قتل نفسه من أجل أمر لو

= شيئا يقف بيني وبينها ومع ذلك لم أيأس وفي كل مرة أكتب رسالة أجد أنها فقدت أمام عيني أم الرسائل التي لم تفقد فقد كنت اضعها في مكان قريب من عينيها وعندما أعود أجد رسائلي في مكانها لم تمسسها يد فأترمد بعشقي وأبحث عن وسيلة توصل هذه النار التي تحرق أعماقي.

تركه لما تحمل عناء سنوات طويلة، كان يمكن أن أتعذب لبعض الوقت وينتهي ذلك الألم.

تناسيت كثيرا من عذاباتي، فهل نسي هو؟

أي حماقة هذه التي أتحدث بها؟ فماذا فعلت له حتى أتمنى أن ينسى؟ هو الذي سرق حياتي من قبضتي، وعكر صفو أيامي ودفعني إلى الموت.

الاثنان اللذان يربطهما مصير واحد لا ينسى أي منهما الآخر، يكفى ان يتذكرني من باب اشتراكنا في صحن واحد، ذلك الصحن الذي ولغ فيه وشربت منه الحياة والموت معا، فهل نسي؟

هل نسي أنه قتلني أيضا؟ أم أنني في نظره سارق كما هو في نظري سارق؟

رأيته

تتبعت أخباره من بعد، علمت أنه لم يتزوج واكتفى بتربية ابن أخيه، تركت العس في حينا وانتقلت بالقرب من منزله أتلمس أخباره من بعض الجند الذين يصلونه، أو من بعض صبيانه أو ممن التصق به حيث دأبت على التلصص وسماع كل ما يقال عنه، يقولون:

جندي:

لم يخلق الله رجلا كهذا لا ينام، فكلما جئته وجدته مستيقظا لا يعرف سوء الصراخ

جندي ثان: أحتاج لوقت طويل حتى أخذ الأوامر منه فهو صامت معظم الوقت وإذا تحدث كانت كلماته كالرصاص، حازم إلى حد القسوة في عمله (ولا يعجبه العجب و لا الصوم في رجب)

جندي ثالث: تعلمت منه أن لا أحدثه في شيء إذا كان سارحا

جندي رابع: دائما أصحبه في خلوته ولقد رأيت منه ما يشيب الرأس ولأني أخاف على رأسي لا أقدر بالبوح

جندي خامس: يظن أننا نعلم الغيب فهو يتوقع أن ننفذ رغباته من غير أن يعلمنا بها

جندي سادس: عينه فارغة كل شيء يريده

جندي سابع: أنا أحب هذا الرجل، إذا لم تزعجه لا يزعجك

جندي ثامن: أخبرته أن زوجتي على وشك الوضع ولابد من الذهاب إلى البيت، نظر إلي ببرود ولكي أسترضيه قلت: إذا كان ولدا سأسميه باسمك، ساعتها التفت إلي قائلا: ولو بنت سمها آمنة، وسميتها آمنة، وعندما أخبرته منحني خمسين ريالا، ودائما يسألني عن أخبارها

صبي من صبيانه: تصرفاته عجيبة وغريبة فقد دأب على تناول طعامه ووضع صحنين في جواره وعلينا ان نملأها بأحسن الأطعمة وبعد أن يغادر نلتهم الطبقين

صبي ثاني: يعاملنا وكأننا أبناؤه لكن الويل لمن يجرؤ ويغير اسطوانة (البك أم) فقبل أن يأتي نكون قد جهزنا غرفته وهويناها بفتح النوافذ ووضعنا كرسيا هزازا يطل على الشرفة وبجواره طاولة فواكه ونغادره حالما يجلس ولا نطرق عليه الباب حتى يخرج. .انظر هذه هي الشرفة التي يطل منها

صبي ثالث: يحب التلصص على النساء يريد رؤية وجوههن لا غير.

صبي رابع: لم نر امرأة تدخل عليه سوى بائعة الملابس وفي يوم سمعنا صراخه وهو يصيح: اخرجوا هذه الكلبة

صبي خامس:

دائم السفر إلى الطائف، ودائما يستقبل رجال ونساء من هناك ومع مجيء أي أحد من هناك يفز من جلسته مستفتحا ضيفه: بشر

ويذوي مع الرد المقتضب الذي يحمله الضيف: لا أثر لها

بائعة الملابس: لعنة الله عليه يريد مني أن أتجسس له على نساء البلد يقول أنه يبحث عن زوجة يكون اسمها آمنة أو مريم ويريدني أن أدله على البيوت التي بها هذين الاسمين وعندما عجزت عن تلبيه طلبه راودني عن نفسي، نفسه خسيسة

عطار: سف كل الأدوية ولا زال غير مقتنع

عمدة الحارة: الله يعيننا على هذا الرجل لا تعرف من أي الطرق تدخل إليه

مرافقه الخاص: كل يوم يخرج باحثا عن امرأة من هي؟ لا أحد يعرف

العريفه: لم أر في حياتي مأمورا مثله، فهو يقدر الناس ويعرف حق العاملين معه، و لا أخفيك عينه علي ليوليني منصب العمودية، ايه والله هكذا قال لي

بائعة هوى: من يسمعه يظن أنه يهد جبال وهو لا يقدر على رفع شبر من جسده

السائق: في أوقات كثيرة ندور المدينة وهو سارح ولا أعرف بالتحديد إلى أين أمضي به، وأظل محتارا هل أعود به إلى البيت أم أواصل الدوران، أصبح عملي مملا ومقلقا

سجين أول: لم أره فهو يحقق مع المجرمين الكبار

سجين ثان: يقولون عنه أنه قاس، وكل المساجين يخشون أن يعرضوا عليه

سجين ثالث: يا الله عليه كف يفتح بك دكان

سجين رابع: معه قضيب يقرع به رأسك حتى تخر صريعا، وإذا لم تفعلها فإنه يقلل من رجولتك بالقضيب نفسه.

سجين خامس: عندما جيء بي إليه كان مشغولا فحملوني إلى نائبة، وهو ليس أحسن حالا منه

سجين سادس: عليه جبروت يهد جبال، الله يبعدنا عن طريقه

سجين سابع: عندما تراه وأنت لا تعرفه تستبشر به خيرا، فله وجه جميل التقاطيع وابتسامة حائرة لكن لا تقف مدانا أمامه ساعتها يتحول إلى رجل عبوس ويحمر كدافور مضى عليه زمن طويل من الاشتعال، وقد جربت معه الحالتين

سجين ثامن: لم أر أطيب منه، فقد كان يسأل عن أحوالنا دائما رأيته

لم ينسها، فكل يوم أجدها في أنفاسه، وأجده يتقلب على جمر ويضم أملا بلقياها، كنت أشعر بلذة لهذا العذاب الذي يعيشه، يوميا أذهب لرؤية عذابه، فإذا بي أدخل في عذابي، ها هو يسرقها مني وهي في الغياب، أي عذاب مشترك نعيشه ياهذا؟

رأيته

كنت أتسلل خفية وأراقب بيته، ووثقت صلتي بكثير من خدمه وتمكنت من رؤيته عن قرب كنت ألمحه من الشرفة ساهما وفي أحيان كثيرة يلف سيجارته ويتركها بين يديه حتى تحرق أصابعه.

وجهه واجما كغصن تدلى من شجرة ميتة، في أوقات كثيرة كنت ألوم نفسي على هذا التصرف الأحمق وكلما عزمت على الإقلاع عن هذه الرغبة أجد نفسي في اليوم التالي منقادا لها، وكلما رأيته ساهما أيقنت أن آمنة تعيش بين عينيه، وتخفق في صدري، ومريم تنمو بيننا وتنمو فأحمل حقدي عاليا ويحمل لهفته عليها ونتصارع، تحرق السيجارة يده ويحرق الماضي صدري، يتأوه وصدى أغنية يقف بيننا:

أنت المنى والأمل في مهجتي لك محل

يلي تشادي الورود قلبي بقربك يطيب

يازين هذا حرام ما ترحمون الحبيب

ياريت وصلك يعود واسعد بلثم الخدود

وكلما أمعن في شروده أمعنت في التهيج، وأظل أجاهد نفسي كي لا أجهش بالبكاء.

رأيته

أراد أن يتأكد من وساوسه وجاءني، فجئته، كدت أموت هلعا في تلك الليلة، أحسست به يتفحصني، وأهدابه المتسارعة تقضم وجهي قضما، وأنا معلق على ظهر عبد الله، كنت أهجس لنفسي: عدوك يشم رائحتك

وقف بجوار العمدة يتفحص تلك القامة المديدة، وسقط من باله أنني أقف أمامه.

لماذا لم أغادر إلى الآن؟ هل حقا أسعى للانتقام؟

رأيته

أكان لابد أن أخبر عبد الله؟

كان يمكن أن أحمل بقشتي وأغادر هذا الحي من غير أن أثير انتباه أحد، مابالنا في أحيان كثيرة نتقاعس عن أداء ما يجب أداؤه، هل كنت أمني نفسي بالثأر؟، أي ثأر؟ ألم يكن بالإمكان تنفيذ هذه المهمة منذ زمن طويل؟ دون الحاجة إلى التحريض

يوم أن وقفت مجاورا لحمار العمدة ورايته أحسست بأمعائي تهوي وخناجر تمزقها، لم أكن أتوقع أنني كنت احمل كل هذا الخوف، عدت مرعوبا، هممت بالرحيل، هناك مصادفات عجيبة توقعك في شراكها حتى إذا وقعت صحت: لو أني لم أفعل، أو لو أني فعلت، حدث وأن جاء عبد الله فلم أتمالك نفسي وانخرطت أروي له.

أكان لا بد أن أحكي لعبد الله؟

قرأت حكمة قديمة ونسيتها (إذا ضاق صدرك بسرك فليس هناك صدر يتسع له)، ونسيت أو أني تعبت، كان سرا كوليد تحجر في بطن أمه وقبل أن يقتلها بقرت بطنها لترى قاتلها، روائحه أنتنت داخلي، واشتقت لرئة تستنشق بدلا عني.

ولم أجد إلا عبد الله منحته كل هذا العفن.. يا الله كم نفرط في أنفسنا (!!)

استطاع أن يثير بداخلي شهوة الانتقام، كنت على استعداد أن أعيد الكرة وأخمد أنفاسا تنبض، همس في أذني:

- الحياة قصيرة والهرب طويل. .إلى أين؟ ستجده أمامك، هو بداخلك فبدل أن تهرب به عش معه

رواية أبي مريم للإلتقائه بخالد أبو العمايم وتتبع أخباره

نستطيع أن نتخفى أمام أعين الناس، لكننا لا نستطيع - بأي حال من الأحوال - أن نتخفى من أنفسنا، إننا نحمل في أعماقنا خرائبنا التي تتكدس مع مرور الزمن حتى تصبح جيفة يتعذر علينا إخفاؤها.

اليوم هتفت باسم مها، فارتج أبو حية، ولم أجد ما أداري به خستي سوى أمنيات كاذبة بأن يخرج ليجدها تنتظره.

وخرجت قبله ونسيت كل ما كنت احلم به في مشواري الأول واخذت أتلمس أخبارها، فآمنة هي مها التي أبحث عنها.

إن الأماكن المغلقة تزيف ما تقع عليه العين كذلك الصحراء تحيل الكذبة إلى حقيقة منظورة.. إن السراب أحد الدلائل على الكذب المنظور الذي تمارسه الحياة معنا..

24

استغرب العمدة من طلب المأمور له في مثل هذا الوقت من الليل، ومستعجلا لبس ملابسه، وفي عجلته نسي ارتداء سترته، وساعته التي يضعها دائما في جيب السترة، كان مرتبكا ويلعن هذه الأيام التي حولته إلى إنسان خائف متوجس، كانت زوجته الثالثة تهيئ له لباسا أخر، فصاح بها: لو تأخرت عليه سيجدها فرصة للعبث بأعصابي وأغلق الباب وخرج مسرعا يتبع أثر العسكري الذي بلغه الطلب.

(في هذا الليل ماذا يريد؟، ربما سرق بيته، يا الله . . . كارثة لو حدث هذا؟ وما ذنبي، هل أنا مسئول عن كل شيء، هذه السرقات المتوالية ستحولني إلى أضحوكة بين الجميع، كل الخوف أن يأمر بخلعي من العمودية، ساعتها لن ينظر في وجهي أحد من هؤلاء الكلاب، سمعت أنه يفكر في اختيار عمدة أصرم مني، هذا المغرور هل يتوقع أن يجد من هو أفضل مني؟ ألا يشفع لي هذا العمر المديد الذي أمضيته في تصريف شئون الحارة والاهتمام بكل شاردة وواردة، وماذا يعنى سرقة البيوت؟ . . قبل مجيئه لم نكن نعرف هذه السرقات، ربما هو المدبر لهذه السرقات كي يظهر عجزي، أوه لماذا غابت عني هذه الفكرة؟ نعم هو يتآمر على عزلي، لن أمكنه أبدا من ذلك، لو حدث

وأقالني فسأشكوه، لن أسكت وسأقلب (عاليها واطيها)، ماذا يظن نفسه الحاكم بأمر الله، لن أمكنه من إذلالي أبدا . . . . . .)

وجده واقفا على باب المركز، حياه فمد له يدا باردة وفاجأه:

(هذا المتغطرس سأعلمه كيف يوقرني، سأجد وسيل. . . . .)

- هل يعمل معك (عسه) يدعى أبو مريم

- نعم

رد العمدة مستعجلا ومتابعا:

- لكنه بهيمة لا يفهم شيئا اكتسب صيتا من لا شيء

- أريد رؤيته، أم أنك نسيت طلبي

- أي طلب

- ألم أقلك أريد رؤية من أمسك الثعلب

(يا الله خارجنا من هذه الليلة)

- . . . .

- كل شيء تنساه

- كما قلت لك بهيمة لا يفهم شيء، لا تصدق ما يقال عنه

احتد المأمور: كفى هذرا قلت أريد رؤيته

- حسنا سيكون بعد لحظات أمامك

- لا. . لا أريد أن أراه من غير أن يراني

انطلق العمدة والمأمور، سالكين أزقة الحارة بينما كان الليل يأكل تلك النفايات المترامية على هوامش الطرقات بوداعة، تاركين بعض القطط تشاركه وليمته بهدوء.

كشاف العمدة ينير جنبات الأزقة إنارة مهتزة، وخطواته تتعثر ومسابقا المأمور، وحين يخطر في باله أن هذا التصرف قد يغضبه يتراجع ويمد يده بكشافه لينير تلك المنحنيات الضيقة.

(كان وسواسا شابا يركض في مخيلته وتنداح مخيلته بكلمات يسكبها في داخله: ربما يهيئ هذه البهيمة لتحل مكاني، كثير من الناس يمتلكون حظوظا

تفلق الحجر، وألسنتنا تدفع بهم إلى الأمام لتقلد المناصب، بينما هم أصغر حجما مما يكلفون به، نكتشف هذا بعد فوات الأوان، هل سأسير خلف أبي مريم ذات يوم؟ سأنحر نفسي قبل أن أفعل هذا، كيف سيكون مصيري؟ لعنة الله على هذا المأمور الأحمق، ما الذي يريده من هذا الكائن الميت الذي اشتهر بعنترية بينما هو يخاف من الكلاب المتخاصمة؟ أظن أنه سيمكنه . . . . .)

- إلى أين نحن ذاهبين؟

- . . . .

- ألا تسمع؟

- كما أمرت لرؤية أبي مريم

- وهل بيته بعيد؟

- أي بيت؟ بيته الشارع والمقاهي، قلت لك إنه بهيمة

- وابنته مريم أين تسكن

ضحك العمدة مشتهيا: ليس له بنت، فهو عنين ويستر بهذا الاسم عجزه

انتفض المأمور، وقضم العمدة على شفتيه وتمنى لو أن الأرض خسفت به، وساد بينهما صمت ثقيل حركه المأمور مرة أخرى بسؤال قاس:

- وما يدريك؟

- منذ أن عرفته وهو على حاله حتى وإن كان فحلا فليس هناك امرأة تقبل به

(آه ماذا أقول، سيظن أنني أقصده بكل كلمة تفوهت بها، وهذا أدعى لأن يقيلني، سيعتبر كل هذه الإهانات موجهة ضده، إن أمثاله يظنون كل الظن بأي . . . . . .)

- منذ متى يعمل هنا

- . . . .

(. . . كلمة تخرج وتصيب كبرياؤهم، علي بالاحتراز قبل . . . . . .)

- ألا تسمع؟

- بلى، بلى، منذ زمن، منذ زمن

- أهو من أهل جده؟

- يقول إنه من ضواحيها

- أليس له اسما؟

- أظن أن اسمه جبريل أو . . . . لا أعرف اسمه بالتحديد فقد دأبنا على مناداته بأبي مريم، الذي أريدك ان تتأكد منه أنه لا يصلح لشيء، وأنا أشفق عليه وقد تركته يعمل في هذه المهنة إشفاقا به وبحالته

- أليس له أهل. .أقارب؟

- لا نعرف له أحدا، صديقه الوحيد عبد الله الفسيني

- عندما نصل إليه لا أريده أن يراني فهمت وإياك أن تخبره بهذه الزيارة، فهمت

- نعم فهمت

(ما الذي يريده هذا المأمور، كل يوم وله حكاية اغرب من سابقتها، يبحث عن النساء، . . . .)

- هذا مجلسه

- لكن لا أحد هنا

- يكون في دوريته

نبت بينهما صوتا حادا سبقه نفير صفارة: من هناك؟

- هذا هو

كان طودا يخترق الليل بهيبة، وهامته تتصاعد عاليا ولون بشرته أسود وصوته أغلظ وقف من بعيد متنحنحا:

- العمدة. . . خير إن شاء الله

ارتبك العمدة وظل لبعض الوقت صامتا، كان مندهشا وبصعوبة ردد:

- أبو مريم . . .ما لك تبدو . . .؟

(هذا الحمار كيف غدا بهذا الطول ويبدو لونه مسودا بعض الشيء. . .)

- اطمئن لصوص الليل انتهى أمرهم. .من معك

جذبه المأمور: دعنا نمضي

فتحرك العمدة مرتبكا، فصاح به أبو مريم: اجلسا . . . لحظات ويكون الشاي جاهزا

توقف العمدة فجذبه المأمور: هيا بنا

قفلا عائدين، بينما كل منهما يلوك خواطره صامتا.

(كنت أظنه هو، لكن السنين الطويلة التي فرقتنا لا يمكن لها أن تمد قامته إلى هذا الحد، أو تحيل بشرته لسواد حائل كالذي رأيته، آآآآه أين يمكن أن أجده، هل أمضي هذه الحياة أبحث عن جرحي القديم، مللت البحث، وهذا الحارس الليلي كان أخر أمل يمكن أن يوصلني إلى بغيتي، أصبحت مسخا وأنا أبحث عن أي أثر لآمنة، هل سينتهي العمر قبل أن أصل إليها[18]).

(هل فعلا هذا هو أبو مريم، لقد غدا عملاقا من أين جاء بهذه القامة المديدة واللون الحائل، لابد وأن بالأمر سرا ما، ما هو يا ترى؟ هل أخبر المأمور أن الذي رأيناه كان يختلف عن تلك الدابة التي ترعى بين رجالي؟ لا، علي أن أعرف السبب بعد ذلك أقرر ما الذي يجب فعله، أكاد أفقد عقلي، من أين له بهذه القامة المديدة؟)

- أمتاكد أن هذا هو أبومريم الذي يعمل معك؟

- نعم هو، هل تريدني أن أحضره لك في الصباح؟

وندم على جملته تلك حاول أن يتراجع وخشي الارتباك وغاص داخله (أه ما بالي هذا المساء أسقط الكلمات كالحجارة، لو استجاب ستنكشف تلك اللعبة التي لا أعرفها، أريد أن أعرف . . . .)

وحمد الله حينما سمع الرد:

- لا أسألك من أي بطن خرجت هذه القامة الطويلة

وأتبع سؤاله بضحكة مقتضبة، فاستجاب العمدة لها بضحكة ممتدة:

---

(18) هذه مقولة مقتطعة من أوراق دفتر أبي العمايم.

- قلت لك أنه بهيمة ظلت الطريق ودخل علينا في دنيتنا

كان يتوقع أن تزيد تلك الجملة من بسط المأمور لكنه قابلها بصمت، فشاركه الصمت وحرص أن يضيء كشافه الطريق بوضوح

- يكفي إلى هنا. .عد إلى بيتك

- ألا تود أن أشاركك الطريق

- قلت يكفي ما أريده أن تنسى هذه الجولة

- أي جولة

- يبدو أنك أنت من ظل الطريق ودخل لدنيتنا

أحس بعروقه تطفر بدمها، وتمنى أن يرد لكنه صمت وترك شتائمه تغوص إلى أعماقه وتسبح هناك كما تشاء، ودعه متضايقا ومتصنعا المرح، وعاد لبيته وسؤاله يتمدد:

- من أين جاء هذا الحمار بهذه القامة المديدة واللون الحائل؟

اخبار وحكايات جمعت من العمدة، أبو مريم، أبو حية

نسقها الراوي في كتابة هذا الفصل

وما جاء بين قوسين حديث خاص أورده العمدة للراوي

قيل للأسد: الطيور هربت من مملكتك، فغضب وطلب رؤية الصقر وتربع كالحكماء وافتتح حديثه سائلا الصقر:

- لماذا تحلق بعيدا عن الأرض؟

فرد عليه بإباء:

- كي لا أشم هذه الجيفة! !

غضب الأسد وطالب بدمه فخفق الصقر بجناحيه عاليا وتبعته كل الطيور! !

** **

يبدو أن أبا حية استنشق العفن الذي في داخلي، ففي إحدى خرجاته الخاطفة

وقف على رأسي متمتما:

- للقلب خفقة واحدة في حياته وبعدها تتساوى كل الخفقات، فحذاري أن تسرق ثوبا علق على الحبل بينما صاحبه جلس ينتظره حتى يجف فإما أن يتركك تغنم ويظل عاريا وإما أن يلحفك بالتراب ساترا عريك للأبد.

25

جلس أبو مريم جوار صندقة السميري يرتشف كأس الشاي، وعيناه تراقبان تلك الأزقة المنحنية فاترتين خطوات سريعة ولهاث يصلان إلى مسامعه نهض وقبل أن يردد: من هناك

لمح عبد الله مقبلا يغالب أنفاسه المتصاعدة:

- المأمور والعمدة قادمان

- إلى أين؟

- لرؤيتك

ارتبك أبو مريم، وحار وتصاعد وجيف قلبه وقفز مرددا: ماذا أصنع؟

- ابتعد من هنا أولا

وتحرك إلى أحد الأزقة الجانبية، وعاد عبد الله راكضا تجاه صندقة أبي مريم ورفع إبريق الشاي المتفحم ومرر يده بقعره، وعاد وصبغ وجه أبي مريم بهباب الإبريق، فصاح به:

- ماذا تفعل؟

- لا عليك، في هذا الليل لن تعرفك أمك

- هي لا تعرف وجهي حقا . . . . . عبد الله دعني أنطلق قبل أن يقبض علي

- لن ترحل، فقط اسمع

- اسمع ماذا

تقرفص عبد الله وصاح به: اصعد على أكتافي

- ماذا تعمل

- أقول لك اصعد على أكتافي واغرس رجلاك تحت إبطي واسترني بالبالطو
- ماذا؟
- افعل ما أقوله لك بسرعة
تحرك أبو مريم، وصعد على ظهره وثني رجليه ودسهما تحت إبط عبد الله، فنهض به فصاح أبو مريم:
- أبدو عملاقا
- الآن استر وجهي بالبالطو وإياك أن تكثر الكلام وإذا احتجت إلى المشي فانغزني بمهل فأتحرك بك
- اشعر بالارتباك، دعني أنزل وأركض قبل أن يصلا إلى هنا
- اصمت، ثمة ضوء كشاف مقبل في اتجاهنا
- إذا لم يكتشف المأمور هذه اللعبة سيكتشفها العمدة
- لا عليك هما بمفردهما فإذا انكشفنا تغلبنا عليهما بسهولة
اطمأن أبو مريم لهذه المقولة، وعندما وقف العمدة والمأمور جوار الصندقة
- هذا مجلسه
- لكن لا أحد هنا
- يكون في دوريته
أطلق نفير صفارته وصاح بهما بصوت غليظ جاهد أن يغير نبرته: من هناك
- هذا هو
كان طود يخترق الليل بهيبة، وهامته تتصاعد عاليا ولون بشرته أسود وصوته أغلظ وقف من بعيد متنحنحا:
- العمدة، خير إن شاء الله
ارتبك العمدة وظل لبعض الوقت صامتا، كان مندهشا وبصعوبة ردد:
- أبو مريم . . .ما لك تبدو . . .؟
- اطمئن لصوص الليل انتهى أمرهم. .من معك

جذبه المأمور: دعنا نمضي

فتحرك العمدة مرتبكا، فصاح به أبو مريم: اجلسا . . . لحظات ويكون الشاي جاهزا

توقف العمدة فجذبه المأمور: هيا بنا

فاقفلا عائدين، تنهد أبو مريم عميقا، وأناخ عبد الله به وهو يصيح:

- لم أتصور أنك ثقيل إلى هذا الحد

وخبطه على ظهره: لقد نجحت خطتنا

- وما يدريك، فالعمدة لم يكن مقتنعا

- العمدة لا يعنينا

- كيف لو عاد الآن

- سيجدك في حجمك الطبيعي وربما تصيبه لوثة فلا ضرر، عليك أن تهدأ وأنا سأتتبع أمرهما

وحاول المضي فجذبه أبو مريم

- كيف عرفت مقدمهما؟

- سأخبرك فيما بعد الآن دعني الحق بهما

ابتلعه الظلام وظل أبو مريم حائرا بين البقاء والرحيل.

ما رواه أبو حية للراوي عن خطته في إخفاء أبي مريم

سافرت إلى الطائف، ومع حلول الظلام تسللت خلسة إلى بيت أبي مريم الذي تحول إلى خرابه تقذف به القمائم، وفي الليل يتحول إلى مكان موحش يثير الرعب والفضول، يقول أهل الحي:

(ما يهطل الظلام حتى نسمع نحيبا لامرأة تولول تنبعث ولولتها من هذه الخرابه وتنادي على رجل لانستبين اسمه إنما نسمع صوتها ينز من بين الأنقاض:

- أحبك لا تتركني لوحدي.)

كنت مصمما على الدخول، أهملت كل التحذيرات التي اعترضتني وتسللت داخل البيت حاملا كشافا صغيرا، ودخلت غرفته، لا أدري ما

الذي أغراني بالمكوث طوال الليل داخل تلك الغرفة المتداعية، كان كل شيء بها قد عبره الزمن وظل محتفلا بالخراب، أهنا فارت رغبة آمنة مرارا؟

كنت أتطلع إلى كل شيء واسترجع تلك التفاصيل التي سمعتها عنها، كنت ألمحها بثوبها الشفاف وشعرها المسترسل تطوف حول رأسي، وبين الحين والآخر أسمع همسها: أحبك.. أحبك.

فأشعر برعدة تعتريني، انتفض وأقاوم رغبة الهرب، وعندما سرت لرؤية قبرها رأيت حدبة تقبقبت بوسط ذلك الفناء المستوي، وحين وقع عليها ضوء الكشاف اهتزت الأرض وربت وتفقرت عن جسد نفض تربته واستفاق من رقدته الطويلة، إنها هي.. رأيتها كما نبت في مخيلتي، رأيتها تنهض من رقدتها وشعرها الثائر يتموج وقميصها الشفاف يبين ثمرتين ناضجتين ارتكزتا على عود رطيب ورأيتها تتقدم نحوي وتهمس بفحيح:

– أحبك.. تعال لا تتركني لوحدي.

اقتربت منها، فتراجعت وغفت في لحدها مددت لها يدي فغاصت في رفاتها، أحسست بعظامها تتهشم بين أصابعي، وصوت عميق ينخر مسامعي:

– أوجعتني يا حبيبي! !

(عذرا لا أستطيع وصف ما اعتراني من مشاعر لحظتها)

وجدت نفسي أركض خارج الطائف فارا من آمنة وميقنا أنها أمست ترابا يثير الرعب وميقنا[19] أنه لم يعد أمامي إلا مها علها تعيدني للحياة.

26

نهار كبقية النهارات، يستيقظ على شقشقة العصافير المتنافرة من أشجار النبق الموزعة بين بيوت الحارة ويستأنس بالأقدام المسارعة صوب بائع الفول،

(19) الظن واليقين مفصلتان يثبتان تواجدنا، مفصلة اليقين أصابها العطب وغدوت باب تمسك به مفصلة الظن . . فلماذا أقول ميقنا . . إنها إحدى الأقنعة التي توهمنا بها الحياة لنتشبث بها جيدا . . والذي أشعر به أنني لست ميقنا من شيء . . وما ورد هنا ربما يكون من لغو القول.

والفطائر والحلويات الشعبية. الرطوبة تنسكب في الشوارع والناس يتقاطرون إلى أعمالهم، فيقتعدون متاجرهم أو مخابزهم، أو يحملون شباكهم صوب البحر، أو يسيرون خلف عرباتهم الحاملة لبضائع بسيطة، وقلة منهم تذهب إلى وظائف حكومية.

حياة آلية ألفوها منذ وقت طويل ولم يطرأ عليهم سوى سؤال جديد يتناقلونه فيما بينهم:

- شيء ما حدث وغير النفوس

نهار يركض حاملا عاداته ورطوبته وأشياءه الخاصة وينزوي جانبا يلتهم حياة بسيطة وعشوائية ويتسكع على وجوه الناس ويغيب دون أن يترك ذكرى تجرح الخاطر ويعود في صبيحة اليوم التالي فيجد أن الشوارع لا تزال تحمل رائحتها، والجدران لا تزال تقف بلونها الحائل، ولا يزال عامل البلدية يعلق مصابيحه الليلية على الأعمدة المزروعة في زوايا الأزقة لوداعه ولازالت صفارات العسة تتهيأ لاصدار صفيرها النافر بين أزقة الحارة بافتعال، لازال نهار قديم يعبر وجوه أهل الحي منذ سنوات مترهلة بالأحلام التي لم تتحقق.

نهار كبقية الأنهر يقف فيه السقاؤون في (البيزان) انتظارا لدورهم ويغادرونه حاملين يحملون (زفاتهم) أو راكبين عربات تجرها حمير بائسة على وشك أن تنفد، ويعودون لانتظار دورا أخر، والمحرجون يجوبون الحراج لشراء أو بيع بضائعهم التالفة، والصيادون أبحروا بقواربهم الصغيرة تشاغلهم أمنية العودة بالبحر، والقهوجية يدورون بين رواد المقهى لتلبية طلباتهم التي لا تنتهي.

ومع الأصيل يخرج الكبار ويجلسون في (مراكيزهم) يتبادلون الأحاديث والنكات وشرب الشاي، ويسربون كثيرا من الحكايات التي سمعوا بها حديثا، والنساء يخرجن كعادتهن يتبادلن الثرثرة والنميمة وآخر أخبار العوانس، والعرائس والمطلقات، والصبايا يعلقن ضفائرهن بشرائط السيتان ويغوين من يروق لهن ليلعبن - سرا - اللعبة المحرمة (عريس وعروسة)، والصبية يلعبون ألعابهم المتنوعة التي غالبا ما تنتهي بشج هامة أحدهم ليعودوا إلى البيت

تنتظرهم الخيزرانات المعلقة على الحوائط أحيانا قد تهتز في الأيدي لتنفض كسلها وتتنزه على جلود المشاغبين منهم.

كل شيء مستقر الأطراف كما تركه الأمس إلا أن قلقا يركض في البال، ونفوسا تنتزع طمأنينتها فتذرف في المخادع والشوارع مقولتها:

- شيء ما حدث وغير النفوس

حتى غدت هذه الجملة لازمة لأهالي الحي، فلا أحد يعرف بالتحديد سببا واضحا لتغير النفوس، وخمودها، وبحثها عن شيء مفقود.

في مركاز شيخ النجارين أبي وحيد تأوه محمد ركبان:

- أحس بنفسي يضيق حتى أني لا أشعر برغبة في الحياة

كانت جملته رأس دبوس فجر الصدور، ومدد الآهات بلا خجل حتى تداخلت تعليلاتهم في سبب هذا الضيق الذي انتشر بينهم، فقال السمكري:

- تغير الزمن وإذا تغير عليك أن لا تلتفت كثيرا فلا أحد يستطيع أن يعيش زمنه وزمن غيره

تنحنح شيخ النجارين مفتعلا ومعقبا:

- (ياراجل) كيف تغير الزمان، لازلنا كما نحن، فنحن الذين نعيش فيه وحديثك هذا يعني أننا أصبحنا في زمرة المخرفين، أي زمن الذي تتحدث عنه.. قل كلاما أخر

لم يرق حديث شيخ النجارين للركبان فلتفت إليه مستنكرا:

- وما الذي حدث حتى جعلنا لا نشعر بهدوء الأمس، أو أنك لاتشعر بما نشعر

وبأسلوب العارفين تمطى شيخ النجارين وعمق بصره:

- كل ما نحس به هو حنين لأيامنا الماضية

- ها نحن جميعا موجودون ونمارس كل عاداتنا فأي حنين تتحدث عنه

- الإنسان يحن إلى شبابه ومغامراته وحكا.. . . .

وقبل أن يكمل شيخ النجارين جملته قاطعه المنديلي:

- لا.. لا لقد تغيرت نفوسنا لم تعد تحب بعضها، كلنا سمعنا ما حدث

للشيخ أبي عمر، كلنا جبنا عن مساعدته، هل كان يحدث هذا في الماضي القريب

انفعل العريفة ورفع صوته محتدا:

- ماذا تريد أن تقول؟

فحاول المنديلي تلطيف كلامه:

- يا أخي كل واحد صار يقول نفسي نفسي، لقد تفرقت أعواد الحزمة

صاح العريفه محتدا:

- أي حزمة وأي أعواد

فخاطبه الركبان بالنبرة نفسها:

- ولماذا تحتد نحن نتحدث بود، فلا داعي لكل هذا الصراخ

سكت العريفه وهو (يشوح) بيده على مضض، فقال الأعمش:

- لو قلنا إننا نحن لماضينا فما حكاية النسوان والأولاد

فرد شيخ النجارين:

- يا أخي هؤلاء دنيتنا ولباسنا والجسم الأجرب ينقل العدوى، وأول من يحملها ثوبك

كان أبو موسى صامتا وعندما سمع هذه الجملة تدخل قائلا:

- لا يا جماعة المشكلة ليست هنا، أنا أتصور أن الدنيا انقلبت لم تعد كما كنا عليها دخلت أشياء كثيرة في حياتنا وغيرتنا، في السابق لم يكن هناك مدارس ولم تكن هناك وظائف، ووتيرة حياتنا واحدة الآن تغيرت، فلان في العمل ولا بد من النوم من أجل الأولاد يبكرون للمدرسة وهكذا

أحس المنديلي برغبة في معارضة أبي موسى فعقب مستعجلا:

- هذا كلام فارغ، فجميعنا كان يذهب إلى العمل وأبناؤنا يدرسون في البيوت أو في الكتاتيب، وبعضنا يغيب في البحر أو في عمله لأيام فلماذا لم نحس بهذا الشعور الذي نحس به الآن؟

واحتد الكلام بين المناديلي وأبي موسى فتدخل الركبان:

- صلوا على النبي هذا خصام وليس حديثا

فقال أبو موسى:
- ألا ترى غمزه ولمزه؟
- لم يغمز ولم يلمز ولكنك تذكرت أغنامك فثرت
وتضاحك الجميع فصاح السمكري: لا تخرجونا عن موضوعنا
فقال إبراهيم الفوال:
- كلكم يتهرب من قول الحقيقة
فصاح به الموسيلي:
- وما هي الحقيقة يا (أبو العريف[20])
لم يجعل سخريته تتمادى وعقب على الفور وكمن رأى ببصيص نور:
- الذي تغير المأمور. . .
وصمت وعيناه ترقب الحاضرين وعندما لم يجد اعتراضا اكمل:
- كان المأمور أبو شايب واحد منا يحل مشاكلنا بود ويمنع هواة الصيد في المياه العكرة أما الآن فهناك مركز وهناك مدعي ومدعى عليه
- من يوم أن خلق الله الأرض وهناك داع ومدع
- نعم لكن أبا العماعم جعل كل منا شكاءين فأصبحنا لا نصبر على بعضنا، لقد طرد التسامح من بيننا
فصاح السمكري:
- نعم لقد أصبح كل منا يحفر للأخر ليكسب الحظوة

(20) أبو العريف لفظة شعبية تدل على الاستهزاء وهي مشتقة من العارف ببواطن الأمور فإذا تحدث شخص غافل عن أمر من الأمور مظهرا دراية تامة بما يتفوه به قيل له أبو العريف وروى السمكري أن أول من استخدم هذه اللفظة كان داود الهندي حينما امتدح عمه الذي لا يتورع عن الحديث في أي أمر مبديا علما فياضا في كل ما يتفوه به إلا أن السامع ظن أن داودا يسخر من عمه فنقل الحديث إليه قولا محرفا مفاده : أن صبيه داود يهزئ بحديثه ويصمه بالدعي هذا القول اغضب عم داود وطرده من خدمته وبعد هذه الحادثة عممت كلمة أبو العريف كمصطلح غالبا يطلق على من يستهزئ به.
روى هذه المعلومة أبو النون

ضرب العريفه فخذه مستهزئا:

- إذا مشكلتنا المأمور... انتهت كل شماعاتكم ولم يتبق إلا المأمور

احتد إبراهيم الفوال:

- لن تصل إلى العمودية فكل شيء سيذهب لمن يحبه المأمور فاترك عنك تقبل الصفعات بدلا عنه

فنهض العريفه مغتاظا ويده تتراكض في اتجاهات مختلفة: ومن قال لك إنني أبحث عن العمودية؟

- نسيت دورانك المحموم للقبض على لصوص الليل وحلمك أن نحملك إلى العمودية حملا

تغير صوت العريفه وحاول تلوينه بحسرته:

- هكذا تجازون من يعمل على راحتكم وتقبل المخاطر عنكم والله إنكم...

فصاح به الركبان: لا داعي لكل هذا الانفعال الذي قد يقودك إلى ما تكره ونكره، نحن نتحدث عن سبب ما نشعر به من ضيق، وكل واحد يراه في شيء فلا داعي لكل هذا التشنج

تطاير الزبد من شدقي العريفه: يشتمني ويكون هذا ردك يا شيخ، والله لم أكن أتصور أن هذا قدري عندكم

فقال له شيخ النجارين: قدرك كبير يا أبا حسين فلا تغضب

هم بمغادرة المركاز، وهو ينفض مؤخرته متباطئا، واستجاب لجذب شيخ النجارين ورجائه بالبقاء، فعاد إلى جلسته مقسما على ألا يتكلم.

كان خميس مشحونا من العريفه وتمنى لو أنه غادر المركاز ولكي يغيظه أمن على مقولة الفوال:

- لم يتغير إلا المأمور ورجاله الذين ينفذون أوامره وكأنها منزلة من السماء

وتبادل مع العريفه نظرات حارقة محتدمة، فقال شيخ النجارين:

- لو كان كلامك صحيحا، فهل يقدر فرد واحد على تغيير مجموعة

- من يأمر وينهى يغير أمة وليس حارة ولا مدينة

جاء صوت السمكري متحفزا: لماذا لا نجلس معه ونناقشه فليس من المعقول أن يخرب حياتنا

فقال خميس: أنسيت عجرفته، وقوله أنه ليس في حاجة إلى أحد منا

فقال الأعمش: وماذا نعمل؟

وبتوتر صاح الركبان: كونوا رجالا

فتداخلت الأصوات :

صوت 1: (افا واحنا ايه)

صوت 2: بدأت تغلط

صوت 3: (شايفنا) نسوان نمشي نتقصع.

صوت 4: أو أننا نمضغ اللبان

صوت 5: لا.. لا، أو شعورنا على عيوننا

فارتفع صوته حازما:

- يا إخواننا خافوا الله لم أقصد الإساءة

وتخلى العريفه عن قسمه وقال:

- قصدت أولم تقصد فأنت دائما هكذا

فقال شيخ النجارين معتذرا: عفوكم يا إخواننا دعونا نسمع ما يقول

- آسف إن أخطأت التعبير فالذي اقصده أن نكون على قلب رجل واحد وأول خطوة أقترحها أن نبعث له عمد المهن وكبار الموظفين من رجالات الحارة يفهمونه أننا لسنا غنما يسوقها

فصاح العريفه:

- اسمعوا ما يزال يغلط، يقول (غنم)

- يا رجل صل على النبي دعه يكمل

قال الموسلي: وإذا لم يستجب لما نقول

فقال خميس:

- يا أخي هناك من هو أعلى منه ولا يرضيه ما يفعله بنا

فعقب السمكري محذرا:

- هو دائم الجلوس في وسط الطريق وقبل أن تصل شكوتك يكون قد أوصلك البحر

فصاح الركبان:

- يعني نسكت على ما يحدث

فرد عليه شيخ النجارين:

- ما الذي حدث، (طفشانين)، هي الحكاية نفسها منذ الأزل، روى أبي أن جدي لم يكن راضيا عن أوضاع المدينة وجاء أبي ورفض المأمور السابق لأبي شايب، ويقول إنه عاش عيشة أحسن من عيشتنا، ولم نكن جميعا راضون بمقدم أبي شايب وسوف يأتي زمن ونبكي على هذه الأيام ونقول لأبنائنا أننا عشنا أحسن منكم، خليها على الله

فزفر الركبان بحدة:

- ماذا يعني خليها على الله نعلم أن كل شيء على الله

فرمقه العريفه بنصف عين وأردف متهكما:

- شممت روح العافية اذهب واطرق بابه وقل له هذا الكلام

- انظروا كيف يفكر العريفه؟

فرد خميس:

- هو من الموعودين ألا ترى منافحته عن المأمور فمنذ تسلط المأمور على عمدة الهندامية وتهديده بنقل العمودية إلى شخص أخر، ومن يومها تحول إلى مسبح باسم المأمور

فز العريفه مستنكرا قول خميس وصائحا:

- إلا الغلط، فأنا منكم (الكلام في الفاضي والمليان) يجلب الدوار

قال السمكري يائسا:

- ياسيدي هو مثل كل من يمسك العصا

فرد خميس:

- هل نجلس كالصبيان نتلقى الجلد ونتوسل إليه أن يكف عنا يده وسوطه؟

فقال شيخ النجارين:

- هذا أفضل الحلول

- لا هذا كلام من يخاف، والحقيقة انه رجل مفتري

- نعم ماذنب عبد الله الفسيني أن يقذف به في السجن.؟

- لقد حوله إلى مجرم كل يوم وهو في السجن، هذا لا يرضي الله ولا رسوله

- ونسيتم أباعيشة هذا الرجل الذي كان كلامه محل احترام الجميع، نسيتم ماذا فعل به، والله إني استحي أن تلتقي عينينا لذلك لم أقدر على زيارته

- تصدقوا انه رقد على سريره من بعد الحادثة ولم يقم

- يقولون أن أطرافه فقدت الحركة ويرفض استقبال أي أحد

- يحق له المسكين، لم يكن يتوقع ما حدث فلم يقدر أن يتقبل صدمة المأمور الثقيلة

- صدمة آيه، أبوعيشة غلط على المأمور وظن نفسه هو (الشايل المايل) فطرده

- ياأخي خاف الله، كان هناك ناس ومنهم محسن الدافوري وأبو النون وكلهم يؤكدون أن (أبوعيشة) لم يغلط كل الذي طلبه الشفعة

- أصل (أبي عيشة) دائما يدخل (عصه فيما لا يخصه)

- (أيوه) هذه هي مصيبتنا كل واحد يلقي اللوم على الأخر وفي أحسن الأحوال يقول (وانا مالي)

- (يعني الزبدة أيه)

- أن نلتف على أنفسنا ونوقفه عند حده

- هذا كلام كبير ليس لي طاقه على قوله ولا تحمل تبعاته

وانسحب علي البريكي، لتتقاطر في أثره مجموعة كبيرة، ليجد السمكري نفسه وحيدا يجالس عمدة النجارين والذي بدوره أبدى استياءه، ورغب في أن ينقلب إلى أهله.

وطدت علاقتي بإحدى عجائز حي الهندامية، وأصبغت عليها كثير من النعوت التي تعيدها صبية، وعندما طلبت منها رؤية مها صكت وجهها صارخة:

- هل تظنني قوادة يا لعين.

لقد أطحت بكل ما كانت تحلم به، كانت تظن أنني راغبا فيها.

إننا نكسر بعضنا دائما بقصد أو بغير قصد.

كنت أجد نفسي - يوميا - من الصباح الباكر اقتعد مكانه تحت عمارة الجوهري أتصنع البحث عن أخبار ابي حية وصديقه بينما تحرقني لفحه الانتظار وكلما هممت بالمغادرة باغتني هاجس حلو:

- انتظر ربما تطل الآن

فاظل مثبتا في مكاني كمسمار علق على جدار مائل.

27

كالإعصار قدم المأمور أبوالعمايم، فاقتلع كل شيء من مكانه وأحال الحارة إلى دوامات من المشاكل التي لاتنتهي واستطاع خلال فترة وجيزة أن يغير مسلك الحي ويقوده إلى تغيرات جذرية غيرت نفوس القاطنين، ولوثت كل شيء، فحافظ الكثيرون على مواقعهم بلبس لبوس لم يلبسوها من قبل، وغدا رضاؤه هدفهم ومسعاهم فركبوا الظلم وتناموا شوكا في راحات من يناصبه العداء.

من أقوال ياسين السمكري

لم تمض على مقدمه سوى سنة واحدة حتى كانت الكوارث تسير في الطرقات على أرجلها والخوف يتكاثر كأرانب برية، كان شخصية تحركها أهواؤها ولم يكن له موقف محدد فسلوكه العدواني لم يكن مبررا لكثير ممن حوله أو من يسمع عنه فقد كان يعمل على كسر الأشخاص والأمكنة والعبث بكل ما يثير في داخله شهوة التسلط، فيثور لأتفه الأسباب، ولا تعيده إلى هدوئه كل التوسلات التي يسكبها الكبار والنساء على مسامعه، عنيد يحب المماحكة، ويتلذذ بأذية الآخرين، لم تكن به نواقص تدعوه لأن يظهر كل هذا العنت فهو

رجل على درجة عالية من الوسامة وينتسب إلى أسرة ذات جاه ومال وحظي بعلوم لم تكن متوفرة لكثيرين من أقرانه فقد اختير مع جملة من زملائه للسفر إلى مصر في بعثة دامت لثلاث سنوات وعاد من هناك ضابطا وتنقل في وظائف مرموقة وكان محل حفاوة رؤسائه كل هذه المميزات لم تخفف من عنجهيته وبطره فقد كان صلدا لا يطاق، ويبدو أن كل هذه الميزات ملأته غرورا وجعلته يشعر أن لا أحدا يوازيه في نبل نسبه وجاه ذويه.

من أقوال الشيخ المقرئ محمد الركبان

لم يلاحظ عليه الابتسام يوما ما فكل كلماته تخرج من عمق حنجرته مصحوبة برذاذ متطاير وإذا ابتسم تهكم.

من أقوال أبو موسى

عندما جاء دخل إلى الحي بلا مقدمات، ولم يكن يعرف عنه شيئا البتة سوى أقاويل سبقته تنبئ بحجريته وعنفه، وقد تناقل الناس خبره في عزاء أبي شايب لكنهم لم يكونوا يتصورون أن تبلغ وحشيته هذا الحد.

جاء من الطائف بمفرده واستأجر - في البدء بيت أبي طيرة -، وما لبث أن اقتطع أرضا كانت وقفا وأقام بها منزلا فاخرا تحفه أشجار الموز والليمون واللوز البجري والهندي وفواكه أخرى لا نعرف كيف يستنهض نموها وجنيها في غير مواسمها، ولم يتمكن أحد من معارضته حين سور تلك الأرض فقد كانت تحت إشراف امرأة عجوز تدير معها أملاكا متعددة، ولا أحد يعلم بالتحديد كيف أقنعها أو أرغمها على التنازل عن تلك الأرض، وبلغ تسلطه أن شق طريقا لسيارته بين تلك الأزقة الملتوية هادا أجزاء من بعض البيوت ليكون ممرا لسيارته، ولم ترق فعلته هذه لأعيان الحي فقاموا بتكوين جماعة تعاتبه على سوء تصرفه فاستقبلهم بتصرف أسوأ حيث قال لهم:

- من لم يعجبه ما افعل فليترك المدينة

فاستاء الكثيرون مما حمل الشيخ أبو عمر على القول:

- لم نأت إليه هو الذي جاء فليتركنا

وقد وصلت إليه هذه الجملة محرفة، مما جعله يشتط غضبا ويجر أبا عمر

للمركز لتحريضه الأهالي على العصيان وكاد أبوعمر أن يسجن لولا أن تدخل أعيان الحارة وبعد وساطات متعددة أفرج عن أبي عمر الذي غادر الحي ولم يعد إليه بتاتا.

من أقوال الموسلي

لم ترق تصرفاته لأحد، حتى أولئك الذين تقربوا منه وجدوا أنفسهم محاصرين فقد عمل على رصد تحركاتهم وسكناتهم ولم يكن يسمح لأقرب المقربين أن يتبسط معه، فقد أضفى على نفسه عدة ألقاب، والويل لمن لا يلتزم بآداب الحديث معه، كان يكره النصح ولا يقبل المشورة فرأيه مقدم على جميع الآراء، وما يراه يصبح نافذا، وطيلة مكوثه في المركز لم يشارك الناس أفراحهم أو أتراحهم، فكانوا يأتونه ولا يأتيهم، ولا يقبل شفعتهم، فقد قدم إليه الشيخ أبوعيشة متشفعا لابن الفسيني فطرده أمام الملأ، لم يصدق أبوعيشة ما حدث، ارتعد ولم يقدر على السير فسقط في مكانه، كان ينظر إليه ببرود ولم يكلف نفسه أن يساعده في النهوض خشية على بزته العسكرية أن تتثنى، تمتم محسن الدافوري خائفا من سطوته:

- هذا أبوعيشة صاحب رأي وفضل

فزجره المأمور:

- ليس لي به حاجة

فتحرك الدافوري يسند أبا عيشة الذي ظل في حالة ذهول، وعاد إلى بيته بمساعدة الدافوري ولم ينهض من فراشه.

من أقوال عزيز قدوره وكان حاضرا الواقعة

عندما كنت هاربا بلغني أن المأمور يبحث عني، كنت خائفا أن يغتالني أبو حية فذهبت إليه فحرضني على ملاقاته قائلا:

- لو قتلته سأجد لك مخرجا

وعندما تململت أوكل المهمة للصامولة.

من أقوال محمد ناصرالمشهور بالأعرج

تسلط الصبيان لسيارته، حيث دأبوا على انتظار وصول سائق المأمور إلى المركز فيتسابقون إلى رشق قزازها أو تقطيع كفراتها ولم يتوقفوا إلا حين أمر المأمور بأخذ غرامة من أهل الحي فمن لديه ابن يدفع الغرامة عند حدوث أي أضرار بسيارته، فتوقف الصبية عن فعلتهم، وتسلطوا على إتلاف ثمار أشجاره البازغة من فوق الأسوار، وقطف تلك الثمار بصنانير أعدت لهذا الغرض، فمنح حراسه وصبيانه حق فض هامة من يجده يتلصص بثمار أشجاره.

هذا التسلط، لم يزده إلا سخطا بمن هم حوله، وكان دائما ما يردد:

- أنا كمن ركب جملا في البحر

من أقوال إبراهيم الأعمش

لا أعرف لهذا الرجل شبيها، فهو يجمع بين الصلف والرقة، فصلفه مع من حوله ينفي أي رقة يمكن أن يتمتع بها إنسان، ورقته عندما تراه يستمع إلى الغناء تنكر عليه أن يكون هو الشخص نفسه الذي يتطاير صراخه في كل مكان حتى تظنه بوقا لسيارة انفلت نفيرها.

إني لأعجب منه، فحين نجلس سويا لسماع الغناء يغدو عاشقا متيما، ويتلوى شوقا ورقة، هل يمكن أن يكون الإنسان ضاريا واليفا في نفس الوقت؟

من أقوال محمد الشرقي نائب المأمور السابق

شعرت بعيونه تخترق جسدي وتقف بغريزة حيوان جائع، خفت منه وأخبرتك لكنك دائما تكرر: أنت تتوهمين، أما الآن فعليك أن تكون رجلا وتحميني من عمك

من أقوال مها المورقي

لم يكن مقدمه مبشرا، وكان الناس يترحمون على من سبقه بحزن ويذكرون أيامهم الجميلة ويرددون مقولة الشيخ الركبان:

- أن هذا يحمل البيض في جيب واحد

وكان أول عمل قام به حين تولى مأمورية المركز أن منع العمدة من تكملة

عزاء أبي شايب، مما حمل عبد الله لأن يذهب إلى المركز ويكيل له من الكلمات الجارحة ما كلفته شهرا كاملا داخل السجن.

وبعدها توالت دخلاته وخرجاته من السجن، وفى آخر مرة خرج يحمل لقب (أبي حية.)

من أقوال خميس أحد أعيان الحارة

أهل الحي يبالغون كثيرا في نعت المأمور ويصبغون عليه نعوتا بشعة، هم يحبون دعة أبي شايب أما أبو العمايم فقد جاء مناقضا لكل تلك الصفات التي امتاز بها أبو شايب ومن هنا كرهوا كل ما يقوله ويفعله خالد ابو العمايم.

من أقوال شيخ النجارين

سأقول لكم خبرا أرجو ان لا تذيعوه، فأحاديث المجالس أمانات.... جاءت امرأة - الله يستر عليها - تشتكي من تلصص المأمور ولأنها فقيرة ومعدمة خشيت أن يبطش بها وسألتني الرأي، فلم أعرف ماذا أقول لها؟

فماذا ترون؟ .. هل أحدثه ام أصمت؟

من أسرار عمدة الحارة مع بعض الأعيان

- يوميا يأتي ويظل قابعا تحت عمارة الجوهري، وليس له من هم سوى السؤال عن أبي مريم وأبي حية

* ربما يكون من أحد رجال الشرطة

- لا هو يبحث عن شيء أخر لقد لمحته يتلصص على بيت المورقي

- وما قصته؟

* لا أحد يعرف، الذي نعرفه أنه يسأل دائما عن حكايات الاثنين أبي مريم وأبي حية

- هل ترى أن علينا أن نمنعه؟

* ربما يكون من رجالات المباحث عندها ماذا نفعل؟

حوار بين اثنين من رجالات الحارة سمعتهما خلسة وهما يتحدثان فيه

يبدو أن حارتنا موعودة بفزاعة في كل حين تقف على هامتها، فبعد

رحيل أبي حية هانحن نستقبل غريبا ليس له من هم سوى المكوث عند مخرج الحارة.

أتكون هذه دعوة أبتلينا بها. ؟

امرأة كانت تحدث مسايرتها حين رأتني جالسا عند مخرج الحارة

يا ابني الحياة لا تعطيك كل ما تحلم به فارضى بما تمد به إليك، فانك لن تستطيع أخذ ما لاتريد أن تعطيك.. ألم تسمع بالمثل الشهير: ارض تعيش

نصيحة من أحد عجائز الحي للراوي

نحن السبب في مصيبة أبي حية، تعرف لماذا؟

- لماذا؟

- لأننا لم نتسامح معه، ونبذناه فنبذنا وعاش من أجل الانتقام

مقولة للدندون أحد أصدقاء أبي حية

في إحدى الليالي أصيب بأرق فطلب مني أن أعد له شيشته، وحينما عدت حاملا رأس الشيشه سمعته يردد اسم أبي حية ظننت أنه يسامر أحد أعوانه فتريثت وأصغيت لحديثه.. قال:

- أبو حية سيسرق مني مريم مرة أخرى

وجأر فارتعدت واقتربت من مجلسه فلم أجد معه أحد وقبل أن أصل إليه سمعته يردد:

- لن أمكنه من هزيمتي أبدا ولن ألدغ مرة أخرى.. يجب أن أظل محتفظا بها

وعندما لمحني أصفر جلده وفارت شتائمه:

- هل سمعت شيئا

فهززت رأسي نافيا

ذكريات حارس المأمور الخاص عن الأيام التي لم ينم بها سيده

* أتذكر تلك الكلبة التي قضمت أبي مريم؟

- ما بها؟

* لقد عادت إلى الحارة وليليا أراها رابضة جوار صندقة السميري وهي تتشمم رائحة أبي مريم

- هل يعني أنها أحبته؟

* نعم فمثله لا يمكن أن تحبه سوى كلبة من الكلاب.

وارتفعت ضحكاتهما عاليا بضجيج مفجرا سكون الليل.

حوار لمخمورين كانا يسترجعان سيرة أبي مريم

كان الاتفاق أن ينهي الصامولة منازلته لأبي حية ببتر ساعديه لكن سرعة ودقة ضربات خصمه حالت دون اكتمال الاتفاق، وعندما ظهر المأمور كان كل شيء قد انتهى.. وكان المتبقى دما مسفوحا على ارضية الاسفلت وخشية تحوم في صدر المامور من أن تندلق لسان الصامولة بتفاصيل الاتفاق السري.

الأعرج الكائن الوحيد الذي علم بالمضمر فاسر به لأبي حية أثناء النزال.

ما رواه أحمد العجل للراوي عن لحظة النزال

أقوال جمعها الراوي من حارة الهندامية

كانت الوردة تظن أن الناس أرق وأرأف المخلوقات وقبل أن تكمل هذا الظن قطفت

**** ****

أصابني رذاذ كلام لتسري قشعريرة في أوصالي:

- أختك تفتح الباب في الليل لشبح يظلل أنوثتها.

الاصابع التي تقطف الوردة لاتعرف مقدار الضرر الذي تخلفه لغصن مضى عمرا طويلا لكي يوصل تلك الوردة للحظة تفتح، هل يوجد شخص يطاردني في الاتجاه المعاكس؟ ..

أم أن هذا هو ما يسمونه بالقصاص العادل؟

لقد اقتربت من مها كثيرا..

28

كلما جئت امرأة أجفلت وسقطت جوارها كخرقة تالفة.

نساء عديدات كشفن رخاوتي وعجزي، وعطارون عديدون مزقوا هيبتي وهم يحشرون أدويتهم بيدي وأفئدتهم تتراقص طربا للخزي الذي يرونه في عيني دون غيرهم، بكل وقاحة يتجرؤن ويغمسون أفواههم المبخرة في أذني:

- هذا الدواء سيعيد فحولتك الذابلة

وشربت وسففت كل الأدوية، وفي كل مرة أرفع رايتي قبل البدء، أتحرق شوقا إلى حضن امرأة وعندما أتهيأ وأجمع كل قواي لإنجاز تلك المهمة يتقافز إلى مخيلتي بندر وشومته وهي تدور في الهواء وتنزل على هامتي بكل حقد، فاصرخ واسقط على صدرها أبلل نهودها بعجزي فتزيحني عنها كثمرة خاسئة حطت على تفاحتين ناضجتين.

آمنة امرأة لم تقل الأرض مثلها.

سنوات طويلة مرت وهي تقف في البال، وهمسها وشوقها ينخران أضلعي، أحببت جسدها وروحها اللعوب، كانت تعرف كيف تحرك المياه الراكدة، منذ أول يوم رأيتها أحسست بنار تتأجج في ظهري وتنسكب شبقا ولوعة، شاغلتها مع من شاغلها، أحببتها وكرهتها، وعشقتها واحتقرتها، حين أكون بين أحضانها أنهل من رضابها وكأنها الحياة حتى إذا أنخت بلذتي قفزت من على صدرها وهي لا تزال تطلبني، كانت كبئر كلما أسقطت دلوك فيه منحتك ماء الحياة.

تهمس دائما:

- أحبك يا خالد

أسلمتها بيدي لذلك المعتوه، كنت فظا معها، فبعد أن فتحت بابها المغلق، لم تعد تكترث بشيء سوى الوصول إلى المتعة، كنت أشتاق لها كلما خطرت على بالي، وأداخلها بشوق فياض، بعدها أرفسها وأمضي وأعاود الكرة في المرة القادمة، كانت علاقتي بها اشتياق ونفور، اختفت فجأة بعد تلك الليلة، أظن أن ذلك الثور حملها إلي مدينة أخرى ومضى.

في تلك الليلة وبعد أن دفعت بزوجها للعمل دفعا، جئتها ولم أكن متوقعا تلك المفاجأة التي ألقتها على مسامعي فرحة:

- خالد أنا حبلى منك

شعرت بدوار وأن الأرض تميد بي وتقلني، لم أشعر إلا ويدي تستقر على خدها، وخرجت مسرعا، ليلتها حاولت أن أنام لكن صوتها كان يتردد في أعماقي برنة لذيذة:

- خالد أنا حبلى منك

خرجت أركض، وجدتها لا تزال تكفكف دموعها دفعت الباب فصاحت متضايقة:

- ما الذي جاء بك..

- ....

- كم حذرتك من ترك عملك

وعندما رأتني قفزت من جلستها، وتعلقت برقبتي وهي تلثم وجهي وجبيني ويدي وقدمي وتبكى بحرقة:

- أحبك يا خالد، ارحمني

كانت تغضبني كلما أهنتها، فجمعت جميع شباب الحارة أمام منزلها، فكلما هجرتها اختارت شابا وشاغلته، كنت كل ليلة ألقاها فألثمها وأحاول الوصول إلى رغبتي فتدفعني عنها بصعوبة، تشتكي الدوار وتغمض عينيها وفجأة تنكمش على نفسها وتبكي:

- أحبك يا خالد فلا تعقرني إذا كنت تحبني تزوجني

وفي كل مرة أمنيها بالزواج وأضع عراقيل كثيرة ومع كل وعد أصل إلى منطقة أعمق من جسدها حتى فجرت سدودها وأغرقتها في الفجيعة، أذكر أنني تركتها تمسح دمها ودموعها وخرجت أركض.

وأظلمت الحارة لثلاث ليال، لم تطل من طاقتها، وطفنا بدارها وغرقت ألسنة الشباب في الأسئلة لم يكن أحد من الشباب يعرف سبب تغيبها وكثرت الاحتمالات فقيل: مريضة، ستتزوج، ضربت، تابت، كل تلك الاحتمالات

كنت أسمعها، كنت الوحيد العارف سبب تغيبها، كانت تردم قلاعها التي هدمتها.

في تلك الأيام عجزت عن الوصول إليها، وأصبت بالسعار كنت أتمنى رؤية عينيها ولثم خديها والاعتذار.. لقد أغلقت كل المنافذ التي توصلني إليها، وطفت حول بيتها مع من طاف، ونذرت مع من نذر، بعد ثلاث ليال أطلت ومنحت عينيها للجميع وتركتني أبحث عن عينيها.

شباب كثر حطت عصافيرها على وجوههم فنبتت في قلوبهم أمان وأحلام خضر بأن يكونوا شجرتها التي تحط عليها كان آخرهم بندر، شعرت بالمهانة، ونازلته في إحدى المرات وأشبعته ضربا كنت أشعر بحقد عنيف وأنا أتصوره يلتصق بفخذيها، فكنت أضربه كما لو أنه قاتلي.

كانت تقف في رأسي في كل حين بدأت تستحل وجداني منذ ذلك اليوم الذي غابت فيه شمسها وخرج شباب وعجائز الحارة يبحثون عن عينيها، وسالت الدماء والدعوات لن تطل علينا ثانية، منذ ذلك اليوم نمت بذرتها داخلي وأخذت تفرش في كل أعماقي وأنا أكابر وتأخذني العزة ويلهبني سوط الكبرياء:

- أسلمتك نفسها

فأقذفها خارج تفكيري، وكلما نبتت في مخيلتي ركضت إليها، كانت تسعى لإرضائي بأي شيء، وكلما اقتربت بعدت عنها، يا الله أين ذهب بها ذلك الكلب؟

بحثت عنهم في كل مكان يمكن أن يطرقه إنسان وجندت خلقا كثيرين لمساعدتي في البحث ولم أعثر على أي شيء، تنازلت عن كبريائي وتبسطت مع خلق كثير وكنت أحشر سيرتها عل أحد ا يعطيني خبرا عنها لكن بلا جدوى، رأيت نساء - بلا عدد يحملن أسماء آمنة ومريم - بوسائل مختلفة ومفتعلة في أغلب الأحيان، كان من الظلم أن تحمل هذه النساء اسم آمنة فليس لها شبيها بينهن أبدا.

بالصدفة رأيت مها، أصبت بالذهول هي بذرة من آمنة، ارتعشت كثيرا لرؤيتها، هل هي مريم؟

كنت أتربص بها، وتقربت من أبيها، ومنحته من نفوذي حتى ازدهرت تجارته، فكرت في الزواج منها، وتراجعت، ربما تكون مريم، ربما، انشغلت بها كثيرا واهتديت لفكرة تزويجها بابن أخي - هذا الشخص الذي أتعبني أكثر من أن يسعدني، لا أظنه نبتة أصيلة من شجرتنا فهو دابة تسير في الأرض لا يحفزها للحياة سوى الأكل والارتماء على ظهره يشخر كبهيمة ملأت بطنها بالماء ولم تعد قادرة على السير - وبعد الملكة ندمت على تفريطي فيها فحين وقف أبوحية أمامي يساومني بسره الذي يحمله عرفت أنني فرطت في آمنة مرة أخرى.

يا الله لقد قتلني هذا البهيمة، ليته لم يخبرني كنت عشت على أمل أن ألتقي بآمنة، أو أن أعيش على وهم أن مها هي مريم.

انكسرت وغدوت خرابة تقطنها الأشباح، شيطان يسكننا ويوحي لنا بالرذيلة، والمرضى أمثالي لا يقوون على الصمود في وجهه، كان ابن أخي أقل مقدرة من أن يجعل مها شبيهه بآمنة، سعيت لها، وعادت آمنة تركض في دمائي، وأوردتي وتتعلق بعنقي:

- أحبك يا خالد

تقف بشحمها ولحمها، مكسورة بحزنها، باردة الأطراف، لم يعد بندر يقف بيننا، شومته تغيرت ووقف أبوحية يحمل ساطوره ويقترب، ومها تقف خلفه ويقف بيننا بهيمة لا أظن أنه من شجرتنا.

ليليا أحارب هذه النفس الخسيسة، وليليا أسقط صائحا:

- آمنة

خشيت أن أقع في الغواية، وكلما جاء الليل تسيبت في الشوارع هائما وهواجس مجنونة تجر خطامي فأتبعها ملبيا، كنت فيما مضى أخرج باحثا عن آمنة، أما الآن فأخرج هاربا من نفسي، هاربا من مها، ومن خلفي يركض أبو حية حاملا ساطوره، وهي تحرضه من بعيد.

أوراق متباعدة من دفتر المامور أبو العمايم تم تنسيقها ودمجها بهذه الصورة

الكوارث دم الحياة التي من خلالها تتجدد.. تتشكل وتخلق وجودها من لحظات تصادمنا، فسر عظمة الوجود أن الحياة تصنع من آهاتنا درجا يقيها من البلل.. هذا الدرج أنا وأنت وهي وهو كلنا سلالم تطأها الحياة لتواصل ركضها الأبدي وجميعنا يحني ظهره لتعبره وهو متيما بهذا الدهس اليومي، ولم يتجاسر أحد بالرفض.. رفض أن نتخلى عنها مختارين إننا مولعون في تزويدها بزمن إضافي.. ماذا يحدث لو أقدمنا - جميعا - وتخلينا عنها.. أظن أننا سنجد أنفسنا اكثر تحررا من سطوتها وستغدو أيامنا اكثر بهجة واقل قلقا ونصبا.

فالموت أداة جيدة لمحاربة الحياة ونزقها.[21]!!

** **

توقفت حياتي بعد أن قذفت من تلك الزنزانة كنت متصورا أن أجد شيئا أعمله، فوجدت كل الأبواب مغلقة، وكل الوجوه مدبرة، لم أجد شيئا أفعله سوى متابعة هذه الحكايات، إننا نصنع حلما نعيش داخله ربما نعلم علم اليقين أنه وهم ومع ذلك نحيا فيه كي ننسى أننا غدونا حبالا مهترئة لا تربط شيئا ولا يحفل بها أحد.

مضى زمن طويل وأنا أعيش داخل هذه الحكايات التي جمعتها، هذه الأيام طرأ على بالي ذلك المثل القديم العميق: -(اللي ما عنده قرش ما يساوي قرش)

فعرضت نفسي للبيع، وليس هناك من شار لقد غدوت سلعة غير قابلة للاستهلاك ...مللت الاستجداء، مللت مضغ وساوس الأمس، مللت النبذ، التفكير، الصواب والخطأ، مللت كل شيء وهاهي الأنفاس تتسرب من جسد منهك محبط ولازالت شعارات أولئك المهرجين تتدلى على صدري فأبدوا كمجنون هرب من مصحة الأمراض النفسية كل ما يتفوه

(21) كتبت هذه التأملات بعد أن بلغت نهاية كتابة هذا العمل ولم أجد لها من مكان مناسب توضع فيه سوى أن تكون مفتتحا لهذا الفصل ،وربما لا تروق لأحد ممن يقرأ هذا اللهاث لكنني اجزم انه سيصل معي لهذه الحقيقة العارية إذا تجرد من مغريات الحياة ونظر للسنوات القصيرة التي يمرغ فيها ذاته من أجل لذة عابرة .وخير مثال على هذا أولئك الذين ينذرون أنفسهم للموت . . ضع نفسك في هذه الحالة ستجد أن لا شيء له قيمة تذكر .!!

به يدعو للرثاء. أعلم ان رفقاء الدرب يسمون هذه الحالة الإنسانية انهزامية بطل ...آآآآآآه ه.. اريد أن أعيش (براس كلب حي ولا بذيل أسد ميت)

29

في العصر تتحول الحارة إلى خلايا من البشر المتنقلين والجالسين بين الأزقة الملتوية والمنفتحة على البرحات الواسعة تلك الأمكنة التي تكون متنفسا لرجال الحارة يلعبون فيها لعبات الورقة أو الضومنة، أو يتبادلون الأحاديث، وتغدو الشوارع أبهج وأصخب بأولئك الأطفال وهم يلعبون ألعابهم المختلفة، فالصبيان يعمدون إلى تلك الألعاب العنيفة التي تتناسب مع رجولتهم الغضة، فيلعبون الكبت أو الطيرة أو المداويم أو المدافرة بينما تكون الفتيات أرق بأشرطتهن البيضاء التي تمسك الشعور الهائمة على وجوههن، وقد ابتدعت كل أم لابنتها ربطة تتناسب مع تظفير تلك الجدائل المتموجة، ويصبحن أعذب حين يتبادلن الابتسام على إحداهن وهي تتلقى كلمات الهوى البدائية من أحد الصبيان الفارين من حلقات اللعب، غالبا ما تكون لعبة الفتيات الحبل حيث تمسك اثنتان منهن حبلا، كل واحدة منهما تمسك طرفا ويدرنه في الهواء بحيث يمس تقوسه الأرض مسا خفيفا بينما تتناقز بقية الصبايا على الحبل من غير أن يمسهن منشدات:

شمرة امرة شمس نجوم
كواكب هوا كمثل الدوا

ويتهربن من ملامسة الحبل لهن بضحكات ريانة، وأكثرهن يبدين مهارة فائقة حين يقف على لعبتهن بعض الصبيان، كانت مها أكثرهن دلالا، ورقة ومعظم فتيان الحي يحومون حول عينيها بينما تكون منشغلة بعبد الله الذي يبدي تفوقا واضحا في لعبة الكبت، وإذا مر بهن سخر منهن وربما مد لسانه في اتجاههن محقرا.

كانت مها صديقة لليلى فكانتا معظم الوقت تقضيانه سويا، ولم يكن يروق لعبد الله لعبهما بجوار المنزل فدائما يثور فيهما ويطالبهما بالدخول إلى البيت،

فتستجيب ليلى لأمره طواعية من غير أن تجرؤ على معارضته، بينما تمعن مها في إغاظته رافضة الأوامر فيشد جديلتها ويتعنت في عقابها ولم تكن تخبر أحدا بهذا فقد وجدت نفسها منجذبة إليه من تلك الطفولة المبكرة فهو يكبرها بست سنوات إلا أن عواطفها كانت مندفعة إليه، ترمقه في أحيان كثيرة وتسترسل في نظراتها، أحس بها كثيرا وكلما تلاقت عيناهما ظن أنها تسخر منه ومن شغبه بين أقرانه، في البدء كان ينهرها، ثم وجد نفسه يبادلها النظرات وكل منهما في ملعبه، ولم يكن يرضى بالهوان أو أن تمتد إليه يد أثناء اللعب، فكان يظهر براعة في جميع الألعاب، ويشعر بحبور عظيم حين يجد مها تصفق له عندما يصطف الصبايا لمشاهدة ألعابهم الخطرة.

حفرت نظراتهما أخدودا يصل بينهما وسرى بينهما شعور لذيذ غامض سكن جوانحهما وتشعب في أوردتهما، وغدت تلك النظرات تنسكب في روحيهما فرحة تحيل كلا منهما إلى كائن خفيف يحلق عاليا ويسبح في موجة من الأحلام الصغيرة.

رضيا بتبادل تلك النظرات والابتسامات عن بعد، وتغير عبد الله معها، لم يعد يعنفها أو يضربها ويسعد إذا جاءت إلى بيتهم للعب مع ليلى، كان يأبى أن يجالسها، كانت أوامره تصل لأخته بحدة، لم تكن لتهدأ تلك الأوامر:

- هات الثوب.. هات الكوفية.. هات الصندل.. أريد شايا.. أين كتابي؟

وكانت ليلى تركض لتلبية طلباته المتلاحقة والغريبة، فالثوب أمامه والكتاب بين كتبه، والصندل أمام باب الغرفة، لم تكن تقدر على تعنيفه، كانت مها هي التي تتحرك إليه، وفي أحيان تطلب منه أن يعلمها، فيجلسان ينظران إلى بعضهما من غير أن يكملا شيئا إنما يجلسان في مواجهة بعضهما صامتين تاركين عيونهما تبحر في موانئ متسعة وينهيان تحديقهما بضحك متموج صاف، وفي أيام كثيرة كان يدور في الحوش ويتلو قصائد تترقرق شوقا ويدعي أنها من المقررات التي يجب عليه حفظها، لم يكن تخفى على ليلى هذه التصرفات ولكنها لم تكن لتجرؤ على مفاتحته، فكانت تتشاغل بأي شيء

مفسحة المجال لأخيها كي يتبادل النظارات مع مها.

كان بيت المورقي على مقربة من الفرن، وإذا مضى أحد لشراء الخبز يمر بباب المورقي، لحمل صينية السمك لإدخالها الفرن، وكانت الصينية وسيلة عبد الله للدخول إلى بيت المورقي والذي كان يعمل بزازا بسوق باب شريف ويدير تجارة واسعة، ويمضي سحابة النهار بعيدا عن بيته، فانتدب عبد الله نفسه مسؤولا عن تأمين حاجيات أهل المورقي في غيابه، فسعى إلى عمل كل شيء ترضى عنه مها.

عاد ذات ظهيرة ورأسه يغلي تحت الصينية، ووقف بقامته الفارعة، ويديه القويتين ممسكتين بالصينية، فرقت له خيرية زوجة المورقي:

- إنزلها قبل أن تحرق يديك

فأنزلها، فمالت الصينية قليلا واندلق مرقها ليصل إلى أنامله، كز على أسنانه، فقفزت مها إليه، وتناولت يده مشفقة:

- حرقت أصابعك بعنادك

فصاحت بها أمها:

- احضري المكركروم

- ما في داعي

جاءت مها تركض، ولعقت أنامله، ثم دلقت كمية كبيرة من المكركروم وهي تتطلع إليه متلهفة، نهرتها أمها بضيق، فابتعدت عنه مكرهة، في ليلتها فقط تجرأ عبد الله، وهمس لها:

- أحبك

فخطفت من يده العيش وركضت داخل البيت، أحس عبد الله بخيبة أمل كبيرة وعاد إلى بيتهم يلوم ويؤنب نفسه على ذلك التصرف الأرعن، ولم يذهب في اليوم التالي لحمل صينية الحوت، ظل حبيس البيت لوقت طويل، مع الغروب طرقت مها باب بيتهم، فخرجت لها ليلى:

- أمي تسأل عن عبد الله لأنه لم يأت كعادته

سمعها فخرج والتقت عيناهما:

- نريد عيشا

- وهل أنا الصبي الذي تركه لكم أبوك

اتسعت حدقة عينيها وعادت تركض لبيتها من غير أن تلتفت إليه، كان أبوه يستمع لهذا الرد فاشتط منه غضبا وصفعه على رأسه:

- جيرانك احتاجوك أترد بمثل هذا الرد يا قليل الحيا

أحرن عبد الله ولم يرد، فاتبعها صفعة أخرى:

- هيا تحرك واشتر لهم ما يريدون

تحرك بصعوبة، ووقف أمام بيت المورقي مترددا، وقبل أن يطرق الباب كانت خيرية تهم برمي القمامة، فلمحته ورحبت به:

- سلامتك لم نرك اليوم

- .. ..

- أنا كنت ابغي أرسل مها تسأل عنك

- لقد جاءت تطلبني أن أشتري لكم خبزا

- خبز، عمك إبراهيم جاء به من وقت مبكر

لم تكمل جملتها حتى كانت مها تقف بينهما:

- هل ذهبت إلى عبد الله تسألينه أن يشتري لنا خبزا؟

ارتبكت وتلعثمت، فخبأت أمها ابتسامة عريضة انتشرت في وجهها، ودخلت إلى الداخل، كانت عين مها مخضلة بالدمع، وكمن يريد أن يقتص صرخت به:

- ما الذي جاء بك؟

- ولماذا كذبت؟

- أصلك ما تستاهل

- استاهل ماذا؟

زفرت بحدة:

- ماذا عملت بك حتى تعاملني هكذا ؟

وأخذت تبكي بحرقة، شعر عبد الله بتهالكها، فخاطبها بلين:
- ولماذا تبكين؟
تناشجت:
- لقد طردتني من بيتكم
- وأنت لم تردي علي بالأمس
- أي رد أرد، ألا تفهم؟
- أفهم ماذا؟
- ياأخي كبر مخك
- يعني . . .
- أيوه يعنى

وانطلقت داخل البيت، فعاد عبد الله يضم الفضاء ويقفز عاليا ويذرع الشوارع مدندنا.

منذ ذلك اليوم اختلطت أنفاسهما وتنفسا هواء واحدا في رئة واحدة، في تلك الليلة لم يذق عبد الله النوم وبات مسهدا، وبجنون تحرك، وصعد شجرة النبق المجاورة لبيت المورقي وقرع النافذة قرعا خفيفا، وانزوى بين أغصان الشجرة غير مكترث بوخزات الشوك التي تنغز جسده، فتحت النافذة وأطلت برأسها الصغير، وعندما رأته ذهلت لبعض الوقت وصرخت به:
- يا مجنون ماذا تصنع؟
- لم أستطع النوم
- وأنا كذلك
- تعاهديني يا مها
- أعاهدك أن لا أخونك أبدا، وأنت هل تعاهدني؟
- أعاهدك أن لا أخونك أبدا

وتشابكت أناملهما بخدر لذيذ، وافترقا، وظل لقاؤهما اليومي متواصلا لست سنوات لم ينقطع إلا في يومين، يوم الحريق الذي أكل أهل عبد الله، واليوم الذي سقط فيه عبد الله على رأس أبي مريم أما ما عدا هذين اليومين

فكان عبد الله يأتي بالليل ويصعد شجرة النبق، ويقرع النافذة ويظلان يتبادلان الهمس لوقت من الزمان ويمضي كل منهما جذلا بالآخر.

ذكريات أبو النون وليلي بنت حسين عن صبا أبي حية ومها

لم يقبلا أن يظلا في زنزانة واحدة، فانتقلت من زنزانتي ليحل مكاني أبو حية وفي المكان الأخر كان أبو مريم عودا يحترق فقد وهن عظمه وتداعت مفاصله وبقى لسانه ينظم قصائد لهوى ميت، وأقسم أحد السجناء انه رأى في إحدى الليالي وهجا يحوم على رؤوس المساجين واختبأ برأس أبي مريم ليفيق المساجين في الصباح على رجل لم يبت عندهم ليلة البارحة.

لم يكن ليتكلم وإذا رغب في ذلك أنشد بيتا أو بيتين وعاد إلى وجومه،

في هذا المساء أعاد حكايته مرة أخرى قائلا لي:

- محال أن لا يهرب الليل أسراره.
- ظللت لسنوات طويلة لحدا لأسرارك فلماذا تنبش
- جئتك - الآن - وفي كل حين.
- ثمة سيف يختبئ في غمده ويغازل هذه الجمجمة عن بعد.. فلماذا أبقى عذاباتها حبيسة! !

وحين رأي عيناي مسمرة في وجهه دندن بأمنية قديمة.

30

شبت مها سريعا، وامتلأ عودها وانجلت بشرتها عن بياض تخامره صفرة واسترسلت جدائلها إلى أردافها، وازداد حور عينيها جمالا، وانطلقت عصافير وجهها من (نغزتين) تتوسطان خديها، ثمة حياة ريانة كانت تركض في أوردتها فتحيلها إلى مهرة تصهل فتثير القلوب وتبز العيون إعجابا بها، كانت خيرية تعرف مقدار جمال ابنتها، وغالبا ما كانت تأخذها معها إلى حفلات العرس، متباهية بها ولم تكن تخرج بها إلا بعد أن تبخرها وتقرأ عليها المعوذات، في كل خرجاتها ودخلاتها كانت تبحث لها عن عريس يقدر جمالها وطيبتها وكانت مها

غافلة عن مخططات أمها، فكانت ترافقها إلى الأعراس ونار من الأشواق تسري في بالها وتشغلها عما حولها، وفي كل الأحيان تعود مبكرة قبل أن ينتصف الليل فلم تكن تريد أن تفوت لقاءها بعبدالله، فحياتها هي تلك اللحظات التي يجلسان فيها يتبادلان الكلمات العشوائية ويبحران في بعضهما بشغف ولوعة، كلمات كثيرة تهرب منهما فيوصلانها بالضحكات المكتومة، وقبل أن يحين موعد الوداع تتشابك أناملهما ويجددان الموعد بآلية.

كان عبد الله يستشعر أن الكثيرين يودون الاقتران بها، وفي كل لقاءاتهما يردد:

- مها لا تتركيني

فتتسع ابتسامتها وتتعمق (نغزتاها):

- الحياة أنت ياعبدالله ولن يبعدني عنك سوى الموت

وأصبحت لازمتهما:

- أنا لك وأنت لي

كانت الحياة تفور بأوصال مها فتزداد حسنا وفتنة، وقبل أن تتخطى السادسة عشرة من عمرها خطبت عشرات المرات فكانت ترفض، وأبوها وأمها لا يلزمانها لأنهما لم يجدا الزوج المناسب في كل من تقدم، وحين دخلت السابعة عشرة وفارت بها الحياة ومنحتها عنفوانها وغدقها أصبحت مهوى الأفئدة، وتراكضت النساء طلبا لود أمها تمهيدا لطلبها لأبنائهن، وبدأ أبوها يجبرها أن تختار عريسا ممن تقدم لخطبتها خاصة وأن بعضهم من أعيان البلد لكنها ترفض بإصرار، كانت كمسمار يأبى أن يدق فكلما ضغطا عليها تفلت منهما بابتسامة ريانة، وفى أحيان بممازحة ظريفة:

- خلاص مليتوا مني، إذا كان لا بد من الزواج فأنا أريد مثل هذا القمر

وتشير على أبيها، فيمتلئ قلبه فرحا، ويضحك منها لاعنا عفرتتها.

أحست خيرية بخطر رفض ابنتها للعرسان، فجاءتها متوددة:

- يا ابنتي لا ترفض المرأة الزواج إلا في حالتين، أما أن تكون عاشقة وأما...

وصمتت، فأجفلت مها، وغدت قطة متوحشة:

- وهل تشكين في يا أمي؟

- لا يا ابنتي، ولكن رفضك يحير

- أخبرتكما أريد مثل المورقي

ضحكت أمها فاترة:

- لا يغرك أبوك، فهو زوج متعب، لا تعرفينه، ماذا تقولين في حمزة أبي النون، الولد وسيم وأسرته من كبار أهل البلد

- يشبه المورقي

- كفى عن هذه المماطلة السمجة

وترددت للحظات وأطلقت جملة وخرجت مستعجلة :

- من يعيش في مخيلتك فسد ولم يعد يصلح لشيء

أحست مها بوخز حاد يستقر في جنبها الأيسر، وشردت بعيدا، كانت تراه هائما لا يقيم لحياته وزنا، مهملا نفسه يحوم في الشوارع ويختلط بأراذل الناس منجذبا للشراب - كما تسمع -في أحيان لم تكن لتصدق أنه هو نفسه انفلت عقاله، وهام في الطرقات.

فبعد الحريق الذي التهم أسرته بدأ في التغير التدريجي، كانت وقفاته على نافذتها تطول، ولا يتحرج من التحرش بها وإيذاء مشاعرها ففي أحد الأيام تركته وهو يتحدث لحركة سمعتها بالقرب من غرفتها فقاطعها لخمسة أيام، عجزت من الوصول إليه، وعندما عاد كانت رائحة فمه تفور خمرا فأنكرت عليه، فقال لها:

- وهل أهمك في شيء؟

- أنت كل حياتي

آفاق للحظات، وتمتم:

- أشعر أنني لن أصل إليك

- ما الذي دفعك إلى هذا الشعور؟

- أبوك

- وما دخل أبي؟
- لمحت له فرد علي ردا عنيفا
- ماذا قال؟
- سحبني من يدي إلى البيزان، وأمسك حمارا متهالكا وسألني هل تتصور ياعبدالله أن هذا الحمار قادر لأن يصبح خيلا، وتركني ومضى
- لا عليك من كل هذا ساعد نفسك وستجدني بين يديك
وفي إحدى الأمسيات عاد إبراهيم مورقي أكثر بشرا، وجذب خيرية جانبا وهمس لها:
- ابشري يا وجه السعد
- خير
- المأمور
- ماذا به؟
- خطب مها
ضربت خيرية على صدرها مستنكرة:
- خاف الله يا رجل أتبيع ابنتنا على رجل يكبرك
- يا مرة صلي على النبي، المأمور يريد مها لابن أخيه
- هذه هي الساعة المباركة
وأرادت أن تطلق زغرودتها فكمم فمها:
- بعد الخطبة أفلتي زغاريدك
كانت مها تسمع ما يدور بينهما فشعرت بالانقباض، وقررت أن تخرج لهما، فوقفت أمامهما:
- لن أتزوج
صاح أبوها:
- عيب عليك تتنصتين علينا، وموضوع الزواج ليس بيدك
- قلت لن أتزوجه
- ستتزوجينه ورجلك على رقبتك

في الليل جاء عبد الله وأخبرته بما حدث، تمايل من مكانه، وصمت لبرهة:

- وماذا نصنع؟

صمتت مها، فقفز من مكانه، وظل الليل هائما في الطرقات يرشف من قارورة عرق كان يخبئها في جيب ثوبه، ومع شروق الشمس توجه إلى مكتب المأمور وهال له من السباب مما جعله يقضي شهرا كاملا داخل السجن لتبدأ أولى خطواته في ارتياد ذلك العالم.

رواية إحدى جارات بيت المورقي

قال:

- نموت سويا

فآمنت على كلامه باهتزازة من رأسي، كنت مرعوبا أخفي رعبي بالتحديق في ذلك الخلاء فيما كانت السيارة تلهث بأزيز محركها المتعالي، ظن أن صمتي محاولة لتفكير العميق، فجاور صمتي بصمت، ولو اقترب من صدري لسمع وجيبه المتخاذل.

من بعيد لمحنا أحد العسكر وعندما التفت لصاحبي كان قد قفز من صندوق السيارة وولى هاربا، وببساطة شديدة أخبرت العسكري بكل شيء، فالصق يدي بيده في سلسلة قصيرة محكمة الاغلاق.

المضحك أنه كان ينتظر اي سيارة تقله في هذا الخلاء الموحش وعندما قبض علي أوصلته بنفسي وأوصلني بدوره لزنزانتي.

أليس هذا الظرف صنع حياة لم تخطر بالبال؟

31

طلب أبوحية رؤية المأمور.

نظر إليه مزدريا وانشغل عنه بمطالعة الأوراق المكدسة على مكتبه وظل لوقت طويل يقلب صفحاتها من غير أن يراعي وقوفه، وقف مترددا ممسكا يديه بحيرة بعد مضي الوقت قال له دون أن ينظر إليه:

- ما الذي جاء بك؟

ارتبك، وتمتم:

- جئت أعرض عليك عرضا

فرمقه بنظرة ساخرة:

- وأي عرض يجمعنا

زاد ارتباكه، وصمت فجأة وحاول أن يعود من حيث أتى، لكنه وجد نفسه متخشبا لا يقدر على الحراك، فقال له:

- تكلم ما الذي جاء بك؟

- مها

نهض المأمور من مكتبه، وصاح محتدا :

- أتجرؤ أن تتحدث عن مليكة ابن أخي؟

- أنت تعلم ماذا تعني لي؟

- وأنت تعلم أنني قادر على سجنك لذكر اسمها

- جئت أقايضك

- يا حمار.. تعلم كيف تتحدث مع من هم في مكاني

- لم آت إلا وأنا عارف بمقامك

- إذا

- أنا أقدم لك سرا مقابل أن تنهي ملكة ابن أخيك من مها

فغر فم المأمور عن ابتسامه ساخرة، وأزداد حماس عبد الله وتابع حديثه:

- ليس هذا فحسب بل تتقدم لخطبتها لي

اتسعت عيناه، وباستهزاء بارد رد:

- وماذا بعد؟

- لاشيء غير هذا

لم يستطع المأمور كتم سخريته:

- هل ستشي بكل المجرمين الذين تعرفهم

- بل أبيع أعز أصحابي إليك

- خيانة

- نعم خيانة
- وما المقابل
- قلت لك مها
- وما هذا السر
- لن أبوح به قبل أن تنفذ مطلبي
تحرك المأمور في اتجاهه غاضبا، وكاد أن يصفعه لكنه تراجع:
- ألا ترى أنك تأمرني؟
- ليس أمرا ولكنه طلب أتبعه بالرجاء
- إذا ما السر؟
- آمنة
انتفض المأمور فجأة:
- من آمنة؟
- أم مريم
تراجع المأمور قليلا، وأخذ ينظر إلى أبي حية بعين زائغة:
- وماذا تعرف عنهما؟
- أعرف الكثير
تخلى المأمور عن رصانته وردد متلهفا:
- ومن أين لك هذه الحكاية
- هذا هو السر.

فجأة تحول المأمور إلى لين، وأبدى استياءه من أبي مها وأقسم أنه لم يشأ تزويجها لابن أخيه رغبة فيها وإنما رغبة للمصاهرة وأن يكون له رحما بين أعيان الحارة، وأجلس أبا حية جواره، ووعده أن تكون مها من نصيبه وأن تطلق من ابن أخيه قبل أن يصلها وأقسم مرارا أنه سيسعى لتحقيق ذلك حالا وافتعل عدة أمور تؤكد صدق قوله، وباغته على حين غرة:
- أين آمنة وابنتها؟
- ماتا
غاص المأمور في كرسيه، وردد ببلادة:

- ماتا

- . . . .

رواية الحارس الخاص لأبي العمايم عن بداية زلل أبي حية

أسلمني العسكري لأول مركز، ومضى لشأنه، وحين وقفت أمام الضابط لم يكن لديه الوقت ليعرف شيئا، فأسلمني بدوره إلى زميله، وظللت أتنقل من ضابط إلى آخر ومن مركز إلى آخر حتى استقر بي المقام هنا،

لم يكن أحد ممن سألني يعرف قصتي، بعضهم ظن أنني سارق والبعض ظن أنني مخمور والبعض أهملني تماما أنا الوحيد الذي كنت أبحث عن شخص يسألني لأخرط كل أسراري دفعه واحدة.. إننا في أحيان كثيرة نغدو حمقى عندما نظن أن الآخر حريصا على معرفة ما لاتود البوح به، فكل منا يحمل جثثا في داخله لا تعني أحدا سواه.. وربما يكون الأمر اكثر عمقا حينما تبحث عن خلاص من تلك الدبابير التي تلسع أعماقك في كل حين وتبحث عمن يشاركك اللسع. تظل غامضا ومهابا وحينما يكتشف الأخر بعجزك يطاءك بقدمه .

وجدت نفسي هنا وهنا تعلمت أمورا جديدة لأفيق من أحلامي الكبيرة.. كان ذلك حين علمت ان أول من دفعني لهذا الطريق غدا وجيها بسبب سرد أسمائنا، وكان هذا بداية الكفر بتلك الشعارات وعندما وجدت أن رأسي حاسر بلا أحلام اعتمرت بأحلام المراهقين وولجت لردهاتهم بقلب انفطر.

إننا نعوض انكساراتنا العظيمة بحلم صغير، فلماذا لا يتحقق؟

32

لأول مرة تنام الحارة من غير أن تسمع صفارة أبي مريم وصوته المشروخ صائحا:

- من هناك

كانت ليلة خارج الليالي فكثير من أهل الحارة شعر بوحشة وأن الشوارع

تلتف حول أعناقهم، وثمة عيون تتلصص بهم وأن الطرقات تقذف بأشرارها وتنصبهم على المداخل والمخارج لابتلاع أمنهم.

كان حدثا تناقلوه إلى مخادعهم بشجن استرق مآقي النساء اللاتي وقفن موقفا منه ذات مساء حين احتجز رجالهن، الليلة جلسن مشفقات يسردن ما حدث له، العمدة الذي طالما وقف منه موقف المحتقر شعر بحشرجة وعبرة تكاد تنهمل من عينيه حين لمحه والشرطي يقوده بكلبشة غليظة، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يقترب منه ويحضنه، كان يسير منكسا رأسه وقد انحنى ظهره كثيرا وكأن السنوات الطويلة تدثرت به فجأة وقد سار مرتديا ذلك البالطو الذي لم يخلعه في أيام الحر والبرد بينما تدلى شاله من على كتفه وسقط خلف رجله المنتعلة حذاء ظلت طبقتاه متخاصمتين بالرغم من تلك المسامير المدقوقة في أطرافه لم يكن يلتفت إلى من يصادفه ويحتضنه، كان يحاول أن يظل متماسكا.

في تلك الليلة احتفل الخمارون واللصوص بأفول نجم أبي مريم، وأخذوا يتندرون على تلك الشخصية التي ملأت قلوبهم رعبا، وانبرى الكثيرون ينفون عن أنفسهم الخوار ويقولون:

- لم يمنعنا من الخروج عليه إلا عجزه، كنا نخشى أن يقول الناس علينا بأننا ضربنا عاجزا.

سار أبو مريم في الطرقات التي طالما دكها بقدميه وصوته الأجش يتردد في جنباتها فتفيق له تبجيلا، وتقديرا، وهاهو اليوم يقاد كأحد اللصوص الذين يعبر بهم هذه المنحنيات وهم معلقون من ملابسهم بين يديه القويتين مع فارق أنه لم يكن يمس رجولة من معه، أما هذا الحارس الذي يقوده قد أذله وابتخس رجولته عنوة.

دخل مكتب المأمور كان أبوحية يقف في مواجهته وعندما دخل أبو مريم ضحك المأمور ونهض من كرسيه واقترب مادا يده لذقن أبي مريم:

- لقد شبت كثيرا يابندر

وقف أمامه صامتا، فيما كانت ملامح المأمور تفور بلذة النصر، نخسه

بقضيب معدني كان يتلاعب به بين يديه:

- ألا ترى أن الدنيا صغيرة؟

وضرب جبهته مندهشا: كل هذا الوقت ولم أرك.

وضحك متوترا: تلك الليلة حين رأيتك أصبت بهلع، كنت أتسأل أيمكن ان يكون هناك شخص بهذه القامة

استطعت أن تبعدني عنك

وكركر مرة أخرى:

- لم أظن انك حرباء تجيد التخفي

مصمص شفتيه وبدت عيناه حمرواتان وزفر بعد أن شبك يديه خلف ظهره: هل تذكر خالك يا بندر...أه نسيت أن أقدم لك التعازي، لقد مات قبل ست سنوات، وقفت على موته، أسلم روحه وهو يلعنك، ولعنته قبل أن أغادر جثته كنت أمني نفسي أن يدلني على مكانك

وتحرك صوب أبي حية وربت على كتفه :

- هذا البطل أوقف جنون بحثي لكنه حرمني الأمل وجدد أحزانا لم أنسها يوما.. سنوات طويلة مضت وأنا أسير بقلب محروق

ومشى مكملا حديثه لأبي حية:

- هذا الرجل سرق مني حبيبتي

صمت فجأة وتنحنح:

- سأتبسط معك لمعرفتي أنك لن تخبر أحدا

وأطلق ضحكة جافة، وعبس فجأة:

- لقد سرق حياتي هذا الكلب

كان أبوحية دافنا رأسه بين أكتافه بعينين محمرتين يسمع رصاص الكلمات:

- في البدء رفض أبي أن أتزوجها فتزوجها بندر وهو أقل أبناء الحارة وسامة ومالا، وارتضيت على مضض لكنه لم يكفه هذا بل قتل ابنتي الوحيدة وحبيبتي

واقترب من أبي مريم وشد رأسه بقوة:

- في تلك الليلة ظننتك رجلا، وأنك ستبحث عني، وخوفا من افتضاح أمري، قررت أن أقتلك وظللت ممسكا ببندقيتي التي صدئت من طول انتظاري، وعلمت من العمدة خبرك، ظننت بالفعل أنك أرسلت آمنة إلى وادي النمل، وعندما هدأ خوفي، سافرت إلى وادي النمل وسألت فلم أجد خبرا ونفى الجميع مقدم آمنة

تغيرت نبرة صوته، فزأر:

- أمضيت كل هذا العمر أنتظر.. انتظر رؤية ابنتي مريم، وأخيرا أسمع أنك قتلتها

وتحرك صوبه وصفعه بقوة:

- ألم يكفك قتل آمنة

فبصق عليه أبو مريم، فلم يتمالك نفسه وانهال ركلا وبصقا وزاد سعاره فخلع حزامه وواصل جلده فتحرك أبوحية لمنعه فدفعه بيده:

- كنت سأتركك أما الآن فعليك أن تبقى مع صاحبك حتى يغادرنا للقصاص

وصاح ببعض العسكر بأن يزجا بهما في السجن.

في الزنزانة جلس الاثنان صامتين لوقت طويل، فجأة أجهش أبوحية بالبكاء فكان أبو مريم ينظر إليه بعينين باردتين وعندما حاول أبوحية أن يتحدث تعثرت الكلمات فكان يسمع منه:

- أنه الليل على غفلة مني هرب سرك أما هذا الكلب فسأنال منه ذات يوم

نظر إليه منكسرا وبصعوبة ردد:

- ألم أقل لك أن المرأة هي الجدار الوحيد الذي لا يمكن أن يسندنا.

صياغة الراوي لمجموعة من الأحاديث سردها كل من أبي مريم وأبي حية

لأول مرة أجد نفسي حرا متخففا من خوفي المتشجر بين أغصان صدري، ما يكدر علي هذه الدعة لوعة انحدرت في أعماقي وأمنية أن أرى عينيها اللتان تحرقاني كلما نظرت إليهما.

كان يعودني في زنزانتي ويحمل شوقي إليها في أوراق أبات الليل أكتبها لها، وغاب زمنا طويلا وعندما خرجت من زنزانتي وجدته يمسك بيدها وطفلهما يجري بين عينيهما.

فبحثت عن أي شيء يوصلني للمجد كي تشعر في زمن ما أنها فرطت برجل فذ لا شك أنها الآن تحمد الله كونها لم تلق بحياتها بين يد رجل لا يعرف من فسحة الدنيا غير السجن.

33

في برحة السكري، انتصبت (الكوشة) وحرص المأمور أن تكون مختلفة في كل شيء، وظل لأيام يبحث عن شخص يقيمها كما هي متواجدة في مخيلته، ولم يترك الأمر للمورقي خاصة وأن هذه الأمور تدخل في اختصاص أهل العروسة وسخر لهذا الأمر مجموعة كبيرة من أهل الخبرة، وأصر أن تلبس (الكوشة) حريرا خالصا، وكان يشك كثيرا في جودة الحرير المتواجد في الأسواق مما جعله يستقطب مجموعات من الجاوة ويوصيهم بشراء ست عشرة طاقة من إندونيسيا واستاء كثيرا حين جاءت الألوان مختلفة لكن حسين أبا لمعة طمأنه بأن تعدد ألوانها يمكن أن يعطي الكوشة منظرا جميلا فوكل إليه المهمة واستطاع - أبو لمعة - بمهارة أن يدمج أربعة ألوان دمجا رائعا أبهر الكثيرين وبطن الخلفية بقطيفة خضراء، زينت بأحزمة خلفية من ثلاثة ألوان زاهية وجعل للأتاريك مواقعا داخل الكوشة ولأول مرة يقوم بتصميم كرسيين متلاصقين للعروسين قام بنجارتهما بنفسه واختار خشب البلوط وفرغه صانعا تجويفات منمنمة وسندات للرأس واليدين وأبدع في اختيار المنصة باستحداث تدرجات تمكن البعيد من مشاهدة المنصة بلا عناء، بينما تبرع السلموني بتيازير جديدة التفت حول البرحة تاركة ثلاثة مداخل رئيسية تناثرت حولها الأزهار والورود، ولرطوبة المكان فقد استعد شيخ التجار بتزويد المورقي بألف مروحة خشبية ذات مهفات مصنوعة من ريش النعام، وكان مستعدا بتقديم مراوح

كهربائية إلا أن مولدات الكهرباء ستعجز عن تشغيل كل تلك الأعداد.

كان الاستعداد لإقامة العرس على أشده، فتكاثر المهنئون والفزيعة وانهمكوا في إعداد الأعمال المختلفة، بينما كان إبراهيم المورقي في حالة مرتبكة يتقبل التهاني شاردا، وفي أحيان كثيرة يهمس للمقربين:

- صحيح ابن الفسيني خارج الحبس

فتأتيه الإجابات متباينة فيزداد قلقه، وتمتم بغيظ:

- لا رده الله البعيد

مع الغروب، وقف عبد الله بالقرب من برحة السكري، كان يتمايل بصعوبة، ويطلق الشتائم في الهواء، وأحيانا يصمت، ويستند على أحد الجدران ممسكا بذقنه، ويدندن بصوت مجروح:

ليه يا سلمى والسحابه

تعدت من هنا

حامله الما واستهلت

بماها عندنا

فيعبره الناس دون أن يلتفتوا إليه أو يعيرونه التفاتا، فيزداد ضيقه ويقطع دندنته الشجية ويصيح:

- الدابة يسلموا عليها، ألا تسلمون علي أيها الكلاب

عبره خالد السوري، وهو في قمة هياجه، فامسك به:

- حتى أنت يا أبو شكيم[22] ما تسلم

اختلق عذرا أنه لم يره، فرق له وتركه يركض ويعلم المورقي بوجوده،

---

(22) أبو شكيم لفظة تطلق على الأخوة السورين وغالبا ماتكون بقصد الاستهزاء أو الانتقاص (هذا مارواه الدندون) واضاف خالد السوري أن لفظة (أبو شكيم) لاتطلق على السوريين وإنما أطلقت على الفلسطينيين في بادىء الأمر ثم أصبحت تطلق على كل قادم من الشام دون تميز .
ويروي العمدة أن سبب هذه التسمية يعود إلى أول رجل دخل الحارة وعمل مصلحا للدوافير كان اسم ابنه شكيم وإذا ساله شخص عن اسمه يقول انا أبو شكيم وكان به عته .

وفي لحظات كان يقف أمامه عسكريان من المركز يقودانه إلى الزنزانة، فيما كان يحاول الإفلات منهما وهو يلعن المأمور والمورقي في كل كتاب.

ما تحدث به بعض رجالات الحارة عن ليلة زفاف مها

أمي كانت تحس بي فكلما رأتني أتململ في جلستي دفعتني للخروج للعب معها، وفي الأعراس كانت تحضنني وتقبل جبيني، وتردد:

- متى أراك عريسا؟

ورحلت وحلمها لم يتحقق، نقل إلي أحد الأصدقاء مقولتها:

- كنت أتمنى ان أرى عروسته تضع له المحبس في إصبعه

..... فجازى صبري وعجزي بأن استبدل المحبس بقيد في معصمه

وعندما خرجت من السجن وجدتها قد تركت لي ذهبها عند أختي ووصية قصيرة:

- ضع كل هذا الذهب على زوجتك وتذكر أنني كنت احلم أن أراك عريسا فلا تتأخر في إسعادي.

في غمرة انشغالها بي نسيت أن توصي حبيبتي بالمحافظة على هوانا.! !

34

على رائحة البخور(تلعلع) الزغاريد الطرية الممتدة، وتنهال الابتسامات من زوايا الغرفة المفعمة بأنفاس الورد والياسمين، والأصوات المهنئة تنثال بين الأجساد اللدنة الملساء، وثمة عروس تجلس بعيدا عن الفرح، تتطلع في المرآة وتستنكر صورتها، تمسحها مرارا لتطفو صورتها من جديد، تجفل، وعندما يهدأ الحزن في داخلها، تتشاغل بإزاحة دمعة كبيرة انحدرت على وجنتيها، تلكزها إحدى المسنات القريبات منها:

- الشتاء يميت الأغصان الخضراء

وتتوارى تاركة لسنها الوحيد حرية أن يتنزه في ضحكة قصيرة.

لغط النساء يتعالى، ووجوههن المثقلة بالمكياج تتبارى في إظهار رداءة

المساحيق، والأقاويل تسيل من الأفواه لتمضغ عشقا طفوليا، وتقذفه خلفها بلا اكتراث، وامرأة حلزونية تصلح فستانا - يشبه الكفن - على جسد العروس المتخشب، والعروس تقذف بضوء عينيها في الفراغ، وتتسلل عبر ذاكرتها، وهي تسقي بأدمعها حلمها الذاوي بين مفاصل الماضي.

** **

كان ياما كان. . . . . حكاية كل العصور. . . . .

من هناك يأتي حاملا مطر القلب، ويلتقيان في الطريق، يمدان أناملهما، ويتشابكان كأغصان اللبلاب، ويسيران في طريق ضيق. . . . قال لها ذات مساء:

- أنت نجمة هذا الفضاء

فنمت ابتسامة ناضجة، وفار محياها بدلال جامح:

- وهل تستطيع أن تصعد إلى السماء؟

كان شغوفا بدلالها فضمها بين عينيه:

- نورك سيصلني أينما كنت

صورته المالحة وجلده الفاقع الصفرة يستفزان دموعها، جبل من الذكريات يقف في مخيلتها، تخشى من دموعها أن تحيل وجهها إلى ألوان متداخلة، تبتلع غصة مرة، فينمو في داخلها ويرتقي أوردتها ويقف بعينيه في مواجهتها تلمح وجهه. . كلماته. . ضحكته الباردة، عينيه المحدقتين في وجهها، لهفته عليها، فتغمض عينيها، وتتنهد بعمق، تطاردها ذكرياتهما فتضيق أنفاسها، تشعر أن جسدها ينهار، وثمة ذبول يستشري في مفاصلها، يقف في مخيلتها آخر لقاء حين همس لها:

- دعينا نتنزه بعشقنا بعيدا عن الموت. . .

خرجت أنفاسها حارة، وغمغمت:

- ليتك تأتي الآن لنتنزه بعيدا عن هذا الموت

ابتسمت حين تذكرت إحدى نكاته، وقبل أن تستكمل ابتسامتها، أفاقت على ضرب الدفوف التي تعلن بدء (الزفة) وأول خطوة نحو القبر، وقبل أن

تنهض لتلبية تلك الأكف التي تجلد الدفوف مسحت صورتها من المرآة، وهتفت:

- أيها الحبيب ألا زلت تعشق نجمة؟

وقبل أن تمد يدها لعريسها كان حبيبها يقف بعيدا يغني بصوت مجروح.

صياغة الراوي للاستعدادات مها لزفتها

كنت تواقا لأن أرسم شيئا شبيها بالحية التي رسمها عبد الله في ذراعه لتذكرني بمحبوبتي، لكنني كنت أشعر بالظفر المرتقب، فمها على وشك أن تموت في قلبه كنت انتظر هذا لكي أحييها في قلبي، وفي كل مرة أجلس تحت يد رفيقنا الهندي من أجل أن يشمني بوردة في صدري فاجد ان أبا حية كلما أماتها أعاد وأحياها مرة أخرى.

ها هي الأيام تسير في صالحي وعلي أن أهيأ صدري حقل نعناع لتلك الوردة التي أخرجتني من أوهامي الأولى وأدخلتني في زمن شهي.

35

انطفأت بهجة السمار، وجلسوا يتشاورون من أي الأمكنة يمكن جلب ما يعيد إليهم بهجتهم، قال أبو عيسى:

- علينا الاعتماد على أنفسنا، ولنختر بيت أحدنا للتخمير

خبطه أبو حية على جبهته متضايقا:

- نحن في حاجة إليه الآن وليس في الغد ياذكي

فاغتاظ أبوعيسى، ونهض رافعا مديته في تلك الظلمة الذاوية التي قلل من جبروتها انسياب ضوء قمر شاحب، وكادت تقع معركة لا يعرف نهايتها أحد، فالسواطير مشدودة على الأفخاذ، والخناجر مغروزة ما بين الخاصرة وحبكة الفوطة التكرونية، و(الشومة) لا تفارق أيديهم.. صاح أبوحية مستنكرا:

- عشنا وشفنا أولاد البارحة يرفعون السكاكين

وتفل على الأرض مزدريا وتابع حديثه حنقا:

- والله لولا حشمة (الرجاجيل) لغرزت سكينك الذي تتفاخر به في بطنك.

جاء صوته عنيفا وصارما جعل أبا عيسى يتردد مرارا قبل أن يرد عليه، كان من الممكن أن يتطور الموقف، وتحدث كارثة تنتهي بمقتل أحدهما لولا قدوم الأخرش الذي أقبل لاهثا ورافعا قارورة أخرجها من كيس كان يخبئه تحت إبطه، فامتلأت أفواههم بالدهشة وصاح أحدهم:

- لم أترك خرم إبرة إلا وبحثت فيه عن قطرة واحدة، فمن أين جلبتها؟!

- عندما أمسكوا بالصومالي كان قد وزع كل ما لديه في مرمى الحارة، وهذه واحدة منها

فهم البقية بالانطلاق للبحث عما تبقى من قوارير إلا أن القادم كسر أملهم:

- لقد بحثت طويلا ولم أجد سوى هذه فلنسمر عليها هذه الليلة، وغدا تفرج

افترشوا ذلك الحوش المدفون وسط الحارة، وأخذوا يتجرعون من تلك القارورة مع التشديد بالويل لمن حاول ملأ فمه بأكثر من الحد المسموح به.

فرغت القارورة قبل أن تتمايل رؤوسهم، ومع أخر رشفة ارتفعت لعناتهم تلعن كل من تسبب في اكتشاف خمارة الصومالي، وكان أكثرهم تهيجا (أبو حية) الذي بدد غضبه بتوعد مرير لمستضيفيه:

- والله الذي في سماه لو لم تجلبوا ما يسكرني بقية الليلة لأشربن من دمائكم

كان مقررا على أعضاء (البشكة) أن يوفر اثنان منهم (سكرة) لكل ليلة، وليس مهما كيف يمكن جلبها أو من أين.

وأثناء احتداد أبي حية ورفاقه كان الاثنان المكلفان بجلب سكرة (الأعرج والمشجب) تلك الليلة يتلبسهما الخجل أكثر من الخوف لذلك ظلا يصبران أعمدة (الشلة) بكلمات مبعثرة مرتبكة، يطيبون بها خواطر الحاضرين:

- افا يا (الرجاجيل) . . والله لسوف نأتي بها ولو من آخر الدنيا، ولسوف تسكرون كما لم تسكروا من قبل.

ولم تفلح تلك الكلمات من تهدئة أبي حية الذي مازالت كلماته الحارة تتدفق من فمه بغزارة، ولقوة بطشه وغباء حيلته، وتهوره في كل الأمور ارتعد الحاضرون وتملص عدد منهم بأعذار سكبوها على مسامع الجالسين بشيء من العجلة والخنوع، وتواروا وهم غير مصدقين أنهم نفذوا بجلودهم.

وتضاءل عدد السمار واقتصرت الجلسة على (اليابات) الكبار، أبوحية والدندون والأخرش، والأعرج والمشجب وثلاثة من (يابات) الكندرة.

ولولا اختفاء الأعرج المؤقت وظهوره مرة أخرى لما استمرت تلك الجلسة إلى ما بعد صياح الديكة المختلطة بضحكاتهم الصاخبة المجلجلة بفعل السكر.

تفاصيل صغيرة جمعها الراوي عن بداية عذابات أبي حية

وقفت أمام ضابط السجن، نظر إلي مزدريا ومرددا:

- ما تهمتك؟

صمت لبرهة، فحرضني على الكلام بعنف:

- قلت ما تهمتك؟

تطلعت إليه بغير مبالاة:

- لقد تنقلت من ضابط إلى آخر ومن مركز إلى مركز ولم تسجل تهمتي

- ألا تريد ان تقول.. حسنا سيمل منك السجن عندها ستتذكر تهمتك

وبعد أن مل مني السجن، كنت أجلس في أوقات كثيرة أفكر: ترى ما تهمتي بحق؟!

36

أقسم على قتله حتى وان طارت رقبته في ساحة الإعدام وبسبب هذا القسم قضى في السجن سبع سنوات خرج بعدها أضرى وأكثر تصميما على قتله . . وجلس يشحذ ساطوره وعينيه تفيضان بغضب متقد.

كان يمرر حجر النور على حد ساطوره حتى تفتر يده، وعندما اطمأن لحده الذي غدا باترا يقد الشعرة إلى نصفين متساويين، لفه في شاله المتسخ وثبته على ساقه بجلد رطب متين، وخرج يبحث عنه في هذه الظلمة الحادة.

ذرع أزقة الهندامية شبرا شبرا، وكلما وجد (المراكيز) خاوية من مرتاديها ازداد هياجه، ولعن الجميع بلا استثناء وقد ذهب به الحنق أن طرق كل الأبواب صائحا:

- اخرجوه وإلا عقرتكم جميعا

مع الغروب تخرج النساء إلى الشوارع لجمع الرجال منها وحثهم على العودة داخل البيوت راجيات ومتوسلات، وكان بعض النسوة يتحملن شتيمة أزواجهن وضربهن في بعض الأحيان لكن واحدة منهن لم تكن لتعود من غير زوجها أو ابنها، أما الشباب فلم يكن ليسمح لهم بالخروج بعد الغروب وقد اضطر أبو الدندون إلى تقييد ابنه بسلسلة في سريره الذي ينام عليه، بدءا رفض الدندون الانصياع لأبيه بالعودة إلى البيت خشية أن يلبسه العار من أقرانه فلم يكن يخرج في تلك الليالي إلا الشجعان من الشباب أو من ليس له أحد يسأل عنه وكان الدندون أحد فتوات الحي ولخوف أبيه عليه كونه ابنه الوحيد فقد جذبه إلى هذا القيد بحيلة بارعة حين حكى له كيف أنه استطاع في شبابه الإيقاع بالأجرب - أحد الفتوات الكبار الذي لم يكن ليهزمه أحد وأخبره أنه سيعلمه بتلك الطريقة لإيقاع بأبي حية، وأخذ يمثل له كيف صرعه جاعلا منه الخصم الذي صرعه وأخذ ينتقل من حركة إلى حركة مشيرا له كيف سيقود أبا حية إلى السجن مسلسلا حتى إذا أوقع به قيده وجذبه إلى سريره، مرددا:

- ستبقى أنت في هذا القيد حتى تمسك الشرطة بأبي حية فأنت الوحيد الذي خرجت به من هذه الدنيا ولن أفرط فيك بهذه السهولة

ولم يفلح صياح الدندون أو جذبه المستمر للسرير في جعل أبيه يلين أو يقلع عما عزم عليه فقد كان يتحرك بالسرير في أرجاء الغرفة وكلما أطل من باب الغرفة عجز عن الخروج حيث ظل السرير معترضا فرجة الباب وعجز أن يعبر به من بوابة الغرفة بالرغم من محاولاته العديدة والمضنية وأخذ يبكي بحرقة ويصيح في أبيه متهيجا:

- أوترضى أن يقال أن الدندون حبسه أبوه كالحريم؟

ولم تكن هذه الجملة كفيلة بزحزحة أبيه عما عزم عليه، فكان الدندون يتطلع من الشيش كبقية النساء لدوران أبي حية المحموم وهو يركل الأبواب ويصيح كثور ذبح وفز على قوائمه قبل أن تجز رقبته:

- اخرجوه وإلا عقرتكم جميعا

وأمام سعاره الذي لم يكن يهدأ، تبرع الكثيرون من أهل الحي للخروج معه للبحث عن الأعرج، فطلب منهم بكل إباء أن يكفوا عن ذلك، فقد كان خائفا أن يقال عنه:

- أبو حية غير قادر على الأعرج بمفرده فاستعان بأهل الحارة

وقد صاح بمن اجتمع حوله:

- أتريدون إلباسي العباءة بفعلتكم هذه

وعندما تنحنح أحدهم وأراد أن يتحدث، صاح به:

- لا أريد سماع أي شيء، وإذا لم تعودوا الآن فلسوف أسير على أجسادكم

ونغز أحدهم بساطوره، لتنتشر بقعة دم فوق ثوبه الأبيض ولتتسابق الأقدام من أمامه، فلحقهم بصوته:

- لا أمان لأحد منكم بالليل

فانسحبوا من بين يديه، آسفين على ماآلت إليه حارتهم بعد سجن أبي مريم، وقال حسن الهندي:

- لو أن أبا مريم هنا لما حدث ما يحدث الآن

فرد عليه الشيخ يوسف النوري:

- حتى وان حدث فأبو مريم يمون عليه كثيرا، فحتما كان سيعرف كيف يوقفه

فانبرى القرش مستنكرا رافعا صدره إلى الأعلى كديك في قفص دجاج:

- أولا نملأ العين

فأجابه عبد الله الموسيل بضيق:

- أنتم من قادنا إلى هذا الخوف.. أليس من طينتكم

فقفز القرش هاما بالإمساك به فدخل بينهما المجتمعون، يهدئون القرش ويلومونه على تطاوله على شيخ كبير، فزاد هيجانا وطالبهم بترشيح من يرونه كفئا لمنازلته، فتقدم نحوه الأخرش ودفعه:

- كف عن غبائك الآن

فأمسك به، وصاح متلذذا:

- تتهمني بالغباء، وأنت من شدة غبائك لا تعرف صلة القرابة بينك وبين ابن أمك

- وأيضا تسب

فواصل دفعه وعندما تصلبت وقفته استجمع قوته ودفعه بعيدا، فتمالك القرش وقفته بعدة توازنات واندفع صوب الأخرش صائحا بغضب:

- أتدفعني.. أتحسبني أخافك.. الحمد لله الذي جمع بيننا، تعال فأنا أريدك من زمن بعيد، وسترى كيف أجعل هؤلاء يضحكون من رؤية استك، وعند هذه الكلمة اندفع الأخرش نحوه، وضربه بقبضته في وجهه فطفر الدم من أنفه، وتشابكا في صراع مميت عجزت كل محاولات الحضور عن فكهما، وعلى هذا العراك عاد من هم بالمغادرة، واجتمعوا حول المتصارعين على هيئة دائرة كانت تضيق وتتسع وفق تحركات المتصارعين وقد انطلق حجر من يد أحدهما فأصاب هامة حسن الهندي وتركت شجا غائرا جعل البقية يلتفون حوله محاولين إسعافه وتاركين المتصارعين يواصلان صراعهما من غير أن تتابعهم عيونهم، وفجأة تنافروا راكضين في اتجاهات مختلفة حينما سمعوا صوتا ثقيلا يقترب منهم:

- لا أمان لأحد منكم بالليل

كان منظره في تلك العتمة الباهتة يجلب الذعر فقد كان يسير شاهرا ساطوره بينما صرخاته تجوب أزقة الحي بدوي مشروخ وقد تلبد زبد شدقيه على جوانب فمه وزاغت عيناه، وتفرق المارة من حوله وهم يستعيذون بالله من شره حتى أن أعتى السكرجية (أبا قارورة) فاق من سكرته حين رآه يقف على هامته سائلا إياه من طرف لسانه:

- ألم تر الأعرج؟!

فاضطرب ونهض متثاقلا هازا رأسه بالنفي حتى إذا عبره ذرفت لسانه باللعنات على هذا الأحمق الذي جعله يفيق من نشوته من غير أن يكون له ذنب فيما حصل، وسرعان ما لحق بالأعرج ناعتا إياه بأقذع الصفات.

في تلك الليلة خلت شوارع الهندامية من دبيب النمل وذوت أصوات الكلاب والقطط، قد حشرت أجسادها داخل القمائم وبسطت أعضاءها مسترخية لا تخلو من ترقب متحفز. ولم يجرؤ أحد على الخروج بعد صلاة العشاء خوفا من أن يسقط على هامته ذاك الساطور المشهر، فقد أقسم أنه لو لم يجده الليلة ليضعن ساطوره في هامة من يراه.

حكايات تتناقلها الحارة عن أبي حية

- هل حقا أحببت مها؟ .. لماذا؟

لم أرها في حياتي سوى مرتين، مرة جوار بيتها وهي عائدة من عند إحدى صديقاتها، ومرة حين كانت تخفق عباءتها وهي تقف في انتظار أن ترى أبا حية، وعندما رفض ملاقاتها خرجت لاخبرها بذلك فلم أرى إلا كتفها وهي منزوية جوار عنبرنا، وكنت ساعتها أهتف في داخلي: ليتني أستطيع ان ألمح وجهها بوضوح ولازالت هذه الرغبة تتأجج داخلي كلما طرأ اسمها، أي حمق هذا الذي أحيا به.؟!

هل كل هذا العنت محاولة لأن تعيش من خلال شخص يقدس الحياة؟

37

لم تعد مصابيح البلدية الموزعة في أركان الحارة قادرة على إغراق ظلمة الليل العاتية، فخبا وهجها وأخذ يتربص ضوؤها المتخاذل بالشوارع المقفرة يمتد خطوات ويفتر عن مواصلة خطواته تاركا الكلاب تركض عاوية صاخبة بين تلك الأزقة الملتوية.

هذه الأزقة التي لم تخل ذات ليلة من صولة (اليابات) الذين يؤذون

الحجارة الساكنة قاذفين الرعب في صدور من توسوس لهم أنفسهم بالخروج في مثل هذا الوقت، هاهم الليلة يتجرعون من الكأس نفسه، حيث نفضوا مؤخراتهم من وقت مبكر واختبئوا في منازلهم وهم يستعيذون:

- الله يعدي هذه الليلة على خير

فأقفرت الشوارع من المارة ولم يبق منها إلا من أكلت رأسه الخمرة وتركته مقذوفا جوار الجدران المهدمة أو المتوارية داخل الحارة، وقد تغطى بعضهم بالكراتين خشية أن يراه أبوحية أثناء عبوره تلك الأزقة.

تطاير خبره كتطاير الشرر وأمسك كل بيت أبنائه مانعا إياهم من الخروج، وكان البادئ بهذا أبو الدندون حيث ربط ابنه بسلسلة طويلة وأقسم أن لا يفك قيده حتى تفرج هذه الغمة، وسرعان ما اقتفى أثره بقية الأباء، ولم يعد متواجدا في تلك الشوارع إلا من قذفته ظروفه أو حرم ممن يخافون عليه.

ركض القرش صوب سينما أبي صباح مقتحما بوابتها التي يجلس في مدخلها أحمد الابن الأكبر لأبى صباح، وقد فاجأه باقتحامه الخاطف، ولم يستطع اللحاق به إلا بعد أن سكب صوته بكل قوة بين الجمهور المحتشد لمشاهدة فيلم البقرة:

- انجوا بأنفسكم فقد خرج أبوحية لقتل الأعرج وهو الآن في طريقه إليكم باحثا عن غريمه بينكم.. انجوا بأنفسكم وقد أعذر من أنذر

ومرق من أمام أحمد أبي صباح كالسهم لتتبعه دفعات متموجة، ولم يتمكن أحمد بكل صرامته المعروفة من إعادتهم إلى مقاعدهم، وظل صوته الحاد يتردد بلا جدوى:

- لن يتمكن أحد من الوصول إليكم فابقوا في مقاعدكم

فجرفته أول مجموعة، فحاول أن يسبقها لإغلاق الباب لكنه سقط أمام انجراف البقية الباقية، وتزاحموا أمام البوابة لتنطلق صرخات الألم ممن هرسته الأقدام المتخبطة والمتقافزة، وأمام هذا الزحف وجد أحمد نفسه يصيح في إخوانه المكلفين بتشغيل السينما بالغرفة العليا لمساعدته بفتح البوابة على مصراعيها، لكن صوته ضاع وسط الهرج السائد، وكادت أن تقع مشاجرات لا حصر لها لكن الخوف من مداهمة أبي حية لهم كان أكبر من الوقوف

للاقتصاص من شتيمة عابرة، وإن ظلت التوعدات والتهديدات تنطلق من أفواههم مؤجلة الاقتصاص إلى ما بعد.

كان أحمد يلعن كلا من الأعرج وأبي حية اللذين كانا السبب في إغلاق السينما قبل أن يتم عرض فيلم (البقرة) ذلك الفيلم الذي تنادى له الناس وتقاطروا لمشاهدته من أقاصي جدة، وكان يمني نفسه بدخل يغطي خسائره التي مني بها قبل أيام حينما اشترى فيلما لم يقدم على مشاهدته أحد، وكان مقررا أن يعرض فيلم البقرة ثلاثة عروض كل ليلة، وهاهي أول ليلة لعرض الفيلم تضيع منذرة بخسارة أخرى أفدح.

وقد دارت مشاجرات عنيفة بينه وبين من تلكأ وتأخر مطالبا برسوم الدخول، فأجفل وطوح بيده في وجوههم مقسما أنه لن يعيد إلى أحد قرشا واحدا متعللا بأن الفيلم سوف يعرض ومن أراد الخروج فليس له الحق في المطالبة بفلس واحد، وحث أحد إخوانه في البدء بعرض الفيلم وهو لا يزال يصيح بمن تجمهر عليه مطالبا بنقوده بالعودة للمقاعد أو اللحاق بمن خرج، ورقق صوته مؤكدا لمن بقي أن أباحية لا يجرؤ على الاقتراب من بوابة السينما، وأمام إغراء الفيلم كاد البعض أن يتراجع عن مغادرة السينما خاصة وأن أحمد تعهد لهم بقضاء الليلة بداخل السينما لمن يخشى العودة بعد انتهاء العرض، وبينما هم على هذا الحال إذ بحركة خاطفة من أحد المجتمعين حوله خطف بها رزمة النقود التي كان يحملها وانطلق راكضا، فتراكض خلفه الباقون ومن خلفهم كان أحمد يجر سمنته ويتابعهم بالشتائم والتهديدات المريرة، وعاد صوب إخوته يلعنهم ويلعن تخاذلهم وينعتهم بالبهائم التي لا تقاد إلا بالهش، وجلس في وسط قاعة العرض على أحد الكراسي المتقدمة يضرب كفا بكف ويتوعد كل من كان داخل السينما، وجأر بصوت مثقوب لأخيه الذي بدأ العرض:

- يا حمار اغلق (المونوتور) أوهناك أحد غيرنا؟

فجاء صوت إخوته مجتمعين:

- نريد مشاهدة الفيلم

فنهض من جلسته مسعورا وقذف في اتجاههم أحد الكراسي:

- أيها الحمقى. . وهل دفعت كل تلك الريالات من أجل أن تشاهدوه أنتم. . انزلوا نزلت نار حامية في حلوقكم

أعاد الفيلم إلى مكرته وأدخله علبته بعناية، ودفع إخوته أمامه، وأغلق بوابة السينما إلى أجل غير مسمى.

كان خبر خروج أبي حية يحرق جنبات الحارة، ويحيلها إلى موجة ذعر، فهم يعرفون أن وعيده هذه المرة مخلوط بمرارة ويأس الأيام التي قضاها داخل السجن، وأن حقده تربى في تلك السنوات السبع واستحال إلى وحش كاسر لا يمكنه التحلي بالصبر والروية، ومما زاد في رعبهم تهديده الذي ألقاه على مسامعهم من أنه سيعقر الجميع أن لم يتمكن من خصمه، وقد أيقنوا بصدق هذا الوعيد من هيئته التي تنبئ أنه مقدم على الموت في سبيل الوصول إلى خصمه، وقد توعد الجميع بصوت مبحوح أقرب إلى البكاء:

- لن أرحم أي كائن يقف بيني وبين خصمي. . وأحذركم أن من يتقدم بالشكوى للمأمور أو يدل على مكاني. . سأجز قدمه قبل أن يصل وإذا وصل لن يعود إلا حاملا رأسه! !

انطلق خبره من (مركاز) العمدة، فقد جاءت امرأة - يقال إنها أم الأعرج - إلى العمدة مستجيرة به، ومقسمة عليه أن ينقذ شباب الحارة من ساطوره المنقوع في السم، وطلبت منه سماع شاب كان يرافقها أقسم - هو أيضا - أنه كان يراه يوميا يذهب إلى الحداد ليحد له ساطوره الذي أصبح (أرهف) من الشعرة، وأمضى من الموس، وسمعه يتمتم شادا ساطوره على فخذه:

- سأجعل هذه الحارة تتعب من نقل جثث موتاها، ولن يوقفني إلا رأس الأعرج

فتملص العمدة من هذه المهمة، وأوكل بالعمودية لعريفة الحارة بعد أن تمارض وادعى أن ألما حادا نشب بين ضلوعه، وليكمل تمارضه سقط على الأرض ولا أحد يعرف كيف جعل جسده كله يتماوج بإرتعاشات جعلت جلساءه يهبون من مقاعدهم لنقله إلى بيته وهو يئن بثقل ويذرف وصيته على مسامعهم، ولم تجد المرأة - الشاكية - إلا مناشدة العريفة الذي تربع على كرسي العمدة مزهوا بنفسه وأخذ يستمع إليها مصغيا ومقلدا العمدة في وضع جلوسه

حينما يكون الأمر خطيرا، وبعد أن أغدقت عليه النعوت الكبيرة ودعوات الستر والرحمة وعدها خيرا وطمأنها:

- أن هذه الليلة لن تنقضي حتى يكون أبوحية معلقا في إحدى غرف المنطقة الرابعة.

ولكي تكسب تعاطفه، غمزت العمدة بكلمتين وعابت عليه تراخيه وتقاعسه، وعندما شعرت باستحسانه لما قالت، أردفت:

- أنت أهل لمنصب العمودية منه، فالمهام الصعبة لا ينجزها إلا القلة، وأخالك واحدا منهم

ففز من مقعده، قاذفا بشاله الحلبي على كتفه، وحاشرا قدميه العريضتين بحذائه الشرقي ومتنحنحا:

- سيعلم الجميع أنني أسد ما يعجزون مجتمعين عن سده

فحفزته مستبشرة:

- سداد وواف

- عودي أنت وهذا الشاب ونامي قريرة العين، ففي الغد ستسمعين ما يسرك

وانطلق رافعا صدره ومتكبكبا صوب تلك الشوارع المظلمة يتفقد رجال عسته، وثمة زهو يملأ رأسه وصور عديدة تتقافز إلى مخيلته، كان يرى حفاوة أهالي الحارة تحيط به، وتحديدا عندما يطوقونه بشكرهم واعتذاراتهم عن إبخاسه حقه كل هذه المدة، ويطلبون منه ترشيح نفسه لتيسير شؤون الحارة بدلا من العمدة الحالي الذي لا يعرف سوى الاتكاء بمركازه بينما الحارة تغرق في مشاكلها.. ويرى زوجته التي لا تترك فرصة إلا ونالت منه ومن انحطاط نسبه ورقة حاله تعتذر له وتتمحك به بدلال لكي يغفر لها زلاتها وفقر عقلها إزاء تقويم الرجال.. كانت صور كثيرة تقف في رأسه وتزيده تصميما على إنجاز مهمته مهما كان الأمر.

كان يفكر في جمع رجال العسة المنتشرين في زوايا الحارة، والتربص بأبي حية ومن ثم الإحاطة به، وضربه ضربة رجل واحد.. لكن خيبة أمله كانت كبيرة حينما أنهى جولته بين أزقة الحارة من غير أن يجد أحدا منهم ماعدا

واحدا وجده منكفئا على ضرع إحدى الشياه الشائبة، فدفعه أمامه وأكمل جولته بحثا عمن تبقى وحينما لم يجد أحدا منهم صارح رجل العسة بما نوى، فاتسعت حدقة العسة، وصاح منفعلا:

- أنا وأنت نهجم على أبي حية.. هل جننت؟!.. أم أنك ليس لديك أبناء يحتاجون دبيبك على الأرض

- سأعطيك ما تشاء.... أربض له هنا، وسوف أذهب إليه وأخبره أنني رأيت الأعرج يسير في هذا الاتجاه، فإذا قدم ومنحك ظهره فألق عليه بـ(شومتك) ونتعاون عليه ونقيده فلا يستطيع الحراك

- لا شك أنك جننت، المأمور نفسه لم يستطع الإمساك به ونفض يده معتذرا أن هذا الأمر من اختصاص العمدة وشؤون حارته

- نعم هذا صحيح، أنا وأنت سنكسب المجد عندما نقبض عليه

فغر وهو يتطلع إلى العريفة ولحماسه المفتعل، وعندما حرضه مرة أخرى أقسم:

- والله لو رأيته أمامي ما تحركت للامساك به

فصاح به متعجرفا:

- لا تنس أنني العمدة الآن وأنا آمرك

فضحك رجل العسة بصوت مرتفع حتى خشي على نفسه من أن يكون هدفا لساطور أبي حية، وعندما تمالك نفسه، ناول العريفة الصفارة و(الشومة) وتندر به:

- أرجوك أن تعس بدلا عني هذه الليلة

وعندما جذبه العريفة في اتجاهه خلص نفسه بقوة، ونبرته تزداد تصميما:

- قلت لن أفعل.. ويبدو أن الموت يطوف حول رأسك هذه الليلة.. فمن الأفضل أن تكون شجاعا حتى النهاية

وقذف بالصفارة، والشومة وانطلق يولول:

- ياروح ما بعدك روح

فتبعه من الخلف متهددا بإقصائه عن العمل أن لم يعد لكن التهديدات كانت أقصر من أن تلحق به حيث التهمه الظلام والأزقة التي تشبه المغارات،

ليبقى العريفة وحيدا يلعن العمدة وأباحية وأهل الحارة أجمعين.

وفكر بالقيام بدورية بين أزقة الحارة منفردا ومتربصا بأبي حية ومباغتته بضربة على هامته لكنه تراجع عن هذا الخاطر حينما تذكر ما يقوله أهل الحارة من أنه يرى بأربعة أعين، واستقر رأيه على جمع (اليابات) من حوله والقبض على أبي حية، فعرج على (مراكيزهم) فوجدها خاوية، وسمع صوتا مدويا يقترب:

- لا أمان لأحد بالليل

فهلع قلبه، وانطلق يحجل يغالب حذفة رجله صوب بيته، وقلبه يركض كحصان متوحش يكاد يطفر من بين ضلوعه لتخيله رقبته تفصل عن جسده كأول ضحية لأبي حية.

أحداث تتناقلها الحارة عن خصومة أبي حية مع الأعرج

احببت آمنة كثيرا لكن أبا مريم قبرها قبل أن تنمو في داخلي،
أما مها فلازالت نبتة تخضر كلما مضى الزمن فكيف الوصول إليها
قبل أن تذبل جوار تلك الحية العظيمة التي تنام على ذراع عبد الله؟

38

كان مشهورا بضرباته الدقيقة والتي قلما تخطئ هدفها، وقد كانت آخر زيارة له للسجن بسبب تحد نشب بينه وبين أحد خصومه المشهورين - أيضا - بدقة التصويب، فقد توج كل منهما نفسه ملكا للتصويب، وأصبح كل منهما مشهورا بهذا اللقب بين رفاقه والويل لمن ينادي على أي منهما من غير إضافة هذا اللقب إلى اسمه. . . كان كل منهما يعيش في حارة بعيدة عن الأخرى وفي إحدى ليالي (النقرزان[23]) كان (الصامولة) يجوب حلبة الرقص بعد أن أسقط

(23) النقرزان أداة من أدوات الطبول تصنع من فخار مجوف على قاعدتين دائريتين فالدائرة العلوية تغطى بجلد جمل أو بقر وتظل الدائرة السفلى مفتوحة ومفرغة لتحدث ردة منغمة لوقع العصا على تلك الآلة الإيقاعية، ويستخدم النقرزان في لعبة المزمار ويكون القرع على هذه الآلة بعصاتين قصيرتين غليظتين . . والأدوات المصاحبة لهذه الآلة هي: المرد وهو برميل صغير يغطى بالجلد من الجهتين، والطيران (جمع طار) وتصنع من =

أربع (شومات) بحركة خاطفة حيث كان يحوم حول خصمه رافعا (شومته) إلى نصف صدره ويديرها حول رأسه كاللبانة وينزلها بين لحظة وأخرى ضاربا النار

= الخشب المقوس على شكل دائرة وتكون أكبر من الرق، ومراجيف (جمع مرجف) لإعطاء نغمة محددة تكون جوابا لصوت المرد، ولعبة المزمار لاتستخدم بها آلة وترية.
وهي لعبة قدمت من افريقيا وانتشرت على ساحل البحر الأحمر وقدمت إلى الحجاز عبر صعيد مصر ويقال انها استوطنت مدينة ينبع ومن هناك واصلت رحيلها إلى الحجاز وانحرفت بايقاعاتها بعض الشيء متخذة سمة حجازية .
وأصبحت لفظة نقرزان تعنى لعبة المزمار لأن أداة النقرزان أداة مهمة وبدونها لا تتم اللعبة، ولعبة المزمار تختص بإظهار فتوة لاعبيها فتوضع نار ويتحلق اللاعبون حولها دائرين في رقصة متوترة مظهرين فتوتهم بتبادل قرع عصيهم (الشومات) ولهذه اللعبة أدبيات وطقوس وأهازيج، ومن طقوس اللعبة إذا دخل اللاعب لحلبة الرقص حاملا شومته وخمش ترابا من الأرض وألقاه على النار فهي تحية وإذا ضرب بشومته شومة أخرى يرتكز عليها من هم متحلقون حول النار فهي إشارة لطلب المنازلة وتعتبر هذه اللعبة من أهم لعبات الحجاز ويحتفل بها الكبار والصغار.
وللعبة المزمار مسميات عديدة منها : مزمار، نقرزان، زومال، جوش .
ويتحلق اللاعبون في دائرة ويكون هناك صف للذين يرقصون وواحد يغني (والمغني يسمى زومل) والبقية ترد بأول بيت والصف الذي يغني لا يلعب وإذا لعب يضرب وتسمى المنازلة بين لاعبي المزمار بالمقاشعة فاذا كان النزال وديا فان لمس الشومة للخصم تعتبر تأشيرة واذا اصابته ثلاث مرات تعد هزيمة .
ومن اشهر اهازيج النقرزان :
سمارة ياسمارة
مسكين الحبيب وحده
آو يالله
وهناك أهزوجة مطلعها :
سنبلان ياسنبلان
والميت ما يرحمونه
والدود ياكل عيونه
ياسنبلان ياسنبلان
وغالبا تكون مطالع هذه الأهازيج كلمات أعجمية تعود في جذورها للهجات الافريقية (كالهوسة والفلاتة والبرناوية) لأن أغلب من يتغنى في المزمار هم من أصول افريقية
روى هذه المعلومات عبدالله عمر-الشهير بالمعلم
(هذه المعلومة مبتسرة ولم اروها بهذه الصورة - المعلم)

التي تتوسط فيما بينه وبين خصمه حتى إذا ألف خصمه تلك الحركات صوب على خصمه ضربة قاتلة تطير بشومته من دون أن يصيبه بشيء إذ كان يطلق عصاه من الأسفل إلى الأعلى بحركة مذهلة لا تمكن من كان يترقب منازلته أن يتقيها أثناء النزال، وبعد أن أسقط أربع شومات لأربعة ممن يشهد لهم بقوة المراس والغلبة في هذه اللعبة أخليت له حلبة الرقص ولم يجرؤ أحد على منازلته، فأخذ يدور ويتراقص بنشوة وبين الفينة والأخرى يقفز أحد أبناء حارته إلى داخل حلبة الرقص ويخمش ترابا وينثره على تلك النار المتأججة تحية للصامولة الذي يعاود لف شومته في الهواء بسرعة مذهلة مما جعل أحد يابات حارة الهندامية يتحسر بصوت مسموع:

- لو كان أبو حية هنا لما استطعت أن تدور حول جسدك ولانشغلت بالبحث عن شومتك

فتلقاه بضربة فلقت له هامته. . كانت ضربة عاقرا سمع لها دويا ظن في البدء أنه أطلق شومته على إحدى الحجارة ومن شدة الضربة لم يستطع صاحبها أن يطلق صرخة ألم فقد غاب عن الدنيا تاركا دمه يفور من جبهته كصنبور فتح على أخره، فتهشمت مقدمة جمجمته مما جعل الدم يشخب وكأنه لبن يخرج من ضرع شاة حلوب، فالتف حوله أبناء حارته، مطلقين الوعيد ومهددين بشر انتقام أن أصاب رفيقهم مكروه، فشعر صاحب الزواج بالحرج فأخذ هو وأهله يعتذرون:

- لكم الحق وسوف يصلكم

ودفعوا الصامولة إلى خارج حلبة الرقص، فامتنع في البدء إلا أن أصحابه عيروه:

- أتريد أن تعيرنا بقية الحواري بأننا نفسد أفراح أهل حارتنا

فشدد قبضته على شومته وخرج من الحلبة يلعن يابات الهندامية وأهلها، وصاح منفعلا:

- تهددونني بشارب البول والله الذي في سماه لو جاء لأشربنه بول الحمير الضالة

تناقل الحاضرون كل الشتائم التي تفوه بها الصامولة، ونثروها في المراكيز مما جعل يابات الهندامية يطلقون الوعيد بالانتقام ورد الثأر وخاصة أبو حية الذي اغتاظ كثيرا من نعته بشارب البول فلعنه ولعن الأعرج وأقسم أمام الجميع بأن يجعل الصامولة يسفح التراب، ولم يطل تنفيذ تهديده، فقد كان يتابع أخبار (الجوش) ويتساءل أن كان الصامولة حاضرا أم لا طالبا من أصدقائه العديدين -في الحارات المختلفة - إبلاغه حينما يكون الصامولة متواجدا في أي جوش، ولم تمض أيام قلائل حتى جاءه أحدهم يخبره بأن الصاموله سيقيم عرسا لأخيه، فقام من فوره وأخرج شومته المقطوعة من شجرة الجوافة ونقعها في زيت لأيام طوال، وأخذ يجربها فهوى بها على قضيب معدني فارتدت إليه محدثة انثناءه حادة بذلك القضيب، فاطمأن إليها، وجلس يزين مؤخرتها بلف جلد غزال وتثبيته بمسامير متناهية الصغر تنتهي برأس فضي مفلطح لامع، وتشاور مع بعض رفاقه الذين يعرف بأسهم بأن يحوطوه أثناء منازلته للصامولة ويمنعون أي أحد من الاقتراب، وفي اليوم المحدد خرج بصحبه رفاقه بعد أن لف على فخذه ساطورا، ولم يتوجه مباشرة إلى المزمار بل ظل يتنقل بأصحابه بين المقاهي، وكلما استعجله أحدهم، رد عليه:

- لا يزال الوقت مبكرا. . أريد أن يصبح اللعب حاميا حتى نستطيع أن نرد على إهانته أمام الجميع، خاصة وأنني سمعت بأنه دعي لهذا الزواج أناس كثيرون من خارج جدة وضرب فخذه بعنف:

- أريد أن ألبسه الطرحة

وأخرج من تحت فانلته طرحة، وصاح:

- هذه الطرحة سوف يلبسها الليلة حتى لا يتجرأ ويرفع فمه بما لا يقدر على إنجازه

وظلوا يحتسون الشاي في مقهى (القاهرة) إلى ما بعد المغرب حين فز أبوحية مطالبا رفاقه بالتحرك موصيا:

- كما أخبرتكم حين أطلبه للنزال لا أريد أحدا أن يقترب منا

فوعدوه بذلك، وتحركوا حتى بلغوا مكان العرس حيث كان ضرب

النقرزان صاخبا ونار الرقص يحوم حولها اللاعبون بينما تفرغ البعض للإنشاد، فلمحهم الصامولة من على بعد، فركض في اتجاههم مرحبا، ومادا يده إليهم، فلكزه أبوحية بشومته، وعينيه مغروستين في وجهه:

- أنت تعلم أننا جئنا لرد اعتبار لا لتكريمك بحضورنا

فرد الصامولة:

- أنت ضيفي وعندما أنزل للعب لك ما تشاء

وقادهم إلى دائرة المزمار، وقد عرف بعض اليابات من الحواري الأخرى مقصد أبي حية، فجاءوه طالبين تأجيل طلب الحق إلى ما بعد انقضاء الزواج، فاعتذر منهم أبو حية، معللا ذلك:

- الدم الذي تشربه الأرض لا تعرف لمن هو، وقد شربت أرضكم دمنا، وعلينا أن نستعيده

فغضب منه الكثيرون حيث لم يقدر مجيئهم إليه، ورفع عمائمهم التي كانت تتقاذف في اتجاهه من غير أن يستجيب لخاطر أحد منهم، عندها اقترب الصامولة، مخاطبا الحضور:

- لقد عملت بأصلي ورحبت به محاولا أن أرفع من شأنه، ولكنه يريد جمع وساوس هامته التي ستتدحرج حين ألقنه درسا في الأدب وعدم التطاول على اليابات الكبار

ظل أبو حية يستمع إليه ببرود وفمه فاتر بابتسامة ساخرة، وعندما أنهى الصامولة جملته المتشنجة، تحرك أبو حية إلى داخل الحلبة، وأخذ يدور في وسطها مديرا شومته بإصبعين من أصابعه، لافا على وسطه تلك الطرحة التي جعلت الكثيرين يتراكضون حول دائرة المزمار، ارتص اللاعبون في داخل دائرة الجوش واضعين عصيهم أمامهم، وقد تداخل معهم رفاق أبي حية متحفزين لأي طارئ، بينما اعتلى دق المرد، وتبرع البعض بتسخين النزال بـ(مقاشعة) سريعة، وقد حاول البعض تهدئة الصامولة ومطالبته بعدم الاستجابة لأبي حية، فصاح بهم:

- ألا ترون الطرحة التي يحتزم بها، وإذا لم أنازله فسوف ألبسها طيلة حياتي

وعندما حاولوا منعه بالقوة، خاصة العريس الذي قبل رأسه وهو في حالة ضيق شديد:

- أتريد أن تخرب ليلة العمر على أخيك

فصاح به:

- أو تريد أن تخرب ما تبقى من حياتي، والله لأنزلن إليه، وألبسه الطرحة ساعتها سيكون لعرسك طعم وسيذكره الناس فيما تبقى لهم من عمر.. سيقولون (ليلة ما لبس أبوحية الطرحة)

فأمسك شومته، وحاول منعه بالقوة، فلم يتمالك الصامولة ثورة غضبه، وصفع أخاه على صدغه، وشد شومته من بين يديه وانطلق صوب الجوش حين كان أبو حية لا يزال يتبختر في رقصته، وابتسامته تتسع، وحين أصبح الاثنان وجها لوجه، رفع كل منهما شومته بمحاذاة رأسه، ودارا حول بعضهما، مع تبادل قرعات خفيفة ليتعرف كل منهما على الكيفية التي يمكن من خلالها إلحاق الهزيمة بخصمه.

كانت دائرة اللعب تكتظ بالمشاهدين الذين تحلقوا وهم يتابعون تلك المناورة التي تسبق جريان الدم، ولم يستطع منظمو اللعبة إيقاف تدافع الناس فضيقوا مساحة اللعب، فتبرع أحد الحضور بحمل شومته والضرب أسفل أقدام المتحلقين لكي يبتعدوا ويوسعوا تلك الدائرة التي ضاقت بالتفافهم حول الراقصين، فكان أهل المقدمة يتقون ضرباته الطائشة بشوماتهم التي يضعونها أمام أقدامهم، وعندما وجد أن لا فائدة من ذلك ترك المهمة لشخص أخر وتفرغ لمشاهدة المنازلة التي بدأت تأخذ طابع الشراسة، حيث كان كل منهما يهيل لصاحبه الضربات الموجعة، فقد تلقى أبو حية ضربة على ظهره حينما هوى بشومته على رأس الصامولة فراغ عنها بأن تقوس حتى أصبح موازيا لخاصرة خصمه، واستغل افتقاد توازن أبي حية وسدد له ضربة على الظهر كاد على أثرها أن يقع أرضا لولا أن غرس شومته واتكأ عليها قافزا إلى الأعلى

ومباغتا الصامولة بضربة قاسية على كتفه الأيمن مما شل حركته وأصبح لا يقوى على تحريك شومته بيسر، وطاف حوله بسرعة وعاجله بضربة أخرى على ساقيه، فسقط أرضا محتميا بشومته من ضربات أبي حية التي انهالت عليه، ولم يتمكن من النهوض، فاستغل أبوحية هذا الوضع وأخذ يكيل الضربات على وسط الشومة، وتعمد ذلك بينما كان خصمه يجعل شومته بين وجهه وضرباته المتلاحقة، وبسرعة مذهلة أدخل أبو حية شومته بين يدي الصامولة ووجهه واختطف شومته بعنف، لينكشف وجهه أمامه ساعتها قذف اليابات عمائمهم فوق الصامولة فتوقف أبوحية وحل الطرحة من على وسطه وغطى بها خصمه، وظل يدور وسط الجوش رافعا شومته بمحاذاة رأسه غامزا لرفاقه أن يتخلوا عن دورهم ويسمحون لمن أراد منازلته بدخول حلبة الرقص، وعندما لم يتقدم أحد، نكص وتناول حفنة تراب وقذف بها اتجاه النار التي مازالت جذوتها ملتهبة، وغادر المكان دون أن يلتفت خلفه.

كانت هذه الحادثة بداية عراكات طويلة لم تنتهي فأغرقت كثيرا من الحواري وأدخلتها طرفا فيها، فقد انتصر للصامولة يابات العمارية، والصحيفة، والكندرة، ووقف مع أبي حية يابات البخارية، والسبيل، والثعالبة، والرويس، بينما ظل يابات اليمن، والشام، والبحر على حيادهم ولم يدخلوا في تلك المعارك التي ذهب ضحيتها الكثيرون، حيث اختلفت الاعاقات فمنهم من تهشمت ضلوعه، ومنهم من تكسرت سيقانه، ومنهم من ظل يسير بشج غائر من تلك المقارعات الخاطفة السريعة، فمع أي مزمار تجد طرفا من الفريقين، ولم يوقف تلك الصراعات إلا إصابة أحد يابات الكندرة بارتجاج في المخ حيث تلقى ضربة على رأسه، ولم يفق منها إلا بعد ثلاث ليال، كان خلالها قد طار صواب أبيه فتقدم ببلاغ للشرطة فسجن رأس الفتنة أبوحية، والصامولة، وبعد تغيبهم في السجن هدأت تلك المشاحنات التي كانت تبدأ بالتحرش وتنتهي بالدماء المسكوبة في الطرقات.

وفى السجن كان كل منهما يحفر لخصمه أخدودا عميقا من الحقد في زوايا قلبه، وفي كل يوم كان يتعمق ذلك الأخدود بسبب تناقل المساجين تهديداتهما

التي ملأت العنابر، كان كل منهما تواقا لأن يأكل من لحم خصمه ولو أدى ذلك إلى السجن ما تبقى من العمر.

وبعد مضي سنة كاملة خرج الاثنان وكل منهما حريص على إذلال الآخر، في تلك الأيام لقب يابات الهندامية أبا حية لقبا تشريفيا (ملك التصويب) لمقدرته الفائقة في إصابة أهدافه التي كان يتناولها بالحجارة أو بالسكين أو الساطور، وإضافة لذلك انتصارا لصاحبهم، وكان الصامولة قد حاز على هذا اللقب قبل دخوله السجن، فأغاضه هذا التجاهل من يابات الهندامية وانتزاع لقبه وإلصاقه بصاحبهم وخصمه اللدود، لذلك سرعان ما داهم الهندامية هو وبشكته، وهدد وتوعد أن لم يترك أبو حية هذا اللقب ليجعلنه يندم ما تبقى له من عمر، وخوفا من اشتعال فتيل الخصومة، قام العجل - وهو أحد يابات العمارية - بمساع لتأليف القلوب، فأولم وُليمة كبيرة ودعا إليها كبار يابات الهندامية والصحيفة، وأنفارا معدودين من الحواري الأخرى المشهود لهم بالمكانة والتقدير من قبل الطرفين، في البدء رفض الصامولة الذهاب لكن مقام العجل عند يابات الصحيفة جعلهم يضغطون على الصامولة حتى ذهب للوليمة مرغما، وهو يندد ويتوعد بعدم قبول الصلح قبل أن يذل أباحية، فحملوه على كره، وعندما لم تفلح هذه الوساطة عن ثني الخصمين عن تنازل أحدهما للآخر عن اللقب، اقترح عليهما العجل أن يثبت كل واحد منهما أحقيته بذلك اللقب، واتفق معهما على تنظيم منازلة والخاسر يتخلى عن اللقب من غير أي اعتراض، وكان التحدي المنصوص عليه أن يمسك كل منهما بمسمار لا يبين منه إلا الرأس ويتخطفانه بساطوريهما ومن أصاب رأس المسمار دون أن يصيب خصمه توج ملكا للتصويب وكانا الخصمان في حالة سكر يرثى لها وكادا أن يقيما ذلك التحدي في تلك العتمة لولا أن جلساءهم حكموا بينهما على أن تكون المنازلة في صبيحة الغد، وتحرك الجميع ليتمكن الغريمان من النوم المبكر، وقد تواعد الجميع على الالتقاء جوار ملعب الصبان خلف المقبرة بعد شروق الشمس مباشرة.

ذكر سبب الخصومة بين أبي حية والصامولة رواها أبو عيسى للراوي

حذرني الضابط مما أقوم به بنبرة حادة:

– ما تقوم به يعرضك للمسألة؟

* وما ذاك؟

– أنت تعرف ذلك جيدا، فلا تحيي النار الخابية

* أنا لا اعمل شيئا سوى جمع حكايات

– وماذا تود أن تفعل بهذه الحكايات

* لاشيء

– إذا لا تجعلنا نعيد حكايتنا معك

خرجت من المركز حائرا فيما أصنع، كان علي قبل كل شيء أن أثبت كل ما جمعته في دفتر كي لا تتبعثر حكاياتي التي جمعتها، وبصدق كان من الصعوبة بمكان ان أسجل كل ما سمعته وجمعته أن اكتبه حيا كما قيل، عندها أيقنت من كذب كل الكتب التي نقرأها، وأيقنت انني كنت ضحية الشعارات التي آمنت بها..

** **

ها أنا محط أبصارهم ولا عمل لي إلا متابعة جمع الحكايات وأمل يغور ويزهر كلما خطرت مها في البال.. متيقن أنها الحصن الوحيد المتبقى.

39

لم يتمكن المأمور من اللحاق بالصامولة، فحينما ظهر كان كل شيء قد انتهى، فاكتفى بإطلاق ابتسامته الرخوة والتحديق في وجه أبي حية قائلا:

– سوف يملك السجن هذه المرة

واقتاده أمامه، فيما انطلق اليابات يروون تلك المنازلة بصور شتى.

في صبيحة اليوم نفسه استيقظ أبوحية مبكرا، وانشغل بشحذ ساطوره بحجر صلد، وعندما اطمأن على دقة حده، لفه بقطعة شاش، وثبته بساقه، وربطه بجلد ماعز، وارتدى فوطته التكرونية، بعد أن حبكها على وسطه بإحكام، وتناول عمته، وخرج ليجد الدندون بانتظاره مفاتحا:

– سمعت أن الصامولة يعد لك شركا فكن حذرا

- في ضحى هذا اليوم سيكون بمقدور أي طفل أن يصفعه ولن تقوم له قائمة أبدا. . أقسم على هذا

- حذار أن تنساق خلف اندفاعك، فهو ماكر ولا يتورع عن فعل شيء

- أعلم هذا. . فلا عليك

- هل تريد أن نحوطه وندق جمجمته وينتهي كل شيء

صاح أبوحية منفعلا:

- أتريدني أن أصبح معرة بين الرجال فيتقولون: أن أباحية لم يقدر على خصم ضعيف كالصامولة، دعوه لي حتى ولو نهض أعوانه معه لا تساعدوني أفهمت. . لا تساعدوني

وانطلقا صوب ملعب الصبان، وفي طريقهما صادفهما (الكيس) وعرجوا على الفوال وتناولوا فطورهم ومضوا مسرعين، وعندما وصلوا كانت مجموعة كبيرة من الناس في انتظارهما وقد صفق لأبي حية شباب وصبيان الهندامية، فاخترق تلك المجموعة وسلم على كبار اليابات، حينما اقترب الأعرج هامسا في أذنه، وكان أبو حية يهز رأسه وقد تطاير الشرر من عينيه وعندما انتهى تهامسهما صاح:

- أشهد من حضر بأنني سأجعل الصامولة يندم على هذه المنازلة ما تبقى له من عمر

فتصايح أنصاره مطلقين صفيرهم وصفقاتهم في الهواء وظل تأييدهم منطلقا إلى أن تراخى مع مضي الوقت، حيث انتظر المتجمهرون إلى الظهيرة من غير أن يظهر الصامولة، وكاد العجل أن ينصب أباحية ملكا للتصويب، وقد اتفق على ذلك مع بقية اليابات الذين حضروا حكاما وبينما هم يتهيئون لذلك إذ أقبل الصامولة لاهثا، ومعتذرا لتأخره بحجة أن سكرة البارحة لم تمكنه من الاستيقاظ مبكرا، ومع قدومه ارتفعت أصوات قليلة مرحبة به بينما ظلت معظم الأصوات التي جاءت لمناصرته صامتة تاركة وجومها يخيم على ما تبقى من الوقت، ولم يكن عذر الصامولة مقنعا لكثير ممن حضر التحكيم، وقرروا تعميد أباحية ملكا للتصويب إلا أن أبا حية رفض هذا التنصيب وطالب منح خصمه فرصة أن يثبت أنه الأحق بذلك اللقب، فرضى أن ينازله، وقد أكسبه

هذا الموقف تأييد الحضور الذين صفقوا له كثيرا، وزاد هذا التأييد حينما تباطأ الصامولة، وظل يتلفت اتجاه عمارة فلبس، مما حمل العجل على مخاطبته بصوت مرتفع:

- باستطاعتك أن تعلن انسحابك وتحتفظ بمكانتك كما هي

فزجره الصامولة مترفعا:

- سألقنك درسا بعد أن أنتهي من هذه الدابة

وأشار إلى أبي حية الذي ظل صامتا دون أن تستفزه تلك الكلمات مما جعل الكثيرين يستاءون من تصرفات الصامولة الفجة، حيث بان الغضب على سحنة العجل الذي ترك المكان محتجا على تلك الألفاظ، بعد أن لعن الصامولة، وتوعده صائحا:

- سأعلمك كيف تتكلم بعد أن تنتهي من هذا النزال

استعد المتنازلان، ووضع كل منهما مسمارا في يده، وقبض عليه واستبقيا رأسي المسمارين ظاهرين، وتخاطفا بساطوريهما، وقد خسر أبو حية هذا التحدي فقد قطع معصم الصامولة وترك يده تفرفص أمام ناظريه.

وعلى صراخ الصامولة ظهر المأمور ورجاله وقادوا أبوحية صوب الكركون.

بعد تلك الحادثة لم يظهر الصامولة، وقيل أنه رحل إلى بلاد أخرى حيث توعده العجل بأن يجتز لسانه، وكثير من اليابات يؤكدون أن العجل نفذ وعده، وأقسم أن رآه ليجعلنه دابته التي يركبها في مشاويره العديدة، وأكد آخرون أن أبا حية لم يكن ليخسر المنازلة لولا أن الأعرج أسر بأذنه بأن الصامولة تلسن على مها متبجحا.

قضى أبوحية داخل السجن ثلاث سنوات لا يعمل شيئا سوى نصب أعواد الكبريت والتصويب عليها بأي شيء تصل إليه يده حتى أنه خرج منه أكثر دقة - مما مضى - في التصويب.. حتى أنهم ليقولون:

- أصبح قادرا على قطع رجل النملة

ما رواه أخو الصامولة من أحداث وقعت بين أبي حية وأخيه

كالمراهقين جلست أمام باب منزلها، وكلما أطلت رأتني مسمرا عيني في بابها الموارب، لم أشعر أنها اكترثت بنظراتي أبدا.

الليلة كانت تذهب وتؤب وتتطلع إلي متلهفة، فرقص القلب فرحا، وظننت أنني اقتربت من عينيها، وقبل أن أمعن في هذا الظن كانت سيارة الإسعاف تقف على بابها وهي تستحثهم عجلة:

- أرجوكم أسرعوا إن حالته خطرة.! !

40

مضت تلك الليلة وأبو حية يذرع أزقة الهندامية وحيدا، وكأن الحارة انقلبت إلى مقابر للأحياء، فليس ثمة أحد يخطو في تلك الشوارع الضيقة سواه، وكأنه مارد خرج من قمقمه شاهرا ساطوره، وتاركا عينيه تتربص بالمنحنيات التي تسلم بعضها إلى بعض في سكون مهيب. . كان يطلق قدميه وراء كل شبح يلمحه من بعد، ولم يكن أحد ليجرؤ أن يطل عليه من فوق الأسطح أو من الرواشين الصغيرة، فما يلمح أحدهم حتى يصيح بصوت مسعور:

- شفتك وسأجعلك تنظر لرأسك وهو يتدحرج

فتختبئ الرؤوس كأرانب برية في جحورها، بينما يمضي هو والليل متلازمان ينثران الوحشة في الطرقات النائمة.

كان أهل الحارة يتوقعون أن يتصبحوا بكارثة لم يسبق لها مثيل، فلم يكن بإمكانهم النوم من تلك الأصوات العاوية، فبين الحين والآخر يسمعون عواء حادا، يتبعه ركض وصراخ ضار يختلط بنباح كلاب مهرولة، وفي أحيان يمتد عواؤها إلى البعيد وينتهي فجأة لتغرق الأزقة في صمت مهيب.

في بعض زوايا الحارة يتبادل الجيران الاطمئنان والتساؤل عما حدث من خلف الجدران والرواشين:

صوت 1: ربما ظفر به

صوت 2: أصوات الكلاب تدل أن معركة عظيمة نشبت

صوت 3: أكانت تحدث كل هذه المهازل لو أن أبا مريم لا يزال هنا؟

صوت 2: لو أن المورقي زوجه ابنته ما حدث كل هذا

صوت 4: الله يلعن المورقي.. بسبب جشعه ضيع ابنته وضيع أبا حية وضيع نفسه.. هو السبب في كل هذا البلاء

صوت 1: المفروض أن يتدخل المأمور لإنهاء هذا الرعب الذي نعيشه ليليا

صوت 5: وماذا فعل لنا المأمور غير جلب الصداع؟

صوت 7: يقولون أن أبا مريم قتل زوجته

صوت 5: الحكاية لا أحد يعرفها كلها كلام في كلام

صوت نسائي 1: أريد أن أعرف لماذا لا يتدخل المأمور

صوت 2: خربها وجلس على تلتها

صوت 6: اسمع.. .هذا صوت أبي حية

صوت 4: والله أنني أشفق عليه، وأعذره

صوت 1: تعذره على إيه، الفاسق فاسق

صوت نسائي1: اسكت لا يسمعك

فجأة ساد الصمت، وبين الحين والآخر ينطلق عواء حاد ينقطع قبل أن يتمدد في جنبات الليل الهامد.

استيقظت الحارة على دماء غزيرة في كل منعطفاتها، وثمة آثار لجثة سحبت بينما كان دمها متقطعا وفي أمكنة متفرقة تظهر بقعا متلبدة.. كان الهلع طاغ، فارتفعت أصوات النساء بعويل لا يعرف على من أطلق، وتحير الرجال في الخطوة التي يجب أن يتخذوها، وان كان كبار الحي أبدوا استياء من هذه المذبحة والتي لا يعرف عدد ضحاياها، ولم يجرؤ أحد على إلقاء اللوم مباشرة على أبي حية، وقد استطاع أحد المسنين أن يخرج تذمره بشكل موارب:

- عندما لا يتأدب الأبناء تحل المصائب

وعقب عزيز قدوره متحفزا:

- أن تربية الشوارع لا تخرج إلا شوكا ساما

لكنه تراجع بسرعة عن مقولته، وحاول أن يغطي تلك المقولة بمقولات عديدة لم تسعفه في طمس جملته تلك، مما جعله يكز على أسنانه ندما بصورة واضحة، وتجاسر بعض المتجمهرين بإلقاء اللوم على المأمور والعمدة بوشوشات قصيرة ومبتورة.

وأمام هذه الدماء الغزيرة تصايح الجيران متفقدين بعضهم، فكانت كل الأصوات تجيب على النداء، واجتمعوا في البرحة الكبيرة، وكان السؤال. . لمن كل هذه الدماء، حيث كانت في كل شارع آثار لسحب جثة ودم، واتبعوا الأثر وكم كانت دهشتهم كبيرة حينما وصلوا إلى مرمى الحارة ليجدوا جثثا لكلاب عديدة رصت في صورة هرمية، وقد تعددت إصاباتها فثمة كلاب قصمت من وسطها، وأخرى تبقت أعناقها ممسكة بجسدها بقطعة صغيرة والبعض الآخر تلقى الضربة على الهامة مباشرة.

بعد رؤية ذلك المشهد هدأت أنفسهم، واطمأنوا قليلا، لكن عيسى غريب أطلق سؤاله مستنكرا:

- لو أنتنت هذه الكلاب فلن نستطيع المكوث في الحارة

واقترح ياسين سمكري أن يتم جمع مبلغ من المال ودفعه إلى الكناس ليقوم بنقل هذه الجثث إلى خارج الحي، إلا أن هذا الاقتراح لقي رفضا خشية تقاعس الكناس وإلقاء كل هذه الجثث خفية في الصهريج عندها ستحل كارثة أخرى بالحارة، وانتهى الأمر فيما بينهم أن يقوموا بحفر حفرة عميقة ويدفنوا هذه الجثث مجتمعة، وفي الحال تحركت مجموعة وجلبت الفؤوس والكريكات واكتمل الحفر وألقوا تلك الجثث وطمروها، وعادوا إلى منازلهم من غير أن يجرؤ أحد على الإشارة إلى صاحب تلك الفعلة حتى انزلقت جملة من أحد شباب الحي حينما صاح بالمجتمعين أثناء الحفر:

- لماذا لا نبلغ العمدة عن هذه. . .

وقبل أن يكمل جملته كان أبوه قد وجه له لطمة على صدغه أسكتته، وجذبه من (فانلته) ناهرا إياه بالعودة إلى البيت، ولم تكن تلك الجملة لتذهب في الهواء فقد علق علي البريكي:

- هذا الجبان يعلم بكل ما يحدث، وهو مشارك في كل ما نحن فيه

ولم يستجب لتلك الإشارات التي كانت تحذره من عيون العمدة المبثوثة بين الحفارين بل زاد جملة جعلت أولئك المندسين يهمون بإلقاء عصيهم على هامته:

- هؤلاء ليسوا رجالا بل ذبابا يهشهم العمدة والمأمور من على وجهيهما ليحطوا قاذوراتهم علينا

عاد رجال الحارة إلى منازلهم والهواجس تشتعل في رؤوسهم من غير أن يتمكن أحدهم من التساؤل لماذا الكلاب بالذات؟! .. فرد أبو طيرة:

- ليخبرنا أن الكلاب أفضل منا

ولقي حيال هذه الجملة التعنيف، والصد، فواصل حديثه:

- من منا قدر على الخروج بالليل سوى الكلاب؟ .. إنها أشجع منا

أهملوه تماما، وعادوا إلى منازلهم وجملة غارقة في ألسنتهم يذرفونها بأسى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله

أحدهم أكملها بقوله:

- لاحول ولاقوة إلا بالله.. اللهم نجنا من هذا المخلوق! !

وأشيع أنه لم يصل إلى البيت، ولم يعرف أحد عنه شيئا، وقيل أنه قطع لأوصال متناهية الصغر وقدم طعما للكلاب.. لذلك أصبح من واجب الجار على جاره أن ينصحه بالصمت المطبق حيال هذا السجن الليلي والذي يبدأ مع الغروب حيث تفرغ الأزقة من المارة تاركة المجال واسعا أمام خوار أبي حية وهو يذرع الشوارع بحقد دفين.

وتعاقبت الليالي وشوارع الهندامية تقفر من المارة ليلا ولا تعد بها إلا أنفاسه الثقيلة وقدميه اللتين تدكان تلك الشوارع وتبحث عن غريمه بضغينة محمومة.

تناقل اليابات أن الأعرج استجار بأحد يابات الرويس، فأجاره من أبى حية حتى وان طارت رقبته، وآخرون يؤكدون أنه غادر الحي إلى غير رجعة

مخلفا أمه العجوز في بيتها وحيدة من غير معين يجلب لها الماء والخبز وقد استحق بهذه الفعلة اللعن من قبل رجالات الحي.

داهم أبوحية تلك المرأة العجوز ليلا، وكلما سألها عن ابنها تصنعت الصنج حتى يئس منها ونفذ صبره، فهم أن يجبرها على إخباره فأمسك بشعرها وهم بشده إلى الأعلى مقسما أن يفصل رقبتها عن جسدها أن لم تخبره بموقع ابنها، فأخذت تبكي وتذكره بأنها في مقام أمه، وكيف أنها كانت تخدمه حين يبيت الليالي مع ابنها فلم يزده حديثها إلا إصرارا على معرفة موقع ابنها وعندما رأت أن وجهه جامد لا يلين لدموعها وتوسلاتها استثارت نخوته، وكشفت عن رأسها الأشيب، وصاحت به:

- إذا كان ولابد أن تأخذ ثأرك من حرمة.. فهيا تقدم وجز رأسي، ولكن تذكر أن العيب لن يمحى من وجهك حين يتحدث الرجال أنك ضربت حرمة.

فانتفض، وخرج غاضبا يلعنها ويلعن ابنها في كل كتاب.

كان أبو حية كلما سمع بإشاعة ذهب ليتأكد منها حتى لجأ إلى أحد أصدقائه بالرويس لتشمم أخبار الأعرج فجاءه النبأ أن الأعرج استجار بالزيتوني فلم يجره، متعللا أن الرويس لا تقف في وجه حليفها أبي حية الذي طعن بسبب دفاعه عن أحد أبنائها، فخرج من الرويس ليلا ولا أحد يعرف إلى أين اتجه.

ملت الحارة من دوران أبي حية الليلي، وتعاون بعض الأنفار في تصيد أخبار الأعرج ليقدموها لأبي حية ليريحوا الحارة من هذا الخوف الذي ران على صدورهم منذ أن تغيب الأعرج، ولم يحاول أحد منهم معرفة سبب الخلاف فيما بين الأعرج وأبي حية وكيف انهارت صداقتهما الحميمة حتى يظن من لايعرفهما أنهما شقيقان، ولم يكن مهما - بالنسبة لهم - معرفة سبب الخلاف، كان همهم الوحيد أن ينهي أحدهما الأخر لتستريح الحارة من هذين المزعجين، كان تشممهم أخبار الأعرج يأخذ عدة صور، كأن يرسلوا النساء إلى أمه لاستدراجها في معرفة طريق ابنها أو أن يضعوا جائزة لمن يخبر عنه، أو أن يتصيدوا أخباره من الحارات الأخرى، وكانوا على وشك أن يقدموا على كارثة

وذلك بإشاعة أنهم أجاروه من أبي حية في محاولة لاستدراج الأعرج لكي يعود إلى أمه المسكينة، وقبل أن ينشروا تلك الشائعة وبخهم الدندون مذكرا إياهم أن أبا حية سيقضي على الحارة بساطوره المشهر في يديه إن هو سمع هذه الشائعة، فتراجعوا عنها وهم يحمدون الله على أنهم لم يتورطوا في إشاعتها، وظلوا يتصيدون أخبار الأعرج، حتى أسرت أمه لإحدى صديقاتها المخلصات أن ابنها يأتي إليها في بعض الأحيان مع الثلث الأخير من الليل ليسلم عليها ويزودها بالأكل والشرب ويغادرها قبل أن تنقشع العتمة، وانتقل ذلك الخبر من فم إلى فم حتى وصل إلى أذن أبى حية، فاشتط غضبا وأقسم أن يقتل نفسه أن لم يصل إليه قبل ثلاث ليال من سماعه لهذا الخبر.

عندما عسعس الليل ربض أبو حية جوار بيت الأعرج مفرغا برميل القمامة المجاور واضعا فوق رأسه قليلا من القمائم، ثاقبا البرميل في أمكنة متفرقة بحيث تمكنه من مراقبة الشارع من جميع الاتجاهات.. كان ساخطا على الأعرج حيث جعله يضع القمائم على رأسه مما مكن القطط من القفز على هامته وخربشته، والتبول عليه، وأقسم أن يمثل به ساعة الظفر.

مضى الليل ساكنا، وهو في داخل البرميل ينقل عينيه بين الثقوب العديدة حتى إذا انتصف الليل لمح شبحا يتمايل ساندا عرجته بعكاز خشبي، فشعر بلذة غامرة، وقفز من البرميل في لمح البصر، وركض صوب الشبح الذي فاجأه هذا الهجوم المباغت، وحاول الركض فلم تساعده عرجته من الابتعاد بعيدا فسقط على الأرض، وابتعد عنه عكازه حيث ظلت يده تبحث عنه في تلك الظلمة.. فصاح به أبوحية:

- منذ متى وأنت تحمل هذا العكاز.؟! !

ولم يمهله لأن يرد عليه، فألقى بساطوره على هامة غريمه الذي انفجر عن صرخة عميقة تبعها دم شاخب ارتقى حتى بلغ وجه أبوحية، فلعن ضحيته ومسح بشاله الدم العالق بوجهه بينما كانت ضحيته ترفس -أسفل قامته - بقوة وخرير دمائها وأنفاسها مختلطان..

مسح ساطوره بفوطة ضحيته وهم بالانصراف لكنه تذكر أنه أقسم لان ظفر به ليمثلن بجثته، فانحنى وقلب الجثة وسل سروالها وقطع عضوها

وحشره بين شدقها الرخو. . عندها أحس ببرودة شديدة تسرى في جسده، فحينما حشر العضو المبتور في فم ضحيته انزلق إلى داخل الفم بدون عناء حيث كانت الضحية دلماء، فسحب القتيل إلى جوار مصباح البلدية وتفرس ملامحه، وهاج لاعنا الأعرج في كل كتاب. . وهوى بساطوره على فخذه فاحدث جرحا غائرا أخذ ينزف ويبلل ملابسه، وتحامل على نفسه واتجه مباشرة إلى الكركون ووقف على بابه مطالبا رؤية المأمور، ورفض أن يتحدث أمام كل من وقف أمامهم حتى خرج إليه المأمور وهو يغالب النعاس، وصاح به:

- أنت. . ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت، وما هذا الدم الذي يغطي ملابسك

- لقد قتلت شخصا

- الأعرج

فهز أبوحية رأسه نافيا، فصاح به في ضيق:

- من هو إذا؟!

- لا أدري. . كنت أظنه الأعرج، ومن سوء حظ القتيل أنه أعرج

فوبخه المأمور، واقترب منه ليصفعه، فأمسك بيده وأرخاها بقوة عندها تراجع المأمور ماسحا تلك الإهانة التي لحقت به أمام أنفاره، ومحاولا مداراتها:

- لا داعي لضربك باليد حيث سيتولى السياف هذه المهمة.

عادت الهندامية إلى صخبها، وغاب أبو حية داخل سجن الرويس، وكلما ذهب إلى المحكمة أنكر[24] أنه أقدم على القتل العمد وإنما دفاعا عن

---

(24) روى الكيس أن السبب الرئيس في عدم تطبيق حد القصاص بأبي حية أن أهل الميت تنازلوا عن حقهم وتبقى الحق العام فسجن أبي حية سبع سنوات . . وهذه الرواية تناقلها قلة من المقربين من ابي حية بينما أجمعت بقية الروايات أن ابا حية أصر في كل جلسات القضاء أنه كان في حالة دفاع عن النفس ،والأقرب للتصديق أن اهل الميت تنازلوا عن حقهم وإن كان هناك من يقول أن الميت لم يكن له أحد فهو رجل جاء للحج وبقى في البلد ولم يغادرها وانقطع عن أهله منذ عشرين عاما ولم يظهر من يطالب بدمه .

النفس، مشيرا إلى رجله التي كانت ستفصل من الفخذ ولم يثبت عليه القتل العمد فأخلى سبيله بعد أن قضى سبع سنوات داخل الحبس كان خلالها لا ينام حتى يقتل الأعرج ويمثل به ولذلك تم تغيير مخدته ألف مرة. . تلك المخدة التي يحشرها في أحد الأركان وينبشها بضراوة ولايهدأ إلا بعد أن يخرج أحشائها وهو يصيح بجنون:

- كلوا أيها الكلاب من أحشاء هذا الوغد.

مقولات وأحداث مختصرة جمعها الراوي من نساء ورجالات الحارة

عرفت أن أباها تضاعفت آلامه، واقترب من قبره كثيرا، ووجدت أن في عيادته تقربا منها، وعندما طرقت الباب كانت كلماتها حجرية تساقطت على رأسي:

- أبي لا يعي من يزوره وليس في البيت رجل يستقبلك

واغلقت الباب.. يومها شعرت أنني أتهاوى وأنني غير قادر على تحمل هذا الإذلال المتواصل، وقررت أن أقلع عن هذا الشوق المبتذل، وقبل أن أكمل خطوتي الثانية كان وجهها يرفرف في القلب خافقا.

41

من ساعده المفتول نفرت أفعى ضخمة، والتفت حول معصمه، وغاب ذيلها أسفل إبطه، بينما همت بغرس نابها المدبب في وريده الضخم، مبقية عينيها الصغيرتين المتوقدتين تحدقان في اتجاه وجهه الذاوي كعذق قذف في برية قاحلة، لونها الأخضر الداكن أبان بشرته الصافية، كانت أفعى أضخم من المألوف تزداد صلابتها وتثنياتها مع انسياب ساعده المفتول المتوتر، ولأول وهلة يتراءى للرائي أنها سوف تعصر ذلك الساعد عصرا.

خرج بها من السجن، ولم تغادر ساعده من تلك الأيام الخوالي حتى أن الناس نسوا اسمه، وتذكروا تلك الحية العظيمة التي ترقد على ساعده الأيمن وغدا مشهورا بها.

قام بوشمها على ساعده زميل هندي رافقه في السجن لمدة سنتين، وظل

ينقش إنحناءاتها بمثابرة وجلد من قبل أبي حية، كان يبدأ في نقشها مع الغروب حيث يظل أبو حية مادا ذراعه بينما رفيقه الهندي ينقش تلك الأفعى الضخمة بإبرة خاصة كان يحملها معه أينما اتجه، وكان دائما يخبئها في قعر رجله بعد أن يغرسها بشكل أفقي، وقد تعب الحراس وهم يبحثون عن الأداة التي يتم بها وشم المساجين لأجسادهم.

كان النقش يتم عميقا من غير أن تظهر على أبى حية إمارات الألم مما جعل الهندي يبدي اندهاشه:

- لم أقم بهذا العمل لأحد إلا اشتكى أو توقف قبل أن أتم رسم مايريد.. وإزاء جلدك هذا سأبذل جهدي لإتقان رسمها

كان أبو حية أثناء النقش يجلس القرفصاء ونظره سارح خارج أسوار السجن عبر نافذة تهرب ضوء القمر الشاحب، شيء ما يغلي في داخله وان لم يظهر على سحنته، وبعد أن أتم الهندي رسم الأفعى بدقة كان عليه أن يعيد نقش ما التأم منها وكانت هذه أصعب مرحلة في رسم الوشم حيث من الممكن أن تتسبب في حدوث تورمات قد تؤدي إلى تسمم وقد أوضح لأبى حية خطورة هذه المرحلة، فجاءه الرد صاخبا:

- أن الحياة حقنتني بسمها وانتهى كل شيء.. فلا تكترث

كان السجناء ينظرون إلى أبى حية بشيء من الإعجاب يخالطه كثير من الحقد إذ لم يقدر أي منهم على تحمل دقات ذلك الهندي الذي كانت تتنقل يده على ساعد أبى حية بسرعة ودقة متناهيتين فبعد أن اكمل رسم الحية كان عليه أن يردم تلك الثقوب بمادة خلطت من ثلاث عناصر لم يكشف سر خلطتها السحرية لأحد من زملائه الذين يمتهنون هذه المهنة داخل السجن، وكان يحتفظ بتلك المادة في كلفات ثيابه، وبعد أن ردم تلك الثقوب أوصى صديقه أباحية بأن لايغتسل لمدة ثلاثة أيام حتى تتشرب بشرته تلك المادة.. كانت الرسمة مذهلة للجميع وقد تسابق الكثيرون طالبين أن ترسم لهم مثلها لكنهم لم يقدروا على تلك الوخزات العميقة فاكتفوا بتلك الوشوم التي يقوم بها بعض المساجين والتي غالبا ما تأتي مشوهة أو باهتة.

وكان أمام أبوحية وقت طويل قبل أن يغادر السجن ففتح صدره وطلب من صديقه أن يقوم بوشم صدره بصورة فتاة وصف له ملامحها.

هذا ما شاهدته بعيني داخل السجن - الراوي

انهارت فجأة، فذبل جسدها وخارت قواها وتناقل نساء الحي عدم مقدرتها على النهوض من فراشها، اعتراني الجنون وبحمق تسللت مع الليل إلى داخل بيتها ورأيتها جسدا فرشه الموت ليقتات منه متمهلا، هتفت:

- أحبك

وخشيت أن يصيبها الذعر لو رآتني وأنا أقف على رأسها، فخرجت بكمد ينخر صدري، وسؤال ملح أردده:

- إنها الأمل الذي يربطني بهذه الحياة، ماذا أفعل لو رحلت؟!

42

كالطود مقذوفا فوق قمائم المرمى، يجلس مسترخيا يشحذ أغطية المعلبات، ولا يثير اهتمام المارة الذين يعبرونه كالجدار المهدم، ولم تكن عباراته التي يطلقها إلا مدعاة للسخرية المبطنة.. كان يجلس في وسط القمائم مرتديا ثوبا رثا ممزقا ومن فتحته العريضة ظهر وشم لقلب كبير اخترقه سهم مدبب النصل ترك دما أسود يتقطر أسفل ذلك القلب، وكلمة كانت تتوسط ذلك القلب الموشوم كتبت بخط عريض متقن (ياظالمني) فيما كانت صورة لفتاة رسمت بعناية في وسط القلب يجاورها حرف لاتيني m)) كتب بخط أصغر.

لم يكن بالإمكان رؤية كل هذه الأسرار فيما مضى من الزمان.. بل لم يكن أحد يجرؤ على الوقوف أمامه، أما الآن فكل العيون المستخفة تخترق عظامه الغليظة، وفى أحيان عديدة تنهره بغلظة كي يغادر مكانه.

في كل مكان يقتعده لم يكن يقوم بشيء سوى شحذ أغطية المعلبات أو البحث عن قوارير العطر وخضها بالماء ورشفها على سيجارة يستجديها من أول عابر أما بقية وقته فيظل يشحذ أغطية المعلبات بينما فمه يقذف الكلمات

والشتائم بلا هوادة، ولا يوقف سيل شتائمه إلا سعاله الحاد الذي ينوشه حتى يهم بإخراج أحشائه ولايوقف هذا السعال إلا عابر سبيل يمد إليه سيجارة، فيلتقطها مستعجلا، ويدسها في شعره الكث المحروق ببياض الزنازن، أو يقوم بوضعها على أذنه مطالبا سيجارة أخرى. . السيجارة هي الشيء الوحيد الذي يستجديه والويل لمن يمد إليه بالمال أو الطعام، فحينما يجوع يسارع إلى المرمى طاردا القطط ومتربعا تلك القمائم يقتات ماتجده يداه.

وحينما يعبره أقرانه وهو على هيئته يضربون كفا بكف، ويتحسرون بعمق:

- والله زمان يا (أبو حية)

لم يكن يسمح لأحد منهم بالاقتراب منه، وان حاول أحدهم صاح به:

- ابتعد وإلا قطعت عضوك وجعلتك تستمني بفمك! !

كانت قوته لا تزال تنبض بالفتوة، فقد ألحق ضررا بكل من حاول الاقتراب منه لذلك تركه أقرانه وأبناء حارته مدفونا بين القمائم أو مقذوفا في أحد الأزقة وهو منشغل عن الجميع بشحذ أغطية المعلبات، وقسمه الذي تيبس بفمه لا يزال يذرفه بمثابرة عجيبة:

- لابد من قتله لقد أقسمت على ذلك.

ما رواه أبو عيسي عن أخر أيام أبي حية

وجدت العسكري يقف على رأسي ويسحبني من يدي ومن غير مقاومة سرت معه،

وقفت أمام الضابط ببرود بينما كان الأخر يتميز غيظا:

- ألم أحذرك؟

- ......

- لماذا لا ترد؟

- على ماذا؟

- أسئلتي

- ليس لدي إجابة مقنعة

- ساعرف كيف أجعلك تجيب ما أن أحرك شفتي! !

43

- هذه الليلة لن يطلع لها نهار

تبللت هذه الجملة في أفواه الكثيرين ممن خرج لتلبية تلك الصرخة التي أيقظت سكون الليل، ولم تفلح توسلات النساء عن ثني عزيمة الرجال من الخروج لمعرفة ما يحدث بالقرب من مرمى الحارة، ولكي يكسروا حدة تلك الظلمة فقد خرج الكثيرون حاملين فوانيسهم أو كشافات صغيرة تنير لهم الدرب اتجاه تلك الصرخة التي سبقتهم إلى حيث كان الحدث الذي انتظره أهل الحي منذ زمن طويل.

- كان حدثا جديرا أن تترك الدنيا لتراه

كما قال العم مبروك حين عاد ليرويه لأبنائه وبناته.

بعد أن غيب أبوحية في غياهب السجن ظهر الأعرج.. كان ظهوره محط انتقادات (اليابات)، وقد عابوا عليه جبنه الذي أودى بصديقه إلى قتل نفس بريئة، ودخوله السجن، وربما تقطف رأسه لهذه الفعلة التي كان من الممكن تداركها لو أنه ظهر وطلب وساطتهم فأبو حية لايرد وساطة أهل حارته حتى لو كانت رأسه هي الثمن.

كان الأعرج صامتا فحدثه أبوعيسى ممتعضا:

- لو أنك دخلت على أحدنا كنا استطعنا تدبر الأمر.. كأن نحمل الجاهة وندخل بها على أبي حية

وصمت لحظة وأردف مقسما:

- والله ما عرفت أبا حية إلا رجلا يعرف قيمة الرجال، فقد كف عن ألد خصومه

ووجه حديثه للمجتمعين:

- تذكرونه.. الصامولة بعينه فعندما قذف عليه الرجال بعمائمهم تركه من غير أن يؤذيه، ولا شك أنه كان سيقدر جاهتنا

وانفعل فجأة وصاح بالأعرج:

- لكنك لا تستحي وقديما قيل في الأمثال: إذا لم تستح...

فقاطعه الأعرج غاضبا موجها حديثه للجميع:

. . . وأين كنتم. . ألم تلبسوا العبي وجلستم جوار أخواتكم وزوجاتكم بينما كان أبوحية يدور الأزقة لبتر هامتي

فحمل عليه أبوعيسى وصفعه صفعة قوية على صدغة ترنح لها، وعاود رفع يده لانزالها على وجه الأعرج الذي لم يستطع تفاديها فدخلا في عراك كانت الغلبة لأبي عيسى ولم يتقدم أحد من المتواجدين ل(الفرعة) بينهما، كان الأعرج خلال المشاجرة يستعين بما تجده يده من حجر وزجاج وعصى في صد أبي عيسي عنه لكن كل ضربة يحققها يتقاضى عليها لكمات وصفعات عديدة حتى طفر الدم من وجهه وأصيب بشج في جبينه وسال الدم على عينيه فأخذ يمسحهما بكم فانلته ولم يجد بدا من الركض من أمام أبي عيسي فتركه يغالب عرجته ومضى إلى منزله ولم يلتفت لتلك الصرخات التي تنبثق من حناجر الحضور استخفافا به وتشفيا منه.

كانت تلك الإهانة التي أطلقها الأعرج على مسامع الحاضرين حين نعتهم بلابسات العبي كفيلة بجعله إنسانا لايقدر قيمة الرجال، ومحط احتقار الكبير والصغير على السواء، وقد شاعت عنه حكايات ليس لها أول من آخر حيث اتهمه إسماعيل أبو دومة بأنه غدا قوادا، وأقسم أنه رآه يذرع باب شريف لجلب الزبائن لإحدى العاهرات التي دبرت له منزلا مجاورا لبيتها حين كان متخفيا من عين أبي حية، وبالرغم من معرفة الجميع للكذب المفرط الذي يطلقه أبودومة، فانهم لم يكذبوه هذه المرة بل زاد بعضهم أن الأعرج أصبح يملك بيتا في الشرفية لم يكن ليحلم به لولا أن عمله الجديد يدر عليه مالا يستطيع به شراء محطة بنزين.

وكانت ثمة أصوات تقف مع الأعرج لكنها لم تكن بقوة تلك الأصوات التي كانت تساند أباحية خاصة وأن الأعرج لم يترك لهم بابا يدخلون منه في دفاعهم عنه، فقد وصف وجهاء الحي بالنعاج التي أدمنت اللقاح من فحل واحد دون سواه، وقد صرح بهذه الجملة في إحدى جلساته الليلة فتناقلتها الألسن لتذهب بمن كان يقف معه.

ولم يعد الأعرج يستطيع الاقتراب من بشكاتهم المتناثرة في كل مكان من

الحارة، ولم يكن أحد من أهل الحي راغبا في استقباله خوفا من سيرته العرجاء، وحاول كثيرا أن يجد له مكانا بين الناس إلا أن الكل أجمع على نبذه، ووصمه بالقواد. . .كانت سلاطة لسانه تقوده دوما إلى منزلقات لا يتنبه لها إلا بعد فوات الأوان، ففي إحدى المرات كان سائرا فوجد مجموعة من أهل الحي تقتعد إحدى البرحات، فسلم عليهم، فلم يرد أحد عليه السلام، فاتجه ليحدث العجيلي لكنه سمع صوتا جهوريا يسأله:

- بكم الدخلة عندكم ياأعرج

فالتفت إليه ثم وزع بصره في الحضور:

- من منكم يريد امرأة تنسيه مرارة هذه الحياة

فتصايح به الجميع كل يصيح:

- أنا. . أنا

فرد بهدوء:

- لقد جئت الآن من عند امرأة شبقة وكأنها كلبة تعقد وبرها على العضو فلا تتركه حتى تمص صاحبه مصا. . فمن يريدها؟!

فتضاحك الجميع، وعلق العجيلي:

- لقد أصبح قوادا محترفا

فأخرج الأعرج عضوه بلا حياء، فأصيبوا بالذهول وقبل أن يستردوا دهشتهم، صاح بهم:

- أترون هذا القضيب لم يجف ماءه من بئر العجيلي، ووالله لقد وخزت به كل نسائكم

فتقافزوا صوبه وانهالوا عليه ضربا وركلا حتى تركوه جثة بلا حراك، وحملوه وقذفوه في المرمى.

بعد هذه الحادثة اقتنع أهل الحي من سفالة الأعرج وعدم تورعه من قول أي شيء، فتركوه خوفا من أن يصيبهم لسانه فيندمون كما ندم العجيلي حيث عاد ووجد زوجته تخبره أن الأعرج كان يسأل عنه، ومن غير أن يجعلها تكمل هوى على رأسها بشومته فأرداها قتيلة، وتكشفت له الحقيقة فيما بعد حينما

علم أن ابنه الأكبر من نقل إلى أمه أن الأعرج جاء يسأل عنه، ساعتها أخذ يندب حظه بصوت مرتفع:

- ما الذي أوقعني في لسان الأعرج؟!

حقت اللعنة على الأعرج بعد أن تم نقل العجيلي إلى السجن، وأصبح منبوذا تماما من قبل أهل الحي كلهم، ولم يعد له مكان يقضى فيه وقته سوى أمام داره حتى هذه الجلسة كان الصبية ينغصونها عليه، فعاد إلى البيت ولم يعد يلمحه أحد، ويقال أنه أصبح يهتم بتربية الدواجن.

وفي إحدى الجمع دخل المسجد فتلاقفته الأعين استنكارا فربض في مكانه، وقبل أن ينهي الخطيب خطبته سمعوا نحيبا عاليا، فالتفتت كل الأعناق ليروا الأعرج وقد دفن وجهه بين يديه وأطلق نحيبه، فكبروا كثيرا، ومع إقامة الصلاة تناشجوا كلهم مع نشيجه.

في تلك الأيام ظهر شيخ جليل بمسجد الجميرى نذر نفسه للدعوة، كان يوميا يخرج ويحادث الناس ويباسطهم ويدعوهم لملازمة المسجد لاستذكار ومراجعة النفس، وفي وقت قصير كون مجموعة من الشباب يخرجون معه لهذا الغرض، واستطاع بلباقته وكياسته أن يجتذب الأعرج إلى صفوف الملتحقين، ومن تلك الجمعة اعتكف في المسجد ولم يبرحه وكان أهل الحارة حين يلمحونه في إحدى زوايا المسجد وقد بدت عليه سمات الصالحين لايسعهم من حاله إلا ذكر الله والتسبيح له مرددين:

- سبحان مغير الأحوال يغير ولا يتغير

ولم يغادر الأعرج المسجد إلا فقيها متبحرا في علم الحديث واصبح الواجهة التي تزين الحارة حتى خشى عليه الكثيرون من بطش أبي حية حين يخرج من السجن، وظلوا يجلونه ويقدرونه حتى إذ سمعوا بإطلاق سراح أبي حية نصحوه بمغادرة الحي فخرج ولم يعد إلا اليوم، فقد لمحه أحد الطاعنين في السن وهو يعبر أزقة الحارة باحثا عن أبي حية وفى لمح البصر كان أهل الحارة يقفون من بعيد وهم يلمحونه متقدما صوب أبي حية الذي اقتعد جوار القمامة يشحذ أغطية المعلبات وفمه يدلق الشتائم، اقترب الأعرج منه وقبل رأسه:

- لقد جئتك لتبر بقسمك

نهض أبو حية صائحا به:

- ابتعد وإلا قطعت عضوك وجعلتك تستمني بفمك

وضع الأعرج يده على صدر أبي حية وبرقة خاطبه:

- من عفا وأصلح كان أجرة على الله

نفض يده عنه وصاح بالمتجمهرين:

- ألا تزالون تخبئون الأعرج في مخادعكم.!!.. سوف أعقركم جميعا حتى أصل إليه

وركض صوبهم حاملا أغطية المعلبات التي كان يشحذها، فلحقه الأعرج بصعوبة وأمسك به:

- ها أنا أمامك.. افعل ما تشاء

تركه وعاد إلى مرمى القمائم وجلس يشحذ الأغطية ولسانه يذرف الشتائم ويصيح متشنجا:

- لابد من قتله لقد أقسمت على ذلك

أصبح الأعرج يمر به يوميا يزوده بالسيجارة ودواء السعال ولا أحد يعلم كيف أقنعه بشرب الدواء.

حكايات نسقها الراوي بعد أن قدم وأخر في الأحداث التي سمعها عن ليلة الانتقام

- لن أجد أحدا ممن زاملني السجن سابقا

كان هذا الخاطر يلازمني أثناء انفراج بوابة السجن الكبير.

لا أعرف بالتحديد لماذا أقاد هذه المرة للسجن، وإن كنت أشعر بشيء من الفرح ففي خارج السجن ليس لي من عمل سوى متابعة الحكايات وحريق ضار يشعل حياتي كلما صدت عينيها عن رؤيتي، ربما أشعر بقليل من الاطمئنان هنا.. ربما

كلمة مقتضبة خرجت من بين شفتي الضابط:

- عليك أن تهيئ نفسك للسجن

ظننته يهددني ككل مرة.. وقبل أن يكمل جملته.. كان أحد العسكر يقودني صوب غرفة التوقيف، فانقدت له غير مصدق ما يحدث.

همسا خفيضا تناقله السجناء يقولون:

- تم فتح الملفات القديمة

وعرفت أن كارثة حدثت بينما كنت منشغلا بجمع هذه الحكايات.

** **

وجدت نفسي أجلس في الغرفة نفسها التي اقتعدها أبي حية، لازالت رائحته تملأ الفراش الذي اشغره، وأدواته البسيطة وملابسه آلت إلي، وكلما غفوت وجدته في حلمي يعانق مها ويدفعها في نشوة غامرة صوب وديان اللذة فاستيقظ لاعنا أبا حية الذي عطل حياتي للمرة الثانية.! !

44

استيقظت الحارة على صياح أبي حية:

- لقد أبررت قسمي. . لقد أبررت قسمي

كان يقف وسط القمامة وبجواره استقرت جثة عارية ممددة برد دمها وتكومت بدلتها الزيتية جوارها، وحينما رأى الجميع يقفون على رأسه، مذهولين، وصاح بعضهم بفجيعة:

- المأمور

فتحرك أبوحية فرحا:

- لقد أبررت قسمي. . .

وصمت فترة وجيزة يغالب هنهنة اعترته، ولم يتغلب عليها إلا بصعوبة وأكمل:

- لقد أهانني كثيرا فحينما كنت في السجن لم أكن أقوى على رد صفعاته وان حاولت ذلك أمر عساكره بتعليقي ثلاثة أيام. . كنت سأتجاوز عن إهانته تلك لولا أنه عراني أمام (الرجاجيل) وظل ينخس مؤخرتي بقضيب. . ليته اكتفى بذلك لكنه. . .

وتوقف ضاربا جبهته بيده وعندما لمح أن الجميع ينتظرون مواصلة حديثه قال:

- لقد أحال حياتي إلى رماد، منذ تلك الليلة التي أسلمت فيها حبيبي أبا مريم إليه، وبعدها داس على كل شيء ليذلني

صمت فجأة ونظر إلى الجثة المكومة بجوار ملابسه وتحدث منكسرا:

- البارحة اصطدته وهو ذاهب إلى مقر عمله لقد ربضت له في أحد الأزقة وفاجأته بضربة على هامته أفقدته وعيه، وأخذت اسحبه من هناك إلى هنا، حاولت بالماء والصفعات أن أعيد إليه وعيه ولكن بلا جدوى كنت أتوق لأن يشهد الناس عريه لكنه مات قبل أن أشفى غليلي

ثم صاح في المتجمهرين:

- تعالوا.. انظروا انه كالتيس المخصي وعجيزته ضامرة من الوطء الدائم

تحرك صوبه أبوعيسى والأخرش والأعرج حذرين وظلوا يلاطفونه حتى أسلم لهم ساطوره، وأجلساه وهم يربتون على كتفه بينما كان الأعرج يجهش بالبكاء، فاقترب منه أبوحية وعانقه وقبل أن يفترقا من احتضان بعضهما كانت الشرطة تقود أبا حية صوب السجن للمرة الأخيرة.

شهود أعيان على ما حدث لخالد أبي العمايم

لازال الهندي الذي وشم أبا حية يشاركنا نفس العنبر، اقتربت منه متوددا:

- أتذكر الحية التي وشمتها لعبدالله

- نعم

- أريد أن تعيدها على ساعدي بالطريقة نفسها

- لا أحد يقدر على ما يقدر عليه عبد الله

ثرت فجأة وصحت به:

- ستجدني أصبر منه

وكشفت عن ساعدي، تطلع إلي - رفيقي الهندي - وبدأ وشمي

بحذر، وكلما هممت بالتراجع لمحت عبد الله يطل من البال ساخرا، فارغم نفسي على تحمل تلك الوخزات المؤلمة[25].

45

- سمعت يقولون أن مها عادت

كان النساء يتناقلن عودة مها إلى جدة مستغربات فقد مضى على زواجها عشر سنوات من غير أن تصل أبويها. . .كان الكثيرون يتوقعون أن تحضر حين ضرب الشلل قامة أبيها لكن الأيام مضت ولم تصل ويزيد نساء الحي أنها لم تكلف نفسها خطابا تواسي فيه أمها التي أصبحت وحيدة أمام جثة ملقية على سريرها لاتتحرك فيها سوى عينين منطفئتين وحيرة خبت خلف أهداب متآكلة.

لا أحد يعرف بالتحديد كيف أصيب المورقي بالشلل فقد روت زوجته أنها سمعت بالليل (خرفشة) بالدهليز فأخبرت زوجها فتحرك متحفزا وماهي إلا لحظات حتى ارتفعت صرخة مكتومة واصطدام جسد بالأرض فأسرعت فلم تجد إلا زوجها ملقي على الأرض جثة غادرتها الحياة وأبقت عينين ذابلتين غير قادرتين على تحديد رؤيتها في اتجاه واحد، ومنذ ذلك اليوم أغلق محل المورقي وغدا بيته نهبا للصمت والسكون إلا من أقدام ملت الزيارة فتوقفت عن طرق الباب ليتحول بيته إلى نصف خرابة.

كانت هناك مقولات تروى أن أبا حية تسلل إلى بيت المورقي ليلا لينتقم لنفسه منه، وعندما رأى المورقى الساطور مشهرا على رقبته أصيب بهلع عظيم فسقط جثة ميتة قبل أن يشفى أبوحية غليله لكن هذه الحكاية لم تنتشر بعيدا خوفا من أن يسمعها أبوحية فيقتص من صاحبها، ولم يجرؤ أحد أيضا على نقل هذه الحكاية إلى مها وظل مرض المورقي غامضا تحاك حوله الأقاويل والتخمينات.

كانت عودة مها مثار الدهشة والتساؤل:

- ما الذي جاء بها الآن؟

---

(25) كنت راغبا في رسم وردة راغبا ان احولها إلى جنة نعيم في داخلي فإذا بها تنفث هواها بداخلي وتتركني اتلوى ألما دون ان تنعطف لتحتويني فقررت ان أبقيها حية ،فالحية رمز العذاب القديم وأول انصياع .

تروى النساء نقلا عن خيرية أنها قالت: ابنتي لا تستطيع العيش بعيدا عن جدة لكن المأمور أمر ابن أخيه أن يغادر بزوجته إلى الطائف وأن لا يمكنها من العودة مهما كان الثمن وفاحت رائحة تهمة بشعة بأن المأمور رغب في زوجة ربيبة وخشية من أن يقع مايجوس في داخله أقسم أن لايجمعهما مكان فأمره بمغادرة جدة.

مع عودة مهما استيقظت كثير من الحكايات النائمة وأخذت تلعب في الأذهان وتتناقلها الألسن بتحريفات وزوائد.

كانت هيئتها التي ظهرت بها مثار استغراب إذ بدت انحل وأكثر اصفرارا، كانت هيئتها تدل على مرض عضال سكن مفاصلها وأخذ يقتات من جسمها وروحها، فبدت صامتة تتحرك بآلية وبرود ولم يستطع أحد أن يعرف ماذا حدث لها .

وتناقل نساء الحارة أنها طلقت ولم تجرؤ صديقاتها على مفاتحتها بكل الأقاويل التي تثار حول مقدمها، وكان بعضهن راغبا في معرفة المزيد عن عودتها وتفاصيل حياتها وكلما حاولت إحداهن جذبها للحديث عن زوجها تصدها بالصمت المطبق، فقد أصبح الحديث معها معاناة حيث تأخذ الكلمات منها أخذا، ولم يعرف أحد سبب عودتها بالتحديد، وإن قال بعضهن أنها عادت لتمريض أبيها المشلول.

في تلك الأيام أشيع أن أبا حية عدل عن مقتل الأعرج وأصبح يبحث عن طريقة لقتل محبوبته مها، فذهب إليها الجيران وطالبوها بالالتجاء إلى بيت أحدهم لكنها رفضت ورحبت بالموت على يد عبد الله ورفضت رفضا باتا الانتقال مع أبويها إلى بيت أحد منهم.

في البيت جلست مها تنظر لأبيها المقعد تبادله تلك النظرات الباردة الواهنة، وتغمض عينيها في أحيان كثيرة بتنهيدة حارة، ومع مقدمها عادت الحركة للبيت وتناسل الزوار من صديقاتها ومن الفضوليات اللاتي جئن لمشاهدة مها والوقوف على حكايتها ونقلت إحدى صديقاتها أنها قالت:

- أتمنى رؤية عبد الله

كانت هذه الأمنية بعد أن روت لها حاله قبل مقتل المأمور وكيف تحول

إلى دابة مقذوفة عند مرمى الحارة يثير الشفقة والرأفة وروت أن مها عندما سمعت هذا الكلام بكت بحرقة وقالت:

- لقد تعاونا جميعا لتحويله إلى مجرم

بعدها تمنت رؤيته وطلب العفو منه.

كانت عائشة محمد تربطها صلة صداقة متينة مع خيرية وأسرت لها أن مها طلقت وطلبها المأمور لنفسه، فتناقل النساء هذا الخبر ليصل إلى مسامع أبي حية ويقال أن هذا هو السبب في مقتل المأمور.

وتأكد خبر طلاقها مع موت المأمور، فلم تتقبل فيه العزاء وردت عزاء إحدى صاحباتها بقولها:

- كان لابد أن يموت من زمن

وقد أقيم له سرداق متواضع أقامه ابن أخيه الذي قدم بعد يومين من مقتل عمه وأقيم سرداقه ببيت الشرقي ولم يحضره سوى بعض نفر من المركز حتى أن الشرقي كان متململا من هذا العزاء، وبعد انتهائه رحل ابن أخيه ولم يعد وظلت مها بجوار أبيها جثة تشاركه تبادل الأنفاس البطيئة الخائرة.

ما روته تلك العجوز التي أحبتني

انتهى رفيقي الهندي من وشم أفعى ضخمة تلوت على ساعدي وبرزت أنيابها وكأنها تهم بقضم وريد ترقوتي النافر، واستقر وكرها في صدري وخط على جنباته اسم مها، كان كلما شك ابرته الصدئة بجلدي تمتم:

- لابد من تعميق الوخز كي يثبت اللون

انصعت لنصيحته، فعمق إبرته، أحسست به يوشم عصبي، ولكي لا أترك سخريته تمتد اكز على أسناني وداخلي يمطره لاعنا.

كنت ميقنا أنه يعرف ما بداخلي وتعميق ابرته في عصبي اقتصاص مني لعبد الله.

46

كان ليلا شاحبا ينزو بنجوم باهتة لا تروي ظمأ هذه الظلمة الغامقة، فاستعان السمار بـ (اتريك) يفصح لهم عجمة تلك الظلمة وأداروا اسطوانة

(البك ام) وأخذت رؤوسهم تتمايل على صوت السندي الرصين ومرددين معه:

هم يحسدوني على موتي فواسفا
حتى على الموت لا أخلو من الحسد

يا سيدى من الحسد. . .

وظلوا على هذا الحال حتى انتصف الليل وغادر المركاز كثير ممن يرتادونه واقتصرت الجلسة على اليابات الجدد فتحرك أحدهم وجلب قارورة عرق فأخذوا يرتشفون منها متمهلين ومتلذذين، كان الأعرج يجلس بينهم صامتا وان لكزه أحدهم رد بصوت مرتفع منتش تغالبه بحة متحسرة:

- زمان والله زمان

ويعود إلى داخله يقتات هواجسه بصمت، قام أحدهم ورفع إبرة (البك أم) عن الاسطوانة فنهاه من كان منسجما مع تلك النغمات التي جرت لها تنهداتهم، فخاطبهم بود:

- نريد أن نستمع للأعرج
- تسمع ماذا؟
- حدثنا عن قصتك مع أبي حية. . ولماذا أراد قتلك

فلم يرضخ لهذا الطلب إلا بعد توسلات وقبل عديدة على رأسه وناوله أحدهم قارورة العرق فتجرع رشفات متوالية تبعها بتأوهات حارقة اتسعت لها عيناه باحمرار متوهج وعمق بصره وكأنه يبحر في تلك العتمة[26]:

- كان أبو حية سيد الرجال - فك الله كربته - الآن أتمنى لو أنه قتلني

---

(26) بعد أن غادرنا هذه الجلسة سألت أبا عيسى:
- ما الذي دفع الأعرج إلى العودة للشراب؟
فلم أجد عنده الجواب الشافي، وعرفت فيما بعد أن الأعرج انتكس حاله وعاد إلى الشراب ونسى طريق المسجد. . ولم يستطع أحد معرفة السبب الحقيقي لهذه الانتكاسة.
وإن كان الدندون يقول دائما:
- الأعرج كالهواء لايمكن أن يستقر في مكان.

ولم يصل كل منا إلى ما وصل إليه. . انظروا إلى ما أنا فيه بعد أن هداني الله هاأنا أعود إلى الشراب

وتنهد بحرقة وصمت طويلا فتحرك أحد الجلوس وملأ كأسا خاصا له فتجرعه دفعه واحدة وتدفق:

أن الحياة كالسيل تأتى لورقتين في غصن واحد فيفرقهما الزمن ويجمعهما عند مصبه، كنا أنا وأبو حية صديقين لا يفرق بيننا سوى النوم كان أكثر حظا مني في المدرسة فقد كان مؤهلا لأن يحصل على مكانة مرموقة لو واصل تعليمه لكن الحريق الذي أكل أهله مجتمعين خلف في نفسه حسرة، فظل لوقت طويل صامتا حتى ظننا أنه أصيب بالخرس، كان الوحيد الذي يتودد معه هو المأمور أبو شايب ويسأل عنه ويرعاه، كنت آتيه في بيته الذي لم يتغير حيث بقيت آثار الحريق ولم يحاول إزالتها حتى تحول إلى خرابة، وبطيب خاطر كنت أريده أن ينسى فحببت الشراب، حاول كثيرا الامتناع، كنت أسمعه يهذي ويخاطب أبويه وخشيت أن يفقد عقله فدفعته للنسيان بالشراب فإذا بي أدفعه لنهايته، ولم اكتف بذلك بل واصلت دفعي بلا قصد، في أوقات كثيرة نقتل من نحب بلا قصد.

أذكر أنني كنت محبوبا من أمه، فبعد وفاة أبي قربني الفسيني منه وكان يعطيني مصروفا كابنه تماما، وغياب الأب يقود الأبناء إلى الشوارع الخلفية فكنت أتفلت من المدرسة وأساير صحبة من المتفلتين، تعرفت معهم أمورا لم أكن أعرفها وبسرعة انجذبت إليهم ووجدت نفسي منبوذا من أقراني بتحريض من ذويهم، وكان منهم الفسيني فتباعدت صداقتي بعبد الله وعدت إليه بعد موت أبويه وأخته، وجذبته إلى شلتي. . . والله لم أكن أقصد أن أضيعه لكن الظروف التي أحاطت به كانت قاسية، وكانت شلتنا متدربة على تخدير الأحزان فوجد فينا بغيته وانساق معنا وبرع في ألاعيبنا وأصبح أحد أعمدة شلتنا.

لم يكن متوقعا له هذه النهاية لولا ذلك الحب الذي أفنى فيه روحه فبعد أن فقد جميع أسرته في ذلك الحريق، لم تتبق له في هذه الدنيا سوى محبوبته التي من أجلها ترك التعليم وعمل صبيا عند أحد النجارين لكي يعيل نفسه ويكون جديرا بها لكن طريقه الجديد جعل الناس ينبذونه، حاول أن يخبئ أفعاله المشينة عن اثنين المورقي وأبو شايب لكن الريح تجر الروائح إلى الأمكنة

القريبة، ففاحت سيرته الجديدة ووصف بالمعطوب وقد ظل لسنوات يلمح للمورقي برغبته بمها فكان في أغلب الأحيان يتجاهله حتى تجرأ يوما وطلبها منه فلم يكن من المورقي - رفع الله عنه - إلا أن قاده إلى البيزان وأشار لأحد الحمير وخاطب أبا حية:

- هل تتصور ياعبد الله أن هذا الحمار يصبح خيلا في يوم من الأيام

بعد هذه الواقعة تغير أبو حية تغيرا جذريا ولم يعد يكترث بأحد وانساق مع هواه، كان يفعل أي شيء ويقدم على إيذاء نفسه بكل السبل ولم يكن مكترثا بما يقال عنه وزاد ضياعه مع مجيء المأمور خالد أبي العمايم الذي اصطفى مها زوجة لابن أخيه ويقال أن المأمور لم يخترها إلا من أجل ثروة أبيها فوافق المورقي وبارك هذا الزواج.

وصمت الأعرج للحظات مرددا:

- صدق من قال (من حفر حفرة لأخيه وقع فيها) سمعنا فيما بعد أن المورقي كان طامعا في سلطة المأمور لتوسيع تجارته، وقد عاونه في ذلك وانقلب عليه في آخر أيامه وسلب كل أمواله وقد سمعت أنه تلقى هذا الخبر قبل أن يسقط بشلله حيث روى أحد عسكر المأمور بعد مقتله أنه تحرك للمورقي ليلا وطالبه بالتنازل عن كل أمواله بالقوة وما أن غادره المأمور حتى سقط ولم يقم بعدها

وتنهد بحرقة:

- هذا حق أبي حية فالله يمهل ولا يهمل

وصمت كمن يهم بإنهاء حديثه، فاستحثه القرش:

- نريد قصتك مع أبي حية ولماذا أراد قتلك

وناوله كأسا أخر فرفض: يكفي أشعر بثقل

- يقولون أنك تشرب البحر ولا تسكر

- لعنة الله عليكم لم يدمرنا إلا هذا الشراب

وأحس البعض أن العرج على وشك أن يدخل في دوامة جديدة تخرب أمزجتهم فسارع احد الجلوس بملاطفته وإبعاده عن عن ذلك الجو وبعد ممازحات استعادوه بلطف للحديث، فعاد إلى الحديث برغبة فاترة:

- أعتقد أن الكارثة التي قلبت أبا حية قلبا وجعلته لا يعرف ماذا يفعل أنه حينما وافق المورقي على زواج ابنته من ابن أخي المأمور ذهب إليه أبو حية يرجوه أن لا يفرق بينه وبين محبوبته، فسخر منه لكن أباحية قايضه بإفشاء سر أبي مريم، ولا أعرف بالتحديد ما ذلك السر الذي يجمع الثلاثة لكنني أذكر أن أبا حية كان إذا سلبته الخمرة مقدرته على التركيز فإن حالته تسوء ويبكي ويتناشج بحرقة ويردد جمل مفككة:

- الكلب وعدني

- لقد بعت صاحبي بثمن بخس

- حذاء أبو مريم أشرف من كل الرجال

- الكلب عينه عليها

جمل كثيرة تفهم منها أن المأمور أوقعه في شيء محذور، وقد حاولت وأخرون معرفة ما حدث بالتحديد فلم نستطع فما يبدأ بالحديث حتى يعتلى نحيبه ويتركنا ويغادرنا صائحا:

- سأنتقم لأبي مريم في ذات يوم

(أصوات خافته أثناء حديث الأعرج

صوت 1: الأعرج سكر

صوت 2: اصمت دعه يقول ما يريد

صوت 3: نريده أن يحدثنا عن سبب محاولة أبو حية قتله

صوت 2: قلت لا أحد يثيره دعوه يقول كل ما يريد

صوت 3: كنت أسمع ان البحر لا يسكره

صوت 2: اصمتوا فهو يحدق بنا وربما انتهت الجلسة بغم)

لا أحد يعرف ماذا حدث، وقيل كلام كثير كان معظمه تلفيقا وحاول عبد الله إعاقة زواج مها كنت أعرف أنه رغب في قتل العريس، وهذه بداية التفكير في القتل، أبو حية صلب وقوي لكنه لا يحب القتل لكن هذه النزعة تربت بداخله فأصبح يحلم بالدم، أنا السبب، لالا المأمور السبب، كلكم السبب

أصوات خافته أثناء حديث الأعرج
صوت 4: لا أريد أن أسمع أي قصة هذا الأعرج سيخرب ليلتنا
صوت 5: أود أن أسمع السندي
صوت 3: لا فائدة سيذهب كلامه بسكرتنا لا محالة
صوت 2: إذا لم تصمتا غادروا المكان هادئين

المهم أن الأعرج حضر زفاف مها واقتيد إلى السجن قبل ان يستطيع إعاقة الزواج وزج به في السجن بتهمة تعكير صفو الآمنين ليخرج منه رجلا يتفانى في دمار نفسه فأقبل على شرب الخمر حتى يغيب عن الدنيا، وأصبح الشراب آفته الوحيدة كان يشرب بإسراف ويتحول إلى مسعور يمكن أن يأكل من هو أمامه. . . وكنا نتجمع بصورة دورية ويقوم اثنان منا بتدبير أمر السكر ليليا وفي إحدى المرات كان الدور علي وعلى المشجب - رحمه الله -، في تلك الليلة تم القبض على الصومالي الذي كان يوفر لنا العرق من خمارة اقتطعها في بيته ولم نستطع توفير الشراب الذي يروى عروق أبي حية، وعندما لم يجد الشراب هاج وهدد وتوعد أن لم نجلب له خمرا ليقتلن أحدنا فظل المشجب يرتعد هلعا فطلبت أن يمهلني بعض الوقت لتدبر أمرنا فلم يوافق أبوحية على هذا الاقتراح إلا ببقاء أحدنا معه فتركت المشجب رهينة عنده ووعدت أن أعود بعد ساعة بالعرق كأبعد مدى، وعندما غادرتهم وجدت نفسي حائرا من أين يمكن جلب العرق فطرقت أبواب بعض الأصدقاء فاعتذروا بحرارة وهممت بالعودة ولكنني خشيت من بطشه فقد أصبح إنسانا لا يطاق حين يغضب وبينما أنا سائر قفزت ببالي فكرة جريئة وقاتلة في الوقت نفسه ولكنني نفذتها، فدخلت إلى بيتي ووجدت به قارورة بها من عرق فتبولت فيها وخضضتها وقدمتها له، لكن حماقتي جعلتني أفشي هذا السر للمشجب حين سألني عن مصدر العرق، والمشجب - رحمه الله - رجل لا يعرف السكوت على شيء وقد تخلى من وقت مبكر عن الكياسة فهو أقرب إلى الدابة التي تساق فلم يصن السر، ففي إحدى جلساتنا نعته أبوحية نعتا بذيئا فلم يتمالك نفسه وصاح به:

- أنت أخس من دابة تشرب البول وتستحسنه

فبطش به أبوحية ليعرف مغزى قوله فلم يتمالك نفسه وسرد له كل

الحكاية أمام الجالسين الذين سربوا الخبر إلى بقية اليابات في الحواري الأخرى فأطلق عليه لقب:

- شارب البول

وعندما علم أقسم على قتلي ومع كل محاولة له يزج به في السجن.

لقد تلقى طعنات كثيرة فكان يبحث عن شخص يثأر منه، فكانت أمامه أهداف كثيرة فعلتي أضافت له لقبا بين أعدائه وأكسبته المهانة، والمأمور خطف حبيبته وغيب صديقه أبو مريم، المورقي أهانه كثيرا، الصامولة، والعمدة وجوه كثيرة وقفت أمامه فاختلطنا في مخيلته ولم يكن أمامه سوى قتل أي منا ليشفى من سعاره.

حضرت هذه الجلسة برفقة أبي عيسى وسجلتها كما هي

كان رفيقي الهندي يسخر من تأوهاتي، فقد مضى على ذلك الوشم عشرة أيام ولم يلتئم، ونبثت جروح اضافية كانت تشبعني ألما وحرقة، كان يزاملنا سجينا له دراية بمعالجة الجروح المستعصية،

وقف على جروحي وهز رأسه متحسرا، وبصوت تغالبه الحسرة ردد:

- لقد تسممت جروحك أنت تموت يا صاحبي

فيما كان رفيقي الهندي - من ركنه القريب - ينثر ابتساماته المبثوثة بتشف طاغ!!

47

في السجن كان رابضا كأسد جريح، يتلوى بصمت، رفض مرارا رؤيتي، وفي كل مرة كنت أمني نفسي برؤيته وأعود من غير أن يستجيب لصيحات العسكر الذين يعلنون الزيارات، كنت أتوق لأن أرى وجهه، أن ألمس يديه، أن أمكنه من قتلي لو أراد.

في خروجي الدائم إليه أسلك عدة طرق، وأختلق الأعذار للخروج، أقف أمام بوابة السجن مترددة أتطلع إلى تلك الأسوار العالية وأعود أجزع مما مضى، بعد عدة محاولات عبرت بوابة السجن وقفت أمام الزنازين، نساء

عديدات كن يجالسنا مساجينهم، وأنا أدور وأدور، عيناي تتقافز على الوجوه الغارقة في وحدتها، بعضها انطلقت أساريرها لرؤية أبنائه أو زوجته، والتفوا في جلسة يتبادلون الأحاديث والأشواق، وقلبي كهف مظلم ينعب بغربان لا تمل النعيق، تلفت كثيرا، وخرجت، بعدها كنت أدخل مع الزائرين وأظل أسأل العسكر عن زنزانة عبد الله الفسيني، ظللت لوقت أتنقل بين العسكر ولا أحد يدلني، في الزيارة الخامسة، قال أحد العسكر:

- تقصدين أبو حية

غمغمت: نعم أبو حية، فأشار إلى إحدى الزنازين: هناك تجدينه

ارتعبت، وخطوت عدة خطوات وتراجعت راكضة إلى البيت.

دأبت على زيارته، أقف أمام زنزانته، علني ألمحه من بعد، وفي كل مرة أعود من غير أن أتمكن من رؤيته، تجرأت وطلبت رؤيته، تعجب العسكري الواقف على الزنزانة:

- هذه أول مرة تزوره امرأة، هل هو قريب لك

- نعم

فانطلق صوت العسكر من خلف القضبان صائحا:

- أبو حية لك زيارة

وانتظرت كنت خائفة، فانسحبت مستعجلة، في كل مرة يصيبني الذعر فأتراجع عن رؤيته، عدت فوجدت العسكري يقف كما تركته في أخر مرة، نظر إلي:

- أخشى أن تتعبي وأنت تنتظرين

صمت، فمد صوته: أبو حية زيارة

مضى الوقت بطيئا ثقيلا، هممت بالنكوص، سمعت العسكري يوصى أحد القريبين من الشبك:

- قل لأبي حية أن قريبته تريد رؤيته

غاب النزيل بعض الوقت وعاد: لا يرغب في رؤية أحد

انتظرت، وانتظرت، وفي كل زيارة أمنى نفسي برؤيته، وفي أخر مرة رق لحالي العسكري فقال:

- اطلبي زيارة خاصة

وبعد جهد حصلت على تلك الزيارة، جلست في إحدى الغرف انتظر، مضى وقت طويل قبل أن يدخل، وعندما رآني جلس، وتهاوى على ركبتيه وانتحب، اقتربت منه، تمنيت لو أني أستطيع أن أضمه.

هالني منظره، لقد اخترق الزمن جسده سريعا، شعره أبيض وعيناه ضائعتان، وأسنانه الأمامية السفلية تخلت عن مواقعها، وتآكل شعره ولم يبق منه سوى قامة تضرب الفضاء بتواضع حتى قامته تخلت عن صرامتها وعنفوانها.

جسده يرتفع ويهبط وهو يحاول السيطرة على موجة البكاء التي اعترته، فجأة صاح:

- ما الذي جاء بك إلى هنا، أخرجي

- ليس لي ذنب فيما حدث

- اخرجي

تهاديت، كان لا يزال يحاول التغلب على ضعفه المفاجئ، عدت إليه وارتميت على صدره، دفعني بكل قوة، فسقطت أئن، أنهضني ودفن رأسه في أحضاني، لا أدري ربما أحترق صدري بدموعه، كنت أريده أن يسكت أن يقول كلمة أخرى، أن يشبعني ضربا، أن يحكى تعبه، نهر طويل من النشيج سال بين أركان تلك الغرفة المغلقة.

وبكينا، طويلا بكينا، كان صوت العسكري حازما:

- انتهت الزيارة

تسلل من بين يدي، يخبئ وجهه من ضعفه، سمعته قبل أن يبتلعه الباب:

- أرجوك لا أريد رؤيتك مرة ثانية

ما أسرت به مها لإحدى صديقاتها وقد أسرت خبرها لزوجها واستقيت منه هذه الحكاية مقابل مبلغ مالي

في أيام الزيارة أظل مصغيا لنداء العسكر ممنيا نفسي أن تزورني ربما أعتراني مس، فما الذي يدعوها لزيارتي.. ليس بيننا سوى وهم نسجته بمفردي، وجلوس طويل أمام منزلها وكلما رأتني مسمرا في موقعي أغلقت باباها بعنف

**** ****

لبست الحمى وكان همي الوحيد أن أستطيع كتابة هذه الحكايات التي جمعتها قبل أن يداهمني الموت لقد سرى العطب في جلدي فاهترى وأخذ ينز بروائح كريهه، أنا الآن أحس بمخالب الموت تنزع روحي نزعا.. ليس لي من رغبة سوى رؤية عين مها.. فمن يبلغها هذه الرغبة.؟

48

صوت مؤذن مسجد الحنفي يرتفع من منارته القديمة بإلحاح بينما انشغلت مجموعة كبيرة بالبحث عن مكان لها بين تلك الجموع التي تجمعت أمام فندق أطلس، وبالرغم من كونه الآذان الثاني إلا أن قلة تحركت في اتجاه المسجد وظلت البقية منشغلة بالبحث عن مكان يمكنها رؤية القصاص بيسر من غير الحاجة للبحث عن كرسي يزيد من قامة بعض قصار القامة.

تشاغل المصلون بالهمس الخفيض بينما كان الأمام يخطب عن تحريم قتل النفس إلا بالحق وأحس بالمصلين متنافرين، مقتعدين آخر الصفوف وعيونهم تهرب بين لحظة وأخرى نحو الأبواب المفتوحة، كان يرغب في التوغل في موضوع خطبته وقد كتب العديد من الصفحات ابتداء من بقعة الدم التي خرجت من جمجمة هابيل حتى آخر جثة ألقيت على مرمى حارتنا وقد امتنع عن الكلام ليلة الجمعة وصباحها ليحتفظ بقوة صوته لمثل هذه اللحظة، وعندما ارتقى المنبر لم يتنبه له أحد من المصلين حيث ظل اللغط الخفيف يسرى بين جنبات المسجد والإشارات تتجه صوب رجل جلس في مقدمة الصفوف متقلدا سيفه ووجهه يفيض بالجمود والتأهب لذلك اختصر خطبته ونودي لإقامة الصلاة وعبثا ذهب صوته لجذب تلك الصفوف المتأخرة:

- تقدموا. . تراصوا. . سدوا الفرج

ولأول مرة تقام الصلاة ويتزاحم الناس على الصفوف المتأخرة بينما ظلت

الصفوف الأمامية يتخللها الريح وبعض الصبية الذين حضروا الصلاة ولشدة حرص بعض المصلين على الخروج المبكر فقد حملوا أحذيتهم تحت إبطهم كي لا يضيع الوقت في البحث عنها بعد انتهاء الصلاة. . وما سلم الأمام حتى تطاير المصلون من أبواب المسجد كالجراد مهرولين صوب ساحة الإعدام.

رواية أبو عيسى

تجمعوا المساجين حولي بينما كنت أئن بصوت مكتوم، كانت نظراتهم تسيل شفقة علي، وأنا اقبض ووجوههم وأغيب في إغفاءة طويلة، اخر عهدي بهم حين افقت ذات مساء والقيت هذه الأوراق في يده وأنا أتمتم:

- وصيتي هذه الأوراق أريدها أن تنشر فهمت

تنشر باي طريقة

وقبل أن اكمل جملتي سرقتني غيبوبة حادة.

49

الشمس تلعق الرؤوس الحاسرة بألسنتها الحارقة العمودية فتحيلها إلى مراجل تغلي، هذا الجو الملتهب قابله فوران داخل الحارة، فهو يوم موعود فقد تسرب خبر أبي حية، فانشغل أصدقاؤه بالتشاور كان معظمهم يفضل عدم حضور القصاص، الأعرج والدندون أخذا يبكيان ويحتضنان بعضهما جزعين، اقترب منهما أبو عيسى:

- لا تبكوه قبل الأوان عسى الله يفرج كربته في آخر ساعة

انخرط الدندون في بكاء عال:

- لن يسامحه أحد

- يأتي الفرج من حيث لا تعلمون

قال الأخرش:

- والله لا أستطيع رؤية رأسه وهي تفصل عن تلك القامة التي طالما حضنتها، ولن أذهب

وانظم الأعرج والدندون إلى قراره فحاول أبوعيسى أن يثنيهم لكنهم اكتفوا بالقول:

- سوف نهتم بإقامة سرداق لتقبل العزاء فيه، اذهب أنت واخبرنا بما يحدث

وجلسوا واجمين بينما تحرك أبوعيسى ليلحق بالقصاص قبل أن ينفذ.

** **

في تلك الظهيرة الحارقة خرجت امرأة هزيلة تغالب مرضها وتلف نفسها بعباءة حائلة، تسير بعجلة صوب ساحة الإعدام.

كان منظرها شاذا وسط تلك التجمهرة العظيمة من الرجال الملتفة حول الساحة، فكانت تمد رأسها فلا ترى إلا أجسادا متراصة ومتزاحمة، فتنتقل من مكان إلى آخر، وفي كل جهة تتجه إليها تجد من ينهرها بغلظة:

- يا مرة هذا المكان ليس للحريم

فلا تجيب وتتحرك إلى مكان آخر، أحدهم رق لها فخاطبها بلين:

- هل يقرب لك؟

وقفت متصلبة حائرة، وعندما أعاد السؤال تحجرت الكلمات في حلقها وحين هزت رأسها أردف:

- استعيض خيرا بالله، وادعي له فهو مقابل كريما

سمع نشيجها حارا فوارا:

- هل هو أبوك؟

- . . . .

- أخوك

- . . . .

- زوجك

- . . . .

- آسف لقد أثقلت عليك

- . . . .

- الآن لم يعد البكاء مجديا ادع له

- ياااااااالله

- أنصحك بخير الدعاء قولي: يا من لا تموت أرحم من يموت .

*** ***

من نوافذ فندق أطلس تدلت أعناق كثيرة وفي ساحة الإعدام انتشر الحرس يمنعون تدفق الناس مكتفين بجعلهم يشكلون دائرة واحدة تلك الدائرة التي عجز عن اختراقها السياف بمعاونة رجال الشرطة وفي وسط الساحة كانت تقف سيارتان إحداهما سيارة السجون والأخرى سيارة إسعاف وبعد ان توسط السياف الساحة نزلت من سيارة السجن جثة فارعة تتمتد بقامتها صوب الفضاء كان صاحبها يواسع بين خطواته رافضا أن تعصب عيناه ومتذمرا من تلك القيود التي أعاقته، ومن أمامه وخلفه تحرك الحرس وعندما حاول أحد الحرس اجلاسه دفعه بكتفه وجلس في وضع نصف سجود غير مكترث بما كان يتلوه مندوب المحكمة في بيان التهمة، كانت عيناه تركض في الجموع المحتشدة وعندما رأى أبا عيسى نهض من جلسته وصاح به:

- ألم يأتي الأعرج. . أريد. .

وقبل أن يكمل جملته كان السياف قد ضرب هامته ضربة سمع له خشخشة العظام المهشمة فجلس على مؤخرته ومالت رقبته على جنبه الأيمن فتحشرجت كلمات كانت تهم بالخروج حين كان الدم يشخب من بلعومه وعندما حاول النهوض اتبعه السياف بضربة جعلت رأسه يتدحرج جوار أقدام الواقفين.

فيما ارتفعت زغرودة عالية من امرأة كانت تقف خلف المتجمهرين وتبعتها بنواح مرتفع وهي تصيح:

- يا من لا يموت أرحم من يموت.

اشترك في سرد هذه الأحداث نساء ورجال وأطفال الهندامية وهناك أقوال أخرى عن مقتل أبي حية ربما أتمكن من كتابتها غدا هذا إذا نجوت من التسمم الذي اصاب جسدي أنا الان انام في إحدى غرف المستشفى العام بباب شريف وكل ما أخشاه أن من أعطيته بقية هذه الأوراق لا ينفذ وصيتي.

لا تضيع وقتك

هذه الرواية كتبت لتزجية الوقت فلا تقرأها، وإذا فعلت لا يشطح خيالك بعيدا أو قريبا فأشخاصها وأزمنتها وأمكنتها اختلاق في اختلاق.[27]

---

(27) - وحدهم الكذبة الذين يختلقون الحكايات

ربما تريح هذه الجملة تأنيب الضميري الذي يعترني كلما تذكرت أنني أقدمت على اقتراف هذا الاثم .. ربما تريحني تلك الجملة قليلا .. ربما ،ولولا وصية التزمت بها لكنت أحرقت هذه الأوراق أو قذفت بها لأقرب سلة تجاورني ،كان إلحاحه يصل لدرجة الاشمئزاز منه ومن ادعائه ،أعلم أنني بنشر هذه الرواية سأضيف تزيفا جديدا .. ولأن القارىء ليس لديه الوقت لقراءة كل الكتب التي تضخ بالسوق ويلتهمها كحقيقة واقعة،أجدني ملزما من أجل الهروب من زخات التأنيب التي تلاحقني والتي أشعر معها أنني أخسر جزء من صدقي مع نفسي أجدني مضطرا للاعتذار عن هذا الإثم ...ومن أعلن توبته فقد برأ .

** **

اطلعت على الرواية بعد الطبع ووجدت عن هذه الصفحة وضعت في أخر الرواية ،وكان الأجدر أن توضع في أول صفحة ،الآن انتهى كل شيء ولم تعد هناك قيمة لهذه الصفحة ..

وهذه تذكرني بطرفة ،فقد دأب أهل البلد بالتنكيت على مدينة تجاورهم حيث قامت بلدية تلك المدينة بوضع لافتة عريضة في أحد الطرق السريعة.. تقول اليافتة :

- انتبه خلفك مطبات خطرة

وهذا ما حدث لهذا التنويه ،فهو تنبيه متأخر ولهذا أجد أنني مكلل بذنوب ذلك الخرف الذي أرهقني حيا وميتا .. كان يجاورني في زنزانتي ،وكم كنت اتمنى لو ان أبا حية قد أراحنا منه قبل أن يخرج كل هذه الأسرار التي عادة ما تموت خلف أسوار الزنازين المظلمة .. فهل لكم حاجة لأن أثرثر بدلا عنه،أغلقوا الصفحة الأخيرة وانسوا كل ما قرأتم .

عبدالله عمر-الشهير بالمعلم
الذي أوكل إليه الراوي نشر هذه الحكايات

هذا الكتاب

«. . . وقبل أن يكمل جملته كان السيّاف قد ضرب هامته ضربة لها خشخشة العظام المهشمة فجلس على مؤخرته ومالت رقبته على جنبه الأيمن فتحشرجت كلمات كانت تهم بالخروج حين كان الدم يشخب من بلعومه وعندما حاول النهوض اتبعه السيّاف بضربة جعلت رأسه يتدحرج جوار أقدام الواقفين.

فيما ارتفعت زغرودة عالية من امرأة كانت تقف خلف المتجمهرين وتبعتها بنواح مرتفع وهي تصيح:

– يا من لا يموت ارحم من يموت. . .»